الإتجاه الإسلامي

في الشعر المصري المحافظ

من ١٨٨٢ إلى ١٩١٩



د. نبيل سليمان طبوشه



الاتجاه الإسلامي

في الشعر المصري المحافظ

من سنة ١٨٨٢ - سنة ١٩١٩

تأليف

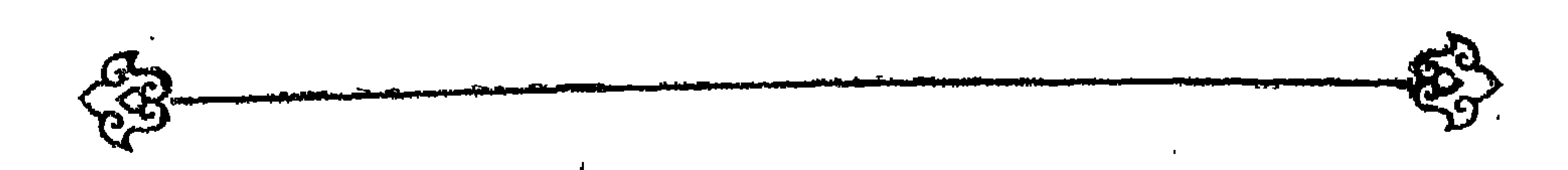
دكتور نبيل سليمان طبوشة

كلية الآداب - جامعة طنطا



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٠



بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

رَبَّنَا ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا .

صدق الله العظيم





إهـــــداء

الى أحبابى ..

« زوجتى العزيزة .. وأولادى الأعزاء »

فمن أجلهم كان هذا الكتاب ؟

نبيــل

مقدمة

الاتجاه الاسلامى فى شعر مدرسة الشعراء المحافظين فى مصر قضية جديرة بالدراسة والبحث ، لا لأنها ذات مضمون زاخر بالمعانى الاسلامية والعاطفية الدينية ، ولا لأنها كانت تمثل تيارا قويا فى الفكر الأدبى المصرى يوم كانت النزعة الدينية غالبة على النفوس ، ويوم كان لعلماء الدين ــ بما ينتسبون اليه ــ صوت مسموع ورأى مطاع .

ولكن لأنها قضية تعكس العداء الصليبى الذى كان ولا يزال يكيده للاسلام ويعمل على تقويض دعائمه ، منذ بداية القرن التاسع عشر الميلادى حين تجددت المؤامرات الصليبية ضد الاسلام وتآمرت الدول الأوروبية على تمزيق الكيان الاسلامى وتقسيم أملاك الدولة العثمانية ، فاحتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠ ، وتونس سنة ١٨٨١ ، ومراكش سنة ١٩١٢ ، واحتلت انجلترا مصر سنة ١٨٨٢ ، والعراق سنة ١٩١٤ ، وفلسطين سنة ١٩١٨ واحتلت ايطاليا طرابلس سنة ١٩١١ .

وكان هذا الاحتلال تأكيدا لروح العداء الصليبى ضد الاسلام وشعوبه وقد ظهر ذلك فى سياسة الهدم للقيم والمبادىء الاسلامية ، وفى اشاعة الفساد وألوان الانحراف بين عامة المسلمين ، وفى افساد نظم التعليم ، واستنزاف ثروات البلاد ، والقضاء على الحريات ، والتفرقة بين عنصرى الأمة كما ظهر فى الدعوة الى العامية ، ونبذ الفصحى ، واستبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية ، وفى الهجوم على الاسلام والطعن فى مبادئه ، مع التبشير بالمسيحية واعلاء شأنها على حساب الاسلام .

وازاء هذا الخطر الصليبى الزاحف ــ كانت حتمية التصدى الاسلامى لهذا العدوان ، فظهرت الدعوة الى الجامعة الاسلامية فكرة سياسية دينية تستهدف تجمع المسلمين تحت لواء الخلافة العثمانية فى مواجهة التحزب الغربى ومؤامراته ضد الدولة العثمانية وشعوبها الاسلامية ، وتعالت صيحات المسلمين بالدعوة الى التحرر الاسلامى من ربقة الاستعمار الأوروبى ، وانبرى دعاة الوطنية ينددون بسياسة الاستعمار ويعبئون مشاعر الأمة للنضال فى سبيل الحرية والاستقلال .

وبذلك تجاوبت الآمال الوطنية مع الآمال الاسلامية فى الخلاص من الاستعمار الغربى ، وامتزجت العاطفة الوطنية بالعاطفة الدينية فى الاعتصام بالخلافة العثمانية رمز الرابطة الدينية التى تجمع بين المسلمين ٠

ثم كانت الدعوة الى اصلاح المجتمع الاسلامى من آفات الغرب ومخازى المدنية الحديثة ، وتنقية الدين مما علق به من شوائب البدع والخرافات والاهتمام بالتعليم ، والحفاظ على اللغة القرآنية ، واظهار شخصية الاسلام وابراز محاسنه والاشادة بحضارته ٠٠ رد فعل اسلامى لمحاولات الهدم الصليبى لمقومات الحياة الاسلامية ٠

★★★

وفى غمرة هذه المواجهة بين الشرق الاسلامى والغرب الصليبى كان الشعراء المحافظون فى مصر يأخذون أماكنهم فى صفوف المدافعين عن الاسلام فى كل الميادين السياسية والاجتماعية والثقافية والحضارية ٠

فدعوا الى الجامعة الاسلامية تحت لواء الخلافة العثمانية ، وأيدوا سلطانها وناصروا شعوبها ، ونددوا بأعدائها ، وجاهدوا فى سبيل تحقيق السيادة الوطنية المصرية ، وشاركوا فى الدعوة الى الاصلاح الاجتماعى بالحث على مكارم الأخلاق ونبذ الفساد والانحلال حينا ، وبالدعوة الى محاربة البدع والخرافات وتصحيح العقائد حينا آخر ، ثم بالدعوة الى العلم والتعليم تارة ، وبالدعوة الى البر والاحسان والتكافل الاجتماعى تارة أخرى ٠

كما حافظوا على تراث الأمة العربية والاسلامية بتمسكهم بالتقاليد الفنية القديمة فى شعرهم من ناحية ، ثم بدفاعهم عن اللغة العربية من ناحية أخرى ٠

كما تصدوا للطاعنين فى الاسلام فدافعوا عن مبادىء الدين ، وأشادوا بحضارته ، وهتفوا بمجوده ٠

وهكذا أدى الشعر المحافظ رسالته الاسلامية والوطنية فى هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ أمته وكان تعبيرا صادقا عن آمالها وأمانيها الدينية والوطنية ٠

وقد رأيت ان هذا الدور الاسلامى الذى أداه الشعر المحافظ فى هذه المواجهة الشاملة بين الحضارة الاسلامية الأصيلة والحضارة الغربية الوافدة يستحق الدراسة والبحث ، لأنه يعكس ظلال السيوف التى

استهدفت الاسلام والمسلمين ، بقدر ما يكشف عن عظمة الاسلام وقدرته على الثبات والتحدى بما له من امكانات تصلح أساسا لأقوى حضارة ٠

وتلك أهمية هذا البحث فى نظـرى ٠

أما من أعنيهم بـ « الشعراء المحافظين » فهم ذلك الجيل من الشعراء الذين جاءوا بعد البارودى ، وتبعوه فى منهجه الفنى ، وحافظوا على طريقة القـدماء فى صياغة الشعر ، وسماهم الجيـل الذى خلفهم بالمحافظين لتمسكهم بالمادة الأدبية القديمة ٠

وفى مقدمة هؤلاء الشعراء « أحمد شوقى » و « حافظ ابراهيم » و « محمد عبد المطلب » و « أحمد محرم » و « أحمد نسيم » و « أحمد الكاشف » و « على الغاياتى » و « عبد الحليم المصرى » و « محمد حمدى النشار » و « الشيخ حسن القاياتى » ٠

ولست أريد فى هذا البحث أن أحصى الشعراء المحافظين عدا ، ولا أن أستشهد بشعرهم جميعا فى كل موقف أو مناسبة ، فان ذلك فوق طاقة البحث ، وانما أريد أن أرسم الملامح العامة للاتجاه الاسلامى فى شعرهم وهذا ــ فى رأيى ــ يصدق بمثال واحد كما يصدق بأكثر من ذلك ٠

★★★

أما منهج البحث فانه يقوم على ثلاثة أصول :

١ ــ **تاريخى** : وأقصد به العلاقة بين النص وظروف العصر وأحداث البيئة من حيث ان الأدب عامة صورة لما يموج به العصر والبيئة من ظروف وأحداث يتأثر بها الأديب ٠

٢ ــ **فنى** : وأعنى به دراسة الخصائص الفنية وبيان القيم الشعورية والتعبيرية للشعر المحافظ فى ضوء المذهب الفنى الذى ينتمى اليه شعراء هذا الجيل ٠

٣ ــ **نفسى** : من حيث ان هذا الاتجاه الاسلامى فى الشعر المحافظ كان صدى لمؤثرات سياسية واجتماعية وثقافية وحضارية ذوات صبغة دينية ، قد انفعلت بها نفوس هؤلاء الشعراء واستجابت لها عواطفهم ٠



وفى ضوء هذا المنهج ، قسمت البحث الى أربعة أبواب وخاتمة :

اختص الأول منها بدراسة (الاتجاه السياسى) فى الشعر المحافظ ، وفيه عالجت القضايا السياسية ذوات الصلة بالدين سواء منها ما يتصل بالمسلمين عامة أو بالمصريين خاصة ·

وقد جاء هذا الباب فى فصلين :

تحدثت فى الأول منهما عن « الجامعة الاسلامية » فبينت أنها كانت تيارا سياسيا دينيا يستهدف مقاومة الغرب المسيحى وصده ودفع عدوانه، وتحرير بلاد الشرق الاسلامى من سيطرته ، وأن هذا التجمع الاسلامى تحت راية الخلافة العثمانية كان ضرورة يفرضها واجب الدفاع عن الاسلام والمسلمين · ثم أشرت الى موقف الزعماء السياسيين فى مصر من الدولة العثمانية · فذكرت أنهم كانوا يرون فيها سلطان الدين ، كما كانوا يرون فى سيادتها تهديدا للاحتلال البريطانى فى مصر ، ثم تكلمت عن موقف الشعراء المحافظين فبينت أنهم قد اتجهوا نحو الدولة العثمانية يؤيدونها ويلتفون حول رايتها ، ويمتدحون سلطانها حامى حمى الاسلام ، ويستميحونه نصرا لمصر ، ويشكون اليه ما أصابهم على يد الانجليز ، ثم تحدثت عن تأييد الشعراء للدولة العثمانية فى حروبها الاسلامية التى كانت مظهرا من مظاهر التجمع الاسلامى فى مواجهة الغزو الصليبى · ثم أشرت الى المعانى الاسلامية فى شعر الحروب العثمانية ، ودلالتها على غلبة النزعة الدينية فى هذا العصر من ناحية ثم على مشروعية الحرب التى خاضتها الدولة العثمانية دفاعا عن مقدساتها من ناحية أخرى · ثم أشرت الى تهجم الغرب على الاسلام وأثر ذلك فى اثارة الحمية الدينية واقناع المسلمين بضرورة التجمع الاسلامى لمواجهة العداء الصليبى للاسلام ثم بينت موقف الشعراء المحافظين من هذا الهجوم · · ·

★★★

وفى الفصل الثانى من هذا الباب تحدثت عن « السيادة الوطنية المصرية » ، فذكرت أن الاتجاه نحو تحقيق السيادة الوطنية المصرية كان مرهونا بزوال الاحتلال البريطانى الذى أصاب الروح الوطنية بالبأس والاستخذاء ، ثم أشرت الى جهود الزعماء السياسيين فى انهاض الروح الوطنية ، وبث معانى العزة والكرامة فى النفوس ، ثم تحدثت عن أهم القضايا الوطنية ذات المساس بالدين ، وعرضت لموقف الاسلام من هذه القضايا · ثم ختمت بملاحظات عامة ·

أما الباب الثانى : فقد جعلته فى « الاتجاه الاجتماعى » محاولا رسم صورة عامة للحياة الاجتمـاعية المصرية مبينا موقف الشعر المحافظ من قضايا المجتمع ومشكلاته فى ضوء المفاهيم الاسلامية ٠

وقد جاء هذا الباب فى فصلين :

أولهما : فى « الحياة الاجتماعية فى مصر : تصوير عام » وفى هذا الفصل قدمت صورة عامة للحياة الاجتماعية المصرية من خلال تيـارين أساسيين هما : الجديد الطارىء والقديم الموروث ٠

ثم تحدثت عن هذين التيارين وأبرزت أثرهما فى الحياة المصرية ثم بينت كيف تعامل الشعر المحافظ مع هذين التيارين بما يتفق وموقف الاسلام ٠ وانتهيت فى هذا الفصل الى أن المجتمع المصرى قد كان فى حاجة الى الاصلاح والنهضة ٠

***

أما ثانى الفصلين من هـذه البـاب : فهو « الدعوة الى الاصـلاح الاجتماعى » وفى هذا الفصل أبرزت أهم القضايا والمشكلات الاجتماعية التى شارك الشعر المحافظ فى اصلاحها بفكر موصول بالاسلام ٠

ولقد كان من أبرز هذه القضايا قضية المرأة ، ومشكلة الفقر ، وقضية التعليم ، وقضية الشباب ، وقد أوضحت من خلال مناقشة هذه القضايا مدى الدور الاجتماعى الذى أداه الشعر الإسلامى المحافظ فى هذه الفترة المفعمة بالمشكلات والأحداث الاجتماعية ٠

★★★

أما البـاب الثالث من أبواب الرسالة فقد تناولت فيه « الاتجـاه الحضارى » كما يتمثل فى اهتمام الشعراء بتجلية ملامح الحضارة الاسلامية وابراز قسماتها فى مواجهة الحضارة الغربية الوافدة ٠

وقد قسمت هذا الباب الى فصلين :

تحدثت فى **الأول** منهما عن (الاشادة بالحضارة الاسلامية) فذكرت أن الاتجاه نحو الحضارة الاسلامية ، والاشادة بعطائها ، وتمجيد بناتها والهتاف بالاسلام الذى صنعها وبالأمة التى حملتها الى الناس كان محاولة لرد اعتبار المسلمين فى هذه الحقبة التى كان الشرق الاسلامى فيها يتردى فى مهـاوى التخلف والجمود ويترنح تحت ضربات الاستعمار وتتهاوى أعـلامه تحت أقدام الغزاة ، وتعجز امكاناته عن المواجهـة المتكافئة مع

الحضارة الغربية الناهضة ، ثم أبرزت ملامح هذه الحضارة الإسلامية من خلال الوثائق التاريخية مؤكدا أن الاسلام هو صانع هذه الحضارة ، ثم تمليت صورة هذه الحضارة العلمية والعملية أو العقلية والمادية فى مرآة الشعر المحافظ ٠

ثم تحدثت عن تمجيد الشعراء المحافظين لعظماء الاسلام ، فأشرت الى أن هذا التمجيد كان صورة من صور البعث النفسى تستهدف اعادة الثقة فى نفوس المسلمين المعاصرين ، وتستحفزهم الى الجهاد والمضى فى طريق المجد الذى بناه الأولون ٠

★★★

وفى الفصل الثانى من هذا الباب : تحدثت عن « التعريف بالاسلام فى مواجهة التحديات » فبينت أن التعريف بالاسلام كان يستهدف اثبات صلاحية الاسلام بل ضرورته لبناء نهضة قوية على أساسه ٠

ثم ذكرت أن « الأفغانى » و « محمد عبده » قد رادا هذا الاتجاه بما كتبا عن الاسلام ، ثم أشرت الى دور الصحف الدينية فى دعم هـذا الاتجاه ثم تحدثت عن دور الشعر فى الكشف عن مزايا الاسلام ومحاسنه ثم ذكرت أن الشعراء المحافظين قد أخـذوا من منطلق الاحساس بمزايا الاسلام وعظمة مبادئه يهتفون به ، ويدعون الى التمسك بمبادئه واحياء منهجه ، مؤكدين أنه السبيل الوحيد لاستعادة المجد الغارب ، ثم بينت أن ايمان الشعراء بعظمة الاسلام قد دفعهم الى الحرص على تراثه وحماية لغته الفصحى من محاولات الهدم التى تعرضت لها فى هذه الآونة ٠

★★★

أما الباب الرابع فقد قصرته على « الدراسة الفنية » للشعر الاسلامى المحافظ فى مصر ٠

وقد قسمت هذه الدراسة الى فصلين :

تناولت فى الفصل الأول منهما : « الشكل الفنى للقصيدة الاسلامية فى الشعر المحافظ فى مصر » من حيث الصياغة أولا ، ثم من حيث البناء الفنى للقصيدة ثانيا ٠

وفي الصياغة ، تحدثت عن : الألفاظ ، والعبارات ، والمحسنات البديعية ، والموسيقى الشعرية ، والصور الجمالية .

وفي البناء الفنى تحدثت عن منهج المحافظين فى بناء قصائدهم ومدى ما حققوه من تطور فى هذا المجال .

وفي الفصل الثاني من الدراسة الفنية تناولت « المضمون الاسلامى فى الشعر المحافظ فى مصر » فتحدثت عن :

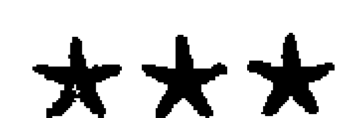
الأفكار والمعانى الاسلامية ، ثم تحدثت عن العاطفة الدينية فى شعر المحافظين ، ثم تكلمت عن الموضوعات الاسلامية فى شعرهم .

أما الخاتمة فقد أوجزت فيها أهم نتائج البحث .

أما المصادر التى استقت منها الدراسة ومدى الافادة منها فانى أذكر على سبيل الاجمال أن هذه المصادر كانت كثيرة ومتنوعة وأن البحث قد أفاد منها جميعا ولكني – فى حدود هذه المقدمة أجد صعوبة فى بيان ذلك تفصيلا ومن ثم اكتفيت بالاشارة اليها فى هوامش البحث ثم أثبتها مرتبة فى نهاية الرسالة .

وبعـــد :

فهــذا ما وفقنى الله اليه ، وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب ..



البـاب الأول
الاتجاه السياسي

● ويشتمل على فصلين :

الفصل الأول :

الجامعة الاسلامية

الفصل الثاني :

السيادة الوطنية المصرية

الفصل الأول

(الجامعة الاسلامية)

كان الاتجاه نحو الخلافة العثمانية وتأييد فكرة الجامعة الاسلامية ، تيارا أساسيا في الفكر السياسى المصرى منذ أواخر القرن التاسع عشر والى ما بعد الحرب العالمية الأولى وكان لذلك الاتجاه دوافعه الدينية والوطنية التى تتلخص فى الخوف على ديار الاسلام من خطر الزحف الأوروبى الذى اشتد على المسلمين فى نحو منتصف القرن التاسع عشر حين أخذت أوروبا تغرس مخالبها فى كثير من بلاد العالم الاسلامى ٠

فاحتل الفرنسيون الجزائر سنة ١٨٣٠ ثم تونس سنة ١٨٨١ ، واستولى الروس على القوقاز ، وسيطرت انجلترا على الهند ثم على مصر بعد ذلك ، واستعمرت هولندا أندونيسيا وبات العالم الاسلامى كله محوطا بالخطر مهددا بالضياع ٠

وازاء هذا الاحساس بالخطر على الاسلام تنادى المسلمون بالدعوة الى ما يأمر به الدين من وحدة دينية تجمع المسلمين صفا واحدا فى مواجهة عدوهم المتربص بهم ٠

ومن هنا ولدت فكرة الجامعة الاسلامية تيارا سياسيا دينيا يستهدف مقاومة الغرب المسيحى وصده ودفع عدوانه ، وتحرير بلاد الشرق الاسلامى من سيطرته ٠

وكانت كلمات السيد جمال الدين الأفغانى فى هذه الحقبة هى صوت النذير الذي أيقظ المسلمين على خطر الزحف الصليبى الجديد ، ووجههم

وجهة الجامعة الاسلامية لمقاومة هذا الزحف وصده • ومن هذه الكلمات التى كانت تتردد فى جنبات العالم الاسلامى يومئذ قوله :

« العالم النصرانى على اختلاف أممه وشعوبه عرقا وجنسية هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم وللاسلام على الخصوص فجميع الدول النصرانية متحدة معا على دك الممالك الاسلامية ما استطاعت الى ذلك سبيلا » (١) « الروح الصليبية لم تبرح كامنة فى صدور النصارى كمون النار فى الرماد ، وروح التعصب لم تنفك حية معتلجة فى قلوبهم حتى اليوم كما كانت فى قلب بطرس الناسك من قبل • فالنصرانية لم يزل التعصب مستقرا فى عناصرها ، متغلغلا فى أحشائها ، ومتمشيا فى كل عرق من عروقها ، وهى أبدا ناظرة نظرة العداء والحقد والتعصب الدينى المقوت ، وحقيقة هذا الأمر ونتيجته واقعتان فى كثير من الشئون الخطيرة والمواضع الكبرى حيث القوانين والشرائع الدولية لم تعامل فيها الأمم الاسلامية مستوية مع الأمم النصرانية » (٢) •

« جميع الشعوب النصرانية مجتمعة متفقة على عداء الاسلام وروح هذا العداء متمثلة بجهد جميع هذه الشعوب جهدا خفيا مستترا متواليا لسحق الاسلام سحقا » (٣) •

ومما قوى هذا الاحساس بالخطر لدى المسلمين •• ما كان يبدو من الدول الأوروبية من سلوك العداء والتحدى للاسلام والمسلمين • فقد كانت روسيا « لا تنقطع عن اثارة الفتن بين دول البلقان وتأليبهم على الحكم التركى ، ومدهم بالسلاح بدعوى التخلص من حكم المسلمين وكان « جلادستون » زعيم الأحرار بانجلترا يلقى الخطب الرنانة ويؤلف الرسائل المطولة ناسبا الى تركيا اضطهاد المسيحيين مشيرا الى السلطان عبد الحميد بقوله : « الشيطان » و « عدم المسيح » (٤) •

وقد بلغ من تعصب أحد كتاب فرنسا أن اقترح حلا للمسألة الاسلامية القضاء على المسلمين ، ونبش قبر الرسول الكريم ونقل عظامه الى متحف اللوفر فى باريس (٥) • وكان لهذه الأحداث ــ ولا شك ــ

---

(١) لوثروب ستودارد : **حاضر العالم الاسلامى** جـ ١ ص ١٣٧ ــ المطبعة السلفية ــ القاهرة سنة ١٣٤٣هـ •

(٢) لوثروب ستودارد •• **المرجع السابق** • والصفحة نفسها •

(٣) **المرجع السابق** ، والصفحة نفسها •

(٤) د• محمد محمد حسين : **الاتجاهات الوطنية** فى الأدب المعاصر ، ، جـ ١ ، ص ٢ •

(٥) محمد رشيد رضا : **تاريخ الاستاذ الامام محمد عبده** ، جـ ١ ، ص ٢ •

أثرها فى تنميــة الشعور بالرابطة الاسلامية وتغذية الاحساس بالخطر الذى يهدد شعوبها أمام غول الاستعمار الغربى المتربص بها (١) .

وفى خضم هذه الأحداث نشطت الدعوة الى الجامعة الاسلامية ، وأخذ المصلحون يحثون على اتحــاد كلمة المسلمين ويدعونهم الى الاخوة الدينية التى يأمر بها الدين وكانت مقالات « العروة الوثقى » فى « الوحدة الاسلامية » ذات صدى بعيد فى الوعى الاسلامى يومئذ .

يقول الامام محمد عبده فى « العروة الوثقى » (٢) داعيا الى الوحدة الاســـــلامية :

« ان من أدرنة الى بيشاور (٣) دولا اسلامية متصلة بالأراضى متحدة العقيدة يجمعهم القرآن وهم ممتازون بين أجيال الناس بالشجاعة والبسالة، أليس لهم أن يتفقوا على الذب والاقدام كما اتفق عليه سائر الأمم ؟ ولو اتفقوا عليس ذلك ببدع منهم فالاتفاق من أصول دينهم ، هل أصاب الخدر مشاعرهم فلا يحسون بحاجات بعضهم لبعض ؟ أليس لكل واحد منهم أن ينظر الى أخيه بما حكم الله فى قوله : « انما المؤمنون اخوة » فيقيمون بالوحــدة ســدا يحــول عنهم هذه السيول المنــدفعة عليهم من جميــع الجوانب » (٤) .

ويقول تحت عنوان (الوحدة والسيادة أو الوفاق والغلب) :

« هذان الأمران الوفاق والغلب عمادان قويان وركنان شديدان من أركان الديانة الاسلامية ، وفرضان محتومان على من يستمسك بهما . ومن يخالف أمر الله فيما فرض منهما عوقب بالخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ، جاء فى قول صاحب الشرع أن « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وجاء فى توجيه لا تقاطعوا ولا تدابروا ، ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله اخوانا » وهذا كله بعد ما أمر الله عباده بالاعتصام بحبله ونهاهم عن التفرق والتغــابن وامتن عليهم بنعمة الاخوة بعد أن كانوا أعداء ، ونطق الكتاب الالهى « انما المؤمنون اخوة » .

---

(١) د. محمد حسين : المرجع السابق ، ص ٣ .

(٢) من المعروف أن جمال الدين الأفغانى هو صاحب الفكرة فى مقالات « العروة الوثقى » وأن محمد عبده كان يصوغ الأفكار بعبارته .

(٣) « أدرنة » و « بيشاور » الاولى فى تركيا غربا والثانية فى بلاد الافغان شرقا . راجع : تاريخ الامام جـ ٢ ، ص ٢٨١ .

(٤) العروة الوثقى ـ العدد التاسع ٢٥ من رجب سنة ١٣٠١هـ ٢٢ مايو ١٩٨٤ راجع تاريخ الامام جـ ٢ ، ص ٢٨١ .

ويقـــول :

« .. كل هذه الرزايا التى حطت بأقطارنا ، ووضعت من أقدارنا ما كان قاذفنا ببلائها ، وراميا بسهامها ، الا افتراقنا وتدابرنا ، والتقاطع الذى نهانا الله ونبيه عنه لو أدينا حقوقا تطالبنا تلك الكلمة التى تهل بها السنتنا ، وتطمئن قلوبنا بذكرها ، وهى كلمة الله العليا هل كان يمكن للغرب أن يمزقوا ممالكنا كل ممزق ، وهل كان يلمع سبب العدوان فى وجوهنا ، وهل كنا نشيم نيران الأعداء الا وأقدامنا فى صياصيهم وأيدينا على نواصيهم ؟ » (١) .

على أن فكرة الوحدة التى دعا اليها السيدان : جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وغيرهما من زعماء العالم الاسلامى لم تكن غريبة على المسلمين وانما كان شعورا روحيا قائما بالفعل يربط بين المسلمين برباط الايمان، اذ كان مؤتمر الحج السنوى فى مكة يدعم هذا الشعور الأخوى ويقوى من روابطه حيث يؤدى الحجاج جميعا مناسك واحدة وفى أيام معلومات ، وهناك يتعارفون على اختـــلاف ألسنتهم وألوانهم ، ويتباثون العواطف الدينية ، ويتباحثون فى الشئون الاسلامية ويتدارسون مشكلاتهم وقضايا أوطانهم .

كذلك كانت الخلافة الاسلامية فى تاريخ المسلمين عاملا مهما من عوامل الوحدة بينهم . لا سيما فى عصور الاسلام الأولى فى حين كانت الخلافة قوية مهيبة ، وكانت رمزا لوحدة المسلمين وهيبتهم والدفاع عن دينهم وحفظ عقيدتهم وتحقيق السيادة لهم .

وفى هذه المدة كان السلطان عبد الحميد الثانى (١٨٧٦ ــ ١٩٠٩) على رأس الدولة العثمـانية التى كانت على الرغم مما أصابها من عوامل التصدع فى الداخل والخـارج أكبر الدول الاسـلامية وأقواها وأصلحها للقيام بالدور القيادى فى حركة التجمع الاسلامى وفى الدعوة الى الوحدة الاسلامية تحت جناح الخلافة العثمانية .

وكان السلطان عبد الحميد قد نشط فى احيــاء عظمــة الخـلافة الاسلامية فى هــذه الحقبة ، وعمل على استرداد ما كان لها من الجلالة والهيبة والخطورة فى العالم الاســـلامى (٢) فنـادى بأن سلطته الزمنية

---

(١) محمد رشيد رضا : تاريخ الامام محمد عبده ، جـ ٢ ، ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

(٢) لوثروب ستودارد : حاضر العالم الاسلامى ، جـ ١ ، ص ٧٢ .

تستند الى سلطته الدينية فهو ظل الله على الأرض ، وأمير المؤمنين ، وخليفة النبى وخادم الحرمين الشريفين (١) ٠

كما أحاط نفسه باطار من التقوى والزهد وظهر بمظهر الخليفة الزاهد ٠ فأعاد الى الأذهان صورة الخلفاء المسلمين الذين التزموا بفرائض الدين وتجردوا للدفاع عن الاسلام ٠ وكان لرسله ودعاته الذين بعث بهم الى البلاد الاسلامية دورهم فى تجميع القلوب حوله والدعوة له خليفة على المسلمين واماما لهم وحاميا لدينهم من عدوان الغرب المسيحى ٠ ومن ثم اتجهت مشاعر المسلمين ولا سيما فى البلاد التى هددتها الأطماع الأجنبية (٢) ٠ نحو السلطان عبد الحميد الذى تجح فى احياء فكرة الخلافة الاسلامية ونجح من خلالها فى تهيئة الشعور الاسلامى وتهيئته للولاء له ٠

كما نجح فى حمل أمراء المسلمين وقادتهم على الاعتراف بسلطته الروحانية فولوا وجوههم شطره وحسبوه قبلة آمال العالم الاسلامى ، وقدسوا مقامه تقديسا ، وغدا العظماء والكبراء يتقاطرون على « فروق » من كل فج من فجاج العالم الاسلامى لمبايعة الخليفة الأعظم امير المؤمنين وحامى بيضة الاسلام الذى مملكته مملكة حصن الاسلام والمسلمين (٣) ٠

وبذلك سرى فى ذهن المسلمين من رعايا الدولة العثمانية : « أن فى تأييد السلطان تأييدا للاسلام وهو خادمه وناصره ، واعلاء لشأن الشريعة وهو حاميها ومؤيدها وجامعا للكلمة وهو ما يأمر به الدين ويحض عليه ، فالتفوا حوله وساروا تحت علمه ، وبايعوه سيدا واماما (٤) ٠

وهكذا صار الخليفة العثمانى فى نظر المسلمين ممثلا للاسلام ، وداعيا له ، وصار تأييده فى نظرهم واجبا يفرضه الدين وصار الالتفاف حول راية الخلافة أمرا ضروريا تستوجبه طاعة الخليفة (٥) ٠

واذ نجح السلطان عبد الحميد فى احياء مكانة الخلافة الاسلامية وبعث هيبتها فى النفوس وتهيئة الشعور الاسلامى للجهاد فى سبيل الله

---

(١) د٠ على حسنى الخربوطلى : **القومية العربية من الفجر الى الظهر** ، ص ١٥٧ ٠

(٢) د٠ على حسنى الخربوطلى : **غروب الخلافة الاسلامية** ، ص ١٨٧ ٠

(٣) لوثروب ستودارد : **حاضر العالم الاسلامى** ، جـ ١ ، ص ١٤١ ٠

(٤) أمين سعيد : **الثورة العربية الكبرى** ، ص ١ ٠

(٥) محمد سالم الحمدانى : **التيار الدينى فى الشعر العراقى الحديث** ، ص ٢٥ « رسالة دكتوراه » مخطوطة بكلية الآداب ، جامعة عين شمس ٠

واعلاء راية الاسلام . أخذ يستصرخ الأمم الاسلامية فى كل رقعة من رقاع العالم الاسلامى لتمد يد العون اليه وتشد أزره بالالتفاف من حوله . وكان من وسائله فى تحقيق أهدافه الكشف عن ألوان العداء والمقت التى تضمره الدول الغربية للمسلمين ولم تكن الدول الغربية تتورع عن خلق المذابح الوحشية فى المكان المطلوب وفى الآونة المطلوبة فحدثت مذابح أرمينية ، ومذابح لبنان ومذابح الاسكندرية (١) .

وكانت أخبار المجازر الوحشية البشعة فى بلاد البلقان تتردد بين المسلمين فتوقد نار الحمية الدينية فى قلوبهم حتى غدا مفهوم المسألة الشرقية مفهوما دينيا يتمثل فى النزاع المستمر بين النصرانية والاسلام أى مسألة حروب صليبية متقطعة بين الدول القائمة بأمر الاسلام وبين دول المسيحية (٢) .

وأمام هذا الصراع الدينى الخطير بين المسيحية والاسلام ، أو بين الغرب الصليبى والشرق الاسلامى أصبح التجمع الاسلامى ـ أو ـ الجامعة الاسلامية تحت راية الخلافة العثمانية ضرورة يفرضها واجب الدفاع عن الدين ضد الغزو الصليبى الزاحف .

وكان زعماء الفكر السياسى فى مصر يرون فى الدولة العثمانية ما يراه المسلمون فيها من أنها وحدها الحافظة لسلطان الدين الكافلة لبقاء حوزتهم وليس للدين سلطان فى سواها » (٣) وأنها هى الحامية لبيضة الدين الاسلامى (٤) .

وأن زوالها ـ لا قدر الله ـ يكون مجلبة للأخطار ، أكبر الأخطار . ومشعلة لنيران يمتد لهبها بالأرض شرقها وغربها شمالها وجنوبها ، وأن هدم هذه المملكة القائمة بأمر الاسلام يكون داعية لثورة عامة بين المسلمين وحرب دموية لا تعد بعد الحروب الصليبية الا معارك صبيانية (٥) .

---

(١) عباس محمود العقاد : **الاسلام فى القرن العشرين . حاضره ومستقبله** ، ص ٥٢ .

(٢) مصطفى كامل : **المسألة الشرقية** ، ص ٥ ، ط. أولى ، سنة ١٨٩٨ .

(٣) محمد رشيد رضا : **تاريخ الامام** ، ج ١ ، ص ٩٠٩ .

(٤) محمد فريد : **تاريخ الدولة العلية العثمانية** ـ مقدمة الطبعة الثالثة سنة ١٩١٢ .

(٥) مصطفى كامل : **المرجع السابق** ، ص ١٣ .

وهذه المنزلة السامية للدولة العثمانية وهذا الواجب المقدس المنوط ببقائها يقتضى من المسلمين ضرورة المحافظة على سلامة الدولة العثمانية وقوتهـا والالتفاف حـول رايتها وتعزيزها بالأموال والأرواح • لأن فى حفظها حفظ كرامة المسلمين وشرفهم ، وفى بقـــاء مجدها رفعتهم ورفعة العقيدة الاسلامية (١) •

بهذه العاطفة الدينية اتجه الشعراء المحافظون فى مصر الى الدولة العثمانية دولة الخلافة الاسلامية يؤيدونها ـ وقد رأوا فيها حصن الاسلام ـ ويلتفون حول رايتها ، ويمتدحون سلطانها ، وحامى حماها أمير المؤمنين وخليفة النبى صلى الله عليه وسلم ـ وناصر الاسلام وحامى بيضة الدين ـ السلطان عبد الحميد •

وكان هذا الاتجاه نحو الخليفة العثمانى ونحو الدولة العثمانية مظهرا للعاطفة الدينية التى أشعلها السلطان عبد الحميد وزعماء المسلمين بتأثير الظروف السياسية التى كان يجتازها العالم الاسلامى فى صراعه مع الغرب المسيحى • وقد ظهر أثر هذه العاطفة الدينية فى نظرة الشعراء المحافظين الى الخليفة العثمانى من حيث أنه رجل الاســلام الأوحد ، وحامى حماه المهدد ، الذى جاهد الأعداء وذادهم عن حوض الدين وأعاد الى الاسلام أمنه ومجده ، ولولاه لتضعضع الاسلام وضاع ملك المسلمين •

يقول « شوقى » مادحا خليفة المسلمين السلطان عبد الحميد (٢) :

يا واحــد الاســـلام غــير مدافع	أنا فى زمانك واحــد الأشعار
ان الهلال وأنت وحــدك كهفه	بين المعـــاقل منك والأســـوار
لم يبـق غيرك من يقول أصونه	صنه بحـول الواحـــد القهار

ويقول « محرم » عن السلطان عبد الحميد مشيدا بجهوده فى حماية الاســـلام : (٣)

حمى بيضة الاسلام عن يد لامس	فاصبح من كيد العدا وهو سالم
وصان ذمار الدين والدين حوله	أيا من من أعــدائه وأشائم
هو الذائد الأعداء عن حوض مجده	بصــارم عزم لا يحاكيه صــارم

(١) مصطفى كامل : المرجع السابق ، ص ٢٣ •
(٢) الشوقيات ، جـ ٢ ، ص ٤٣ •
(٣) ديوان محرم ، جـ ١ ، ص ٢٠ •

ويقول « الكاشف » مخاطبا السلطان عبد الحميد : (١) .

يا حامي الاسلام وابن حماته　　　في دولة لا تنتهي خصماؤها

ويقول مصورا عبد الحميد بأنه كان كطوق النجاة للمسلمين من خطر محقق : (٢) .

ولقد اتي والسيف في عنق الحمى　　　وبنوه غرقى فى عباب دمائه
فأقال عثرته وجمع شمله　　　وشفاه من آلامه وشقائه
فنجا به الملك الكبير من الأذى　　　وتهلل الاسلام بعد بكائه

ويقول « نسيم » من قصيدة له في تهنئة السلطان عبد الحميد بعيد الفطر : (٣)

خليفة الله يا ابن الغر من نجب　　　لله درك يوم الروع من عضد
جاهدت في الملك تحميه وتحفظه　　　جهاد طه مع الأنصار في أحد
وقد أعدت الى الاسلام نضرته　　　حتى زهى بك واستذرى الى سند

ويقول من قصيدة أخرى متوجها بالخطاب الى جلالة السلطان عبد الحميد : (٤)

وقد أعدت الى الاسلام نضرته　　　حتى ارتدى روضة باليانع الخضل
وبت ترعى الرعايا في مراقدها　　　وصرت تحمى ذمار الفازع الوجل
فلا برحت لهذا الدين تكلؤه　　　حتى يعود الى أيامه الأول

---

(١) ديوان الكاشف ، جـ ٢ ، ص ٥٧ .

(٢) ديوان الكاشف ، جـ ١ ، ص ٣٨ .

(٣) ديوان نسيم ، جـ ١ ، ص ١٨ .

(٤) ديوان نسيم ، جـ ١ ، ص ١٣٨ .

ويقول شوقي من قصيدة له يمدح السلطان عبد الحميد ويشيد بفضله فى جمع شمل المسلمين : (١)

فلولاك ملك المسلمين مضيع ولولاك شمل المسلمين شتات

على هذا التقدير ــ وهو صحيح ــ كون الشعراء المحافظون فى مصر أحاسيسهم تجاه الخليفة العثمانى وأخذوا يرددون هذه الأفكار التى كانت تقع من نفوس المسلمين موقع القبول والرضا لأنها تعبر عن أملهم فى خليفتهم وفى دولته العلية .

واذا كان الخليفة العثمانى مثالا للحاكم المسلم الذى يطبق الشرع ويقيم العدل ويحكم بما أنزل الله ، ويسهر على مصالح المسلمين ، رأينا شعراءنا المحافظين يتجهون الى مدحه بتلك العناصر الاسلامية أو بخصائص الحكم الاسلامى الذى يمثله حقيقة أو حلما للمسلمين فى هذا العصر .

فيقول « حافظ ابراهيم » من قصيدة له بمناسبة الدستور العثمانى يخاطب السلطان عبد الحميد :

ارضيت ربك اذ جعلت طريقه أمنا وفزت بنعمة الرضوان
وجمعت بالدستور حولك أمة شتى المذاهب جمة الاضغان
فجعلت أمر الناس شورى بينهم وأقمت شرع الواحد الديان (٢)

ويقول « الكاشف » : (٣)

قد قمت بالحكم عدلا لا يميل بك الـ هوى ولا يتخطى رأيك الرشد
وسرت بالملك مأمون المذاهب ميـ مون المساعى على القرآن تعتمد

ويقول من قصيدة له يصف ملامح الحكم الاسلامى فى ظل الدستور الجديد : (٤)

الحكم عدل والرعية حرة والملك بينهما أعز فخور
وخليفة الرحمن مطرد الندى والبر موفور الجلال وقور
مصدوقة شوراه عال رأيه والأمن تحت لوائه والنور
يرعى ويسترعى العباد أمورها ملك له التدبير والتخيير

(١) الشوقيات ، ج ، ص ٢٣ .
(٢) ديوان حافظ ابراهيم ، ج ١ ص ٤٤ .
(٣) ديوان الكاشف ، ج ١ ، ص ٤٦ .
(٤) ديوان الكاشف ، ج ٢ ص ٢٧ .

حسب العباد من النظام وأهله ... الا يدل على الوضيع وزير
جمع الشوارد حول حوض واستوى ... في ظله مستأجر وأجير

ويقول « محرم » : (١)

انا يسوس امورنا ويقيمها ... ملك بأمر الهه قوام
لولا حزامته وشدة بأسه ... ومضاؤه لتضعضع الاسلام
ما زال يحمي حوضه مذ جاءه ... وكذاك يحمي غيله الضرغام

الى غير ذلك من الصفات الاسلامية التى تذكرنا بملامح الحكم الاسلامى ولكن السؤال الذى يطرح نفسه من منظور الشعراء لسياسة السلطان عبد الحميد هو :

هل كان السلطان عبد الحميد نموذجا للحاكم المسلم فعلا كما صوره الشعراء ؟

أم أن الشعراء قد غلبتهم عاطفتهم الدينية فعظموا الاسلام فى شخص الخليفة وتقربوا الى الله بمدحه بأجل الصفات التى ينبغى أن يكون عليها رجل الاسلام ومن تتعلق به آمال المسلمين ؟

والذى يبدو لى ــ أن أغلب هذه الصفات كان من وحى العاطفة الاسلامية التى فاضت بمعانى التقدير والاجلال لرمز الاسلام وخليفة المسلمين السلطان عبد الحميد الذى جاهد فى سبيل الاسلام والمسلمين ٠

والحق أن السلطان عبد الحميد قد أدى فى سبيل الدفاع عن الاسلام وحماية المسلمين دورا يستوجب ثناء المسلمين عليه بقدر ما أثار من أحقاد الغرب وأباطيلهم ضده ٠ فلقد كان عبد الحميد هو آخر الحصون التى دافع بها الاسلام عن وجوده وكان اسقاطه هو آخر حلقة من حلقات المقاومة للسيطرة الغربية الكاملة على العالم الاسلامى ٠

وقد كشفت وثائق الصهيونية كيف حول هرتزل ودعاة الصهيونية بعد عقد مؤتمرهم الأول فى سويسرا سنة ١٨٩٧ الالتقاء بالسلطان عبد الحميد واغراءه لفتح الطريق الى فلسطين ، وكانت أولى المحاولات هى محاولة « هرتزل » (١٩٠٠ ــ ١٩٠١) وكان رئيسا لتحرير جريدة « نيوفرى » فى « فيينا » الذى تقدم بعرض مفاده أن يتعهد الصهيونيون بدفع الدين العثمانى البالغ (٢٢ مليون ليرة انجليزية) وبناء أسطول

---

(١) ديوان محرم ، ج ١ ، ص ٢٣ ٠

كامل للدفاع عن أراضي الدولة العلية وعقد قرض بمبلغ مائة مليون فرنك تصرف في سبيل التسليح العام وذلك نظير نزول اليهود المضطهدين في أنحاء العالم بفلسطين . وقد سجل « هرتزل » في مذكراته رد السلطان عليه حيث قال : « بلغوا الدكتور هرتزل ألا يبذل بعدم اليوم شيئا من المحاولة في هذا الأمر (التوطن بفلسطين) فاني لست مستعدا لأن أتخلى عن شبر واحد من هذه البلاد ليذهب الى الغير ، فالبلاد ليست ملكي ، بل هي ملك شعبي الذي روى ترابها بدمائه وليحتفظ اليهود بملايينهم من الذهب » (١) .

وفي المحاولة الثانية تقدم ثلاثة من اليهود (مرزاحي ـ جال ـ ليون) الى السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٢ بعرض ضخم مغر يتضمن ما يلي :

١ ـ الوفاء بجميع الديون المستحقة على الدولة العثمانية .

٢ ـ بناء أسطول لحماية ثغور الامبراطورية العثمانية .

٣ ـ تقديم قرض بخمسة وعشرين مليون ليرة ذهبية دون فائدة لانعاش مالية الدولة ، وذلك مقابل :

(أ) اباحة دخول اليهود الى فلسطين للزيارة .

(ب) السماح لليهود باقامة مستعمرة ينزل فيها أبناء جلدتهم قرب القدس الشريف وقد رفض السلطان عبد الحميد هذا العرض في اصرار عجيب (٢) .

أفلا يدل ذلك على اخلاص السلطان عبد الحميد لأمانة الخلافة الاسلامية وحرصه على دولة الاسلام مهما كانت المغريات على الرغم من شدة احتياجه الى المال لاصلاح الاقتصاد التركي المتداعي ؟

واذن فقد كان السلطان عبد الحميد ـ رغم ما قيل عنه وأشيع ـ حصنا منيعا للاسلام قد أخفقت في عهده كل محاولة مسيحية ، وكل مؤامرة يهودية ضد المقدسات الاسلامية حيث نشبت الحرب الكونية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) (٣) .

---

(١) أنور الجندي : « العالم الاسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي » ص ١٦٩/١٧٠ ، وانظر : د. علي جريشة : في « أساليب الغزو الفكري للعالم الاسلامي » ص ١٦/٤٧ .

(٢) أنور الجندي : المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) أبو الحسن الندوي : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » ص ١٧٣ .

ولذلك رددت الشعوب الاسلامية اسم السلطان عبد الحميد مقرونا بحماية الاسلام ونصره والدفاع عن بيضة الدين وجمع شمل المسلمين ٠

وكان حرص السلطان عبد الحميد على جمع شمل المسلمين وتوحيد صفوفهم باعثا للشعراء على مدحه والاشادة بسياسته الحكيمة التى وصلت ما بين المسلمين وألفت بين قلوبهم ، وكان من جهود السلطان فى هذا الصدد : مشروع سكة حديد الحجاز (١) لتسهيل طريق الحج أمام المسلمين ، وربط البلاد الاسلامية بعضها ببعض ٠

وقد خلق هذا المشروع فى أنحاء العالم الاسلامى حماسة دينية كبيرة فانهالت التبرعات للمشروع من كل بلد اسلامى حتى غطت التبرعات ثلث النفقات ، وتبرع السلطان عبد الحميد نفسه بمبلغ كبير ، فنال بذلك رضا المسلمين ٠

وكانت مصر فى مقدمة البلاد الاسلامية التى تحمست للمشروع وشاركت فيه بالمال والكلمة ٠ فقد تألفت اللجان فى جميع جهات القطر لجمع التبرعات ، ونظمت القصائد لهذا الغرض وكتبت المقالات لذلك ٠

ومن الأشعار التى نظمت فى الدعوة الى التبرع قول شوقى : (٢)

يا امة المصطفى جلت حوائجكم	**فقدموا الخير عل الله يقضيها**
لا تسمعوا لمريب فى خلافتكم	**كفى الخلافة ما يأتى أعاديها**
ما هذه الحرب فى زى السلام لكم	**الا صليبية والكل صاليها**
فكثلوا ما استطعتم من ديونكمو	**عند النبى فان الله موفيها**
تلك الاعانة لأمين ولا كذب	**اعانة المصطفى جبريل جابيها**
فمن يضن على طه وفى يده	**فضول مال فللشيطان ما فيها**

ولا شك أن هذا المشروع قد قوى ثقة السلطان عبد الحميد نفسه كخليفة للمسلمين كما قوى ثقة المسلمين به كخادم للحرمين الشريفين ٠

---

(١) بدأ المشروع سنة ١٩٠٠ بمد خط حديدى من دمشق الى المدينة المنورة وتم هذا الجزء سنة ١٩٠٨ وكان السلطان عبد الحميد ينوى مده الى مكه بدلا من طرق القوافل القديمة ، وقد قدرت تكاليف المشروع بثلاثة ملايين جنيه اكتتبت فيها المسلمون فى سائر الأرض ، وكان المشروع وقتذاك حديث المسلمين ، راجع :

(أ) غروب الخلافة الاسلامية : للخربوطلى ، ص ١٩٠ ٠

(ب) الاتجاهات الوطنية ، جـ ١ ، ص ١١ ٠

(٢) محمد سيد كيلانى : « ترام القاهرة » ص ٥١ ٠

وقد ظهر ذلك فى اشادة الشعراء بهذا العمل الاسلامى فى ثنايا قصائد المـــديح .

يا بنت « روما » لا تـكونى كمـــا **كانت أثينـــا بين قيـــل وقال**
دفنت عـــدل الله فى أرضـــه **فاستوثقى من شر ذاك المـآل (١)**

يقول شوقى بمناسبة صدور « الدستور العثمانى » مشيرا الى سكة حديد الحجاز : (٢)

أسدى الينـا أمـير المؤمنين يدا **جلت ، كما جل فى الأملاك مسديها (٢)**
وليس مستعظما فضل ولا كرم **من صاحب(السكةالكبرى) ومنشيها**

ويقول « حافظ ابراهيم » فى تهنئة السلطان عبد الحميد مشيدا بأثره فى المحافظة على الاســلام ومنوها بسكة حديد الحجاز وأثرها فى التقريب بين المسلمين : (٣)

سما فوقه ، والشرق جذلان شيق **لطلعته والغـرب جذلان يرقب**
فقام بأمر الله حتى ترعرعت **به دوحة الاسلام والشرك مجدب**
وقرب بين المسجدين تقـــربا **الى الملك الأعلى فنعم المقرب**

ويقول الكاشف مشيدا بفضـــل السلطان فى تسهيل سبل الحج للمسلمين وفى تأليف قلوبهم : (٤)

وسهلت سبل الحج ان ســلوكها **لأسرع من سير الغمام أويسر**
دعا لك بيت الله ما قام منسك **بأركانه للمسلمين ومشــــعر**
وقربت ما بين البـــلاد من المدى **وناولتها ما باعهـا عنه تقصر**
والفت أشتات القلوب على الهـدى **وأصبح يخشاها الضلال المنفـر**

ويقول « عبـد الحليم المصرى » من قصـيدة له بمناسبة الدستور العثمـــانى مشـــيرا الى مشروع السكك الحـديدية الذى يسر الحج وأمن طريقه :

---

(١) الشوقيات ، جـ ١ ص ٢٨٨ .
(٢) السكة الكبرى ، هى سكة حديد الحجاز .
(٣) ديوان حافظ ، جـ ١ ، ص ١٥ .
(٤) ديوان الكاشف جـ ١ ، ص ٤٤ .

مددت ما بين (مصر) للحجيج وما   بين (الحطيم) سبيلا غير منقضب
فأصبح القفر مأنوسا بطارقه   وأصبح الوحش يستدعى فلا يجب
وأصبحت مكة تسعى الشعوب لها   لكل ساع بها ضرب من الأرب
هذا يطوف ببيت الله معتمرا   وذاك من نفحات القبر فى عجب(١)

وهكذا كان مشروع السكة الحديدية الحجازية بما بعثه فى المسلمين من حماس ديني وغبطة روحية عاملا مهما فى نجاح الدعوة الى الجامعة الاسلامية والايمان بالخلافة العثمانية التى أكدت للمسلمين ــ من خلال هذا المشروع ــ حرصها على المقدسات الاسلامية ، وتأمين الطريق اليها ، وتسيهل أداء فريضة الحج للمسلمين الذين يرون في أداء هذه الفريضة تكفيرا لذنوبهم ، وتجديدا لايمانهم .

وفى ذلك يقول السفير البريطانى فى الآستانة العلية فى تقريره عن سنة ١٩٠٧ :

« ويمكننا أن نقرر بأنه من بين حوادث السنوات العشر الأخيرة على الأقل عناصر بارزة فى الموقف السياسى العام ، أهمها خطة السلطان الماهرة التى استطاع أن يظهــر بها أمام ثلاثمائة مليــون من المسلمين فى ثوب الخليفة الذى هو الرئيس الروحى فى الدين الاسلامى ، وأن يقيم لهم البرهان على قوة شعوره الديني وغيرته الدينية ببناء سكة حديد الحجاز التى ستمهد الطريق فى القريب العاجل أمام كل مسلم للقيام بأداء فريضة الحج الى الأماكن المقدسة فى مكة والمدينة وبهذا تفتح له أبواب الحيــاة الأخرى وما تحويه من جنة ونعيم ، وقد ترتب على هذه السياسة أن أصبح حائزا على خضوع رعاياه له خضوعا أعمى بشكل لم يسبق له مثيل » (٢) .

وكان تعلق المسلمين بالخليفة ــ الى جانب أنه أثر من آثار العاطفة الدينية تجاه رمز الاسلام ــ دليلا على نجاح سياسة السلطان عبد الحميد فى اقتــاع المسلمين بمكانة الدولة العثمانية ومركز الخلافة الاســلامية وضرورتها لصد العدوان الخارجي الذى تعاظم خطره على بلاد الاسلام فى هذه الفترة .

ومن ثم رأينا زعماء السياسة المصرية يتجهون صوب تركيا ويتعلقون باهداب الدولة العثمانية ويعلنون فى غير مناسبة ارتباطهم وتبعيتهم لها . وكانوا يرون فى ذلك حكمة سياسية تقتضيها المصلحة الوطنيــة التى

---

(١) ديوان المصري جـ ١ ، ص ٤٥ .
(٢) د. على حسنى الخربوطلى : غروب الخلافة الاسلامية ، ص ١٩٠/١٩١ .

لا تتعارض مع المصلحة الاسلامية فى هدفها العـــام وهو مقاومة الغزو الأجنبى وصده والحيلولة بينه وبين تمكين وجوده فى البلاد الاسلامية التى وقعت فى قبضته كمصر وتونس ومن قبلها الجزائر ٠

وكانت الدولة العثمانية ـ رغم ما أصابها من علل الضعف والجمود ـ هى أقدر البلاد الاسلامية على قيادة التجمع الاسلامى فى مواجهة التحزب المسيحى ٠ ومن هنا وقر فى نفوس المسلمين أنها طوق النجاة من خطر العدوان الأجنبى على بلادهم ٠

فلما وقع الاحتلال البريطانى على مصر سنة ١٨٨٢ كانت تركيا هى أمل المصريين فى الافلات من قبضة الانجليز لأن تركيا ـ فضلا عن زعامتها الروحية للمسلمين ـ كانت ـ بمقتضى معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ صاحبة السيادة على مصر ٠ وبسبب هذه السيادة الرسمية ـ من ناحية ثم بسبب الزعامة الروحية من ناحية أخرى ظل الوجود الانجليزى فى مصر معلقـا ومهددا بالوجود التركى فى مصر سياسيا وروحيا الى أن زالت السيادة التركية عن مصر سنة ١٩١٤ ٠

وقد أدرك زعماء الفكر السياسى فى مصر خطر الدور الذى يمكن أن تؤديه تركيا لصالح القضية المصرية ضد الاحتلال الانجليزى فسعوا الى دار الخلافة وأحسنوا العلاقة بها واسترضوا خليفتهم ، وأعلنوا فى كل مناسبة تمسكهم بالسيادة التركية وجاهدوا فى سبيل الحفاظ على علاقة مصر بالدولة العثمانية وحاربوا كل اتجاه يدعو الى الانفصال أو الاستقلال عنها لما فى ذلك من خطر على القضية الوطنيـــة والاسلامية فى آن واحد ٠

لقد كانت التبعية المصرية لتركيا فى هذه الفترة بالذات ـ سلاحا فعالا فى مناوأة الانجليز واحباط آمالهم فى مصر ، استغله الوطنيون فى اقلاق الاحتلال وفى اقناعه من ناحية أخرى بعدم جدوى البقاء فى مصر العثمانية الاسلامية ٠

يقول أحد الكتاب فى مقال له سنة ١٩٠٨ (١) مشيرا الى هـــذه القضـــية :

« انه ليس فى المصريين الذين يقدرون الظروف السياسية قدرها من يقول بالاستقلال التام ، لأن القول به عين القول بافراغ وجود مصر السياسى فى شكل من أشكال الاستعمار البريطانى ، بل هو عليها شقاء

(١) الاستاذ : « محمد صادق عنبر » انظر : اللـــواء ، فى ١٩٠٨/١٠/١٤ ٠

وبلاء ، ونحن الآن أشد ما نكون انتصارا الى بقاء علاقتنا بدولتنا متينة مكينة ومن الحكمة أن نعتصم بهذه العلائق دفعا لغوائل الحوادث » •

واذن فقد كان من مقتضى الحكمة السياسية أن تظل مصر على ولائها السياسي وتبعيتها للسيادة التركية اضعافا للوجود الانجليزى فى مصر والى ذلك يشير مصطفى كامل بقوله : « ان مظاهرة الأمة نحو الدولة العلية هى مظاهرة قوية ضد الاحتلال الانجليزى واشتراك أفراد الأمة على اختلافهم فى الاكتتاب للجيش العثمانى هو اقتراع عام ضد الانجليز فى مصر (١) •

ويقول فى رسالة بعث بها الى مدام « جوليت آدم » :

« انك تعلمين خطتى نحو تركيا وما أراه واجبا نحوها فقد أفصحت عن ذلك فى خطبتى ، واعترف كثير من أصدقائنا اليونانيين بأن من السياسة القومية لمصر أن تكون حسنة العلائق مع تركيا ما دام الانجليز محتلين وطننا العزيز » (٢) •

ويتساءل « مصطفى كامل » ردا على جريدة (لاند بندنس بلج) :

« ماذا يكون مصير البلاد المصرية لو تنازلت تركيا عن حقوقها لانجلترا أو تعاهدت معها على ذلك بمعاهدة شبيهة بالمعاهدة الفرنسية الانجليزية ألا تصير ولاية انجليزية » ؟ (٣) •

وكان رأى الزعماء السياسيين فى مصر متفقا فى ذلك مع السياسيين الأوروبيين المخلصين لمصر فقد كتب المستر (بلنت) تصير المسألة المصرية فى مذكراته سنة ١٩٠٨ يقول :

« وقد نصحت لهم ـ أى الوطنيين المصريين ـ بالحرص على أن تكون صلات المصريين بالدولة العثمانية حسنة بوجه خاص ، وذلك لأن العلاقة التى تربط مصر بالامبراطورية العثمانية هى فى الواقع الضمان الحقيقى لسلامتها من مطامع انجلترا ، وكرر هذه النصيحة فى رسالة الى مؤتمر « جنيف » فى سبتمبر سنة ١٩٠٩ • اذ قال : « لا تسمحوا بقطع صلاتكم بالدولة العثمانية لأن مركزكم فيها يحول دون أطماع الأجانب فيكم وبالرغم من الصداقة القائمة بين « الآستانة » و « لندن » فلا يمكن أن أصدق أن الامبراطورية الاسلامية الكبرى يمكنها بأى حال أن تتركم لدولة

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : « **مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية** » ص ٨٢ •

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٣ •

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٥٣ •

مسيحيــة ، وكرر ذلك في رســالته الى مؤتمر (بروكســل) ســنة ١٩١٠ » (١) .

والحق أن سيادة تركيا على مصر وحسن العلاقة المصرية بتركيا قد حال دون اعلان انجلترا حمايتها على مصر منذ عام ١٨٨٢ حتى عام ١٩١٤ ـ اذا كانت السيادة العثمانية على مصر عقبة أمام انجلترا تمنعها من اعلان الحماية الرسمية عليها ولذلك حاولت الحكومة البريطانية أن تشترى من تركيا الجزية التى تدفعها اليها مصر لتحل انجلترا محلها فى سيادتهــا القديمة وكان رد تركيا هو الرفض (٢) .

واذن فان مصلحة مصر الوطنية كانت فى حسن العلاقة بتركيا وأن الاتجاه الى الخـلافة العثمانية كان ضرورة يحتمها الوجـود الانجليزى آنذاك .

وقد سجل الشعر المحافظ فى مصر هذه الفكرة السياسية القائلة بأن حسن العلاقة بين مصر وتركيا يحول دون تنازل الثانية عن حقهــا المعترف به دوليا ويجعل مركز الانجليز فى مصر غير شرعى .

يقول « شوقى » مخاطبا الخليفة السلطان عبد الحميد : (٣)

أبا القمـرين عرشــك فى قلوب تجاوز فى الولاء المســتطاعا
نرى فى الصيان لحق مصر فلولا العرش يعصمه لضــاعا
يود سواك أن تهــدى اليه ولن تشرى القلوب ولن تبـاعا

ويقول « الكاشف » مبينا أثر العلاقة الحسنة مع تركيــا فى نفع القضية المصرية وعدم شرعية الاحتـلال الانجليزى لمصر ، يقول مخاطبا الخديو عباسا سنة ١٩٠٣ : (٤)

ان اتصالك بالخليفة ضــامن رد المغـــير مروعا مغــلوبا
والحجة البيضاء فى يدك التى فتحت مجالا للجهاد رحيبا (٥)

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : « **محمد فريد رمز الاخلاص والتضحية** » . ص ١٩١ وما بعدها نصائح (بلنت) ص ٢٠٣/٢٠٤ .

(٢) مصطفى كامل : (**رغائب الحزب الوطنى**) ص ٥٥٥ .

(٣) **ديوان شوقى** : ج ١ ، ص ٤٧٧ ـ توثيق د. أحمد الحوفى .

(٤) **ديوان الكاشف** ، ج ١ ، ص ٣٢ .

(٥) يقصد بالحجة البيضاء عدم شرعية الاحتلال لما فى ذلك من نقض لمعـاهدة لندن سنة ١٩٤٠ التى اعترفت فيها انجلترا مع سائر الدول باستقلال مصر وبقائها تحت السيادة العثمانية : راجع : **الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر** ، ج ١ ص ١٧ .

ويقول من قصيدة له فى حرب طرابلس سنة ١٩١١ يحض المصريين على التمسك بعرى العثمانية ويطلب اليهم أن يضعوا قضيتهم مع المستعمرين بين يدى أمامهم فهو كفيل بانقاذهم :

ان الذى جعل الخلافة فيكم — جعل المودة والمحبة فينا
ان ائتلاف قلوبكم وقلوبنا — ليمد أيديكم الى أيدينا
يا آل مصر وفى الحوادث عبرة — فتصفحوها اليوم معتبرينا
فدعوا القضية للخليفة علكم — بعد الوداد اليهم ناجونا (١)

ومن منطلق الاحساس بأهمية الوجود العثمانى فى القضية المصرية علق المصريون على الدولة العثمانية آمالا كبارا فى مؤازرتهم ضد الاحتلال ٠

وقد عبر الشعر المحافظ عن هذه الآمال التى جاشت فى صدور الأمة وارتبطت بمكانة الخليفة فى نفوسها فجعلت منه حاميها وحارسها ضد أعدائها المتربصين بها ؛ وهى لذلك ترجو عونه وتأييده ، وتستنجد به وتشكو اليه كلما أصابها بأس أو مسها سوء ٠ بل انها لترى ذلك واجبا على خليفة المسلمين الذى نيط بعنقه شئونهم وحياطة دولهم (٢) ٠

يقول شوقى معبرا عن آمال الأمة ومتوجها بالخطاب الى الخليفة العثمانى : (٣)

عالى الباب هز بابك منا — فسعينا وفى النفوس مرام
وتجليت فاستلمنا كما للنا — س بالركن ذى الجلال استلام
نستميح الامام نصرا لمصر — مثلما ينصر الحسام الحسام
فلمصر ـ وأنت بالحب أدرى ـ — بك يا حامى الحمى استعصام
والى السيد الخليفة نشكو — جور دهر أحراره ظلام
وعدوها لنا وعودا كبارا — هل رأيت القرى علاها الجهام(٤)
فارفع الصوت انها هى مصر — وارفع الصوت انها الأهرام
وارع مصر ولم تزل خير راع — فلها بالذى ارتك زمام

---

(١) ديوان الكاشف ، ج ٢ ، ص ٢٢ ٠

(٢) راجع : د٠ محمد محمد حسين ـ فى ـ « الاتجاهات الوطنية » ، ج ١ ، ص ٦٠ ٠

(٣) الشوقيات ، ج ١ ، ص ٢٤٢ ٠

(٤) يشبه وعود الانجليز بالسحاب الذى لا يمطر ٠

فها هنا ترى « شوقى » يتوجه بالخطاب الى الخليفة العثمانى الذى تعلقت به آمال الأمة فى الخلاص من جور الاحتلال وظلم الاستعمار ، فيستميحه نصرا لمصر ، ويستنجده لحمايتها ورعايتها فهو حامى الحمى ، وهو خير راع يرعى شئون المسلمين .

ويقول « الغاياتى » من قصيدة له بمناسبة الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ ، مناشدا أمير المؤمنين عون مصر على التخلص من غمة الاحتلال التى جثمت على صدرها فكادت تحبس أنفاسها :

امير المؤمنين مضت قلوب ... اليك يحثها الحب المكين
تؤمل أن تراك لها معينا ... وانت لها على الدهر المعين
رأتك أمامها الأمل المرجى ... وفيك لدائها البرء المبين
فيا أمل القلوب اليك مصر ... تشير وبين جنبيها حنين
تحن اليك يا رب المعالى ... وقد حلت بساحتها الشجون
رمتها الحادثات بشر قوم ... لهم فى كل مظلمة شئون
قضت فى عصرهم مصر ، ولولا ... رجاء فيك ما قرت عيون
فأعزز يا حمى الاسلام شعبا ... بعزك لا يذل ولا يهون (١)

أرأيت الى أى مدى كانت الأمة تتعلق آمالها الوطنية فى التخلص من الوجود الانجليزى على الدولة العثمانية وعلى خليفتها ــ السلطان عبد الحميد ــ أمير المؤمنين ــ وحامى حمى الاسلام ؟ والى أى مدى أدى الشعر الاسلامى المحافظ رسالته الوطنية فى التعبير عن آمال الأمة تجاه دولة الخلافة استعصاما بالوحدة الاسلامية ، واستمساكا بحبل الله المتين الذى يشد المسلمين بعضهم الى بعض ؟

وأيا ما كان الأمر . فقد كانت الأمة المصرية على وعى كامل بحقيقة الدور الذى يمكن أن تؤديه دولة الخلافة لصالح القضية الوطنية ولصالح الاسلام معا . فتوددت الى الدولة العلية والى سلطانها وحرصت على اعلان هذا الشعور الطيب تجاه الدولة العثمانية فى كل مناسبة .

ومن ذلك انه لما اقترب عيد الجلوس السلطانى وكان فى ٣١ أغسطس ١٨٩٧ احتفلت به الأمة المصرية احتفالا لم يسبق له مثيل . فمنذ صباح ٢٨ من أغسطس أخذ السكان يجدون فى اقامة الزينات ، لا فرق بين غنى وفقير ، هذا أمام بيته ، وذاك أمام حانوته حتى لا يكاد الانسان

---

(١) ديوان الغاياتى « وطنيتى » ، ص ٥٥ .

يرى فى جميع الشوارع والحارات الا أعلاما تخفق فوق جدران المساكن والمحلات التجارية • وأقيمت حفلات ساهرة فى حديقة الأزبكية •• وأقيم احتفال كبير فى الجامع الأزهر (١) حضره بضعة آلاف من الطلبة والعلماء وألقيت فيه الخطب وأنشدت فيه القصائد •

وقد وصفت صحيفة « المؤيد » هذا الاحتفال فقالت : « احتفلت الأمة المصرية أمس بشعائر ذكرى عيد الجلوس الشاهانى المجيد احتفالا باهرا • ولم يسبق لمصر أن تحتفل بمثل هذا الاحتفال قبل العام فهو اذن بمثابة صوت عام من الأمة المصرية يعلن دوام ارتباطها وتعلق آمالها الخالصة بجلال المتبوع الأعظم من جهة واعلان بحجة دافعة على الاحتلال أنه أجنبى غاصب ، تجفوه القلوب ، وتتخطاه الأميال من جهة أخرى » (٢) •

وقالت صحيفة الوطن القبطية تحت عنوان (معنى احتفال المصريين) :

« لم يسبق فى سنة من السنين ان المصريين احتفلوا بعيد جلوس الحضرة السلطانى بمثل احتفال هذه السنة • تنبه المصريون الى ارتباطهم بالحضرة السلطانية واحتفلوا فى جميع أنحاء القطر المصرى ، وتنافسوا فى اظهار الولاء لجنابه الرفيع باقامة الزين الباهرة من تلقاء ذواتهم • وهذا الاحتفال هو بمنزلة تظاهر ضد الاحتلال وبمنزلة أحكام العروة الرابطة مصر بالدولة العلية • فالانجليز كانوا يتمنون فك هذه العروة حتى ينظر المصريون اليهم وحدهم ، ويعولوا فى الأمور عليهم ولكنهم — أى الانجليز — نهجوا فى سياسة أتت غير مرامهم ، فان المصريين رأوا أن غاية سياساتهم ابتلاع مصر » (٣) •

بمثل هذا الاحتفال عبرت مصر عن عاطفتها تجاه السلطان العثمانى ودولته العلية لانها رأت فى الدولة العثمانية حصن الاسلام كما رأت فيها عونا للقضية المصرية ضد مطامع الانجليز •

على أنه لا تناقض بين العاطفة الوطنية المتجهة الى حماية الوطن تحت راية السيادة التركية على مصر •

فالدين والوطنية توأم على عكس ما قد يظن بعض الناس — كما يقول مصطفى كامل — اذ يقول :

---

(١) نصر الدين عبد الحميد « مصر وحركة الجامعة الاسلامية » من عام ١٨٨٢ — ١٩١٤ ، ص ٩٩ •

(٢) المرجع السابق والصفحة نفسها • عن المؤيد فى ١٨٩٧/٩/١ •

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة • عن جريدة الوطن ، عدد ١٨٩٧/٩/٣ •

« قد يظن بعض الناس ان الدين ينافي الوطنية ، أو أن الدعوة الى الدين ليست من الوطنية في شيء ، ولكنني أرى أن الدين والوطنية توأم متلازم وأن الرجل الذي يتمكن الدين من فؤاده يحب وطنه حبا صادقا ، ويفديه بروحه وما تملك يداه ، ولست فيما أقول معتمدا على أقوال السالفين الذين ربما اتهمهم أبناء العصر الحديث بالتعصب والجهالة ولكنني أستشهد على صحة هذا المبدأ بكلمة « بسمارك » أكبر ساسة هذا العصر وهو رجل خدم بلاده ورفع شأنها . فقد قال هذا الرجل العظيم بأعلى صوته « لو نزعتم العقيدة من فؤادي لنزعتم معها محبة الأوطان » (١) .

وينقل الامام محمد عبده عن « بسمارك » أيضا قوله :

« لو نفضت عقيدتي بديني لم أخدم بعد ذلك سلطاني ساعة من زمان . اذا لم أضع ثقتي في الله لم أضعها في سيد من أهل الأرض قاطبة . لكن انظروا الى تجدوني ملكت من موارد الرزق ما يكفيني وارتقيت من المناصب ما لا مطمع بعده . فلماذا أشتغل ؟ ولم أجهد نفسي في العمل؟ ولم أعرضها للهموم والآلام ؟ لا يبعثني على شيء من هذا الا شعوري بأنني في جميع ذلك أعمل عملي لوجه الله . اسلبوني هذا الايمان تسلبوني محبتي لوطني .. اعلموا أنني لو لم أكن مسيحيا مخلصا لم يكن لكم وزير كبير مثلي يدبر أمر الاتحاد الألماني » (٢) .

كذلك كان مصطفى كامل يرى أن التمسك بالدين والوطنية كان دائما سبب ارتقاء الأمم كما أن عدم التمسك بهما كان سبب انحطاطها ، ولهذا فلابد من التمسك الشديد بهما (٣) .

وهذا المزج في السياسة المصرية بين الدين والوطنية يرجع الى الاعتقاد بأن السياسة الأوروبية هي سياسة مسيحية قائمة على التعصب الديني ضد المسلمين وأن المحور الذي تدور عليه هذه السياسة تجاه الدولة العلية هو الاعتداء على المسلمين بغير حق (٤) وأن الأوروبيين انما يحاربون المسلمين حربا صليبية في شكل سياسي (٥) . وأن من يتصفح

---

(١) عبد الرحمن الرافعي : **مصطفى كامل** ، ص ١٢٨ .

(٢) تاريخ الاستاذ الامام محمد عبده ، ج ٢ ، ص ٣٨١ . من مقال له عن (بسمارك والدين) نشر في **المنار** في ١٨٩٩/١/٢١ .

(٣) انظر : « **اللواء** » عدد ١٩٠٠/١/١٦ .

(٤) مصطفى كامل : « **اللواء** » عدد ١٩٠٠/٣/٩ .

(٥) مكرم عبد الفتاح : « **العلاقات المصرية العثمانية من خلال المصادر التركية** » رسالة دكتوراه ــ غير منشورة بكلية الآداب جامعة عين شمس ، ص ١٥٢ .

تاريخ الدولة العثمانية ويمعن النظر فى أحوالها من أول يوم وضع فيه أساسها الى هذا اليوم يجد ان أوروبا لم تحاربها الا بسبب الدين ولم تتداخل فى شئونها الداخلية الا بدعوى نصرة الدين ولم تعادها الا لأنها دولة اسلامية (١) .

واذن فليس بدعا أن تمتزج السياسة بالدين فى الفكر السياسى المصرى ، طالما أن سياسة أوروبا قد تلونت بلون الدين بل وامتزجت به الى حد التعصب المقوت .

ومن ثم لم ير السياسيون فى مصر حرجا من مطالبة السلطان العثمانى بنصرة القضية المصرية . لأنهم لم يروا فى ذلك ما يعارض ولاءهم الروحى للدولة العثمانية وللخليفة العثمانى .

وقد عبر الشعر المحافظ فى مصر عن هذا الاتجاه السياسى أصدق تعبير فيقول شوقى : (٢)

يا آل عثمان أبناء العمومة هل	**تشكون جرحا ولا نشكو له ألما ؟**
نحنو عليكم ولا ننسى لنا وطنا	**ولا سريرا ولا تاجا ولا علما**
هذى كرائم أشياء الشعوب فان	**ماتت فكل وجود يشبه العدما**

ويدعو الكاشف ربه أن تتخلص بلاده من كل أجنبى دخيل ولكنه لا يدعو بالانفصال عن دولة الخلافة ، لانه لا يرى منافاة بين الاخلاص للدولة العثمانية ، والاخلاص للقضية المصرية أو لا يرى تناقضا بين التبعية للخليفة العثمانى وطاعة الخديو عباس الثانى فيقول : (٣)

ويا بلادى مالى كلما نظرت	**عيناى ما فيك من جند وأعوان**
وسطوة للدخيل المعتدى اضطربت	**روحى وقرح سكب الدمع أجفانى**
وأحر شوقى الى يوم أراك به	**فى مأمن منه بل وأطول تحنانى**
فلا نطيع سوى عبد الحميد ولا	**نرضى أميرا سوى عباسك الثانى**

ولا ريب أن امتزاج الدين بالوطنية فى مفهوم العصر وفى فكر الزعماء الوطنيين فى مصر قد كان عاملا من عوامل التعلق بالدولة العثمانية ، والايمان بفكرة الجامعة الاسلامية ، سبيلا الى الخلاص الاسلامى والوطنى من خطر الزحف الاستعمارى على بلاد الاسلام .

---

(١) مصطفى كامل : « اللواء » عدد ١٩٠٠/٢/١٢ .
(٢) الشوقيات ، ج ١ ، ص ٢١٥ .
(٣) ديوان الكاشف ، ج ١ ، ص ٥٤ .

وفى سبيل هذا الخلاص الاسلامى كان التجمع الاسلامى تحت راية الخلافة العثمانية ضرورة حتمية يفرضها العدوان الخارجى على بلاد الاسلام .

وكان تأييد الدولة العثمانية ، والوقوف الى جانبها فى حروبها المقدسة مظهرا من مظاهر التجمع الاسلامى فى وجه الخطر الصليبى ، واحياء لمبدأ الجهاد الاسلامى ضد العدوان على ديار الاسلام .

فحينما انتصرت تركيا على اليونان سنة ١٨٩٧ هلل الشعراء لهذا النصر ، وزادت ثقتهم فى تركيا حامية الاسلام ، وناصرة الدين ، واعتبروا هذا النصر نصرا للدين وعزا للاسلام .

وفى هذا يقول « شوقى » مهنئا خليفة المسلمين ومعبرا عن فرحة الدول الاسلامية التى ترى فى انتصار الترك انتصارا لدين الله (١) :

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب	وينصر دين الله أيان تضرب
وزيد حمى الاسلام عزا ومنعة	ورد جماح العصر ، فالعصر هيب
رفعنا الى النجم الرؤوس بنصركم	وكنا بحكم الحادثات نصوب
ومن كان منسوبا الى دولة القنا	فليس الى شىء سوى العز ينسب

الى أن يقول مخاطبا السلطان عبد الحميد :

فلا زلت كهف الدين والهادى الذى	الى الله بالزلفى له نتقرب

ولكى ندرك حقيقة الشعور الاسلامى فى مصر تجاه الأتراك فى هذه الحرب . يكفى أن نعلم أن المصريين كانوا يسهرون الليالى الطوال منتظرين بتشوق وشغف ورود أنباء القتال . وأن عدد اللجان التى تشكلت لجمع التبرعات لاعانة الجيش العثمانى بلغت ٤٥ لجنة فى العاصمة و٣٠٠ فى سائر جهات القطر ، وتشكلت لجنة للسيدات المصريات برئاسة حرم « رياض باشا » (٢) .

ولقد تجلى هذا الشعور الاسلامى بواجب التضامن بين المسلمين لدفع العدوان وحماية العقيدة والمقدسات عندما تعرضت طرابلس الغرب للعدوان الايطالى سنة ١٩١١ .

---

(١) ديوان شوقى جـ ١ ص ٢٧٥ . توثيق وتبويت الدكتور/ احمد الحوفى .

(٢) محمد سيد كيلانى : ترام القاهرة . ص ٤٥ . وانظر « مصر وحركة الجامعة الاسلامية » ص ٩٨ .

فقد هب الشعب المصرى بكامله للأخذ بناصر الدولة للوقوف أمام الخطر الخارجى ، وردع عنفوانه • فتألفت اللجان فى القاهرة والاسكندرية لجمع التبرعات وارسال المتطوعين وفتحت الجرائد صفحاتها تدعو للاكتتاب والتطوع لنصرة اخوانهم فى طرابلس والدفاع عن آخر معقل للاسلام فى أفريقيا • فتألفت اللجنة العليا لاعانة الدولة العلية فى الحرب الايطالية تحت رئاسة الأمير « عمر طوسون » فى أكتوبر سنة ١٩١١ (١) كما أنشأ الشيخ يوسف جمعيـة الهـلال الأحمر فى ٧ نوفمبر سنة ١٩١١ لهـذا الغرض (٢) وقد أدت الصحف المصرية فى هذه الحرب دورا بارزا عبأت به شعور الأمة وأثارت حماسها لما يدور فى ميدان الحرب حتى غطت أخبار الحرب على الكثير من الموضوعات التى اعتادت الصحف تقديمها لقرائها • وتميزت مقالاتها عن الحرب بالاثارة والجرأة • فكانت (العلم) تنشر تحت عناوين : « النجدة •• النجدة » و « الخطر •• الخطر » و «ايه أيها المسلمون ألا نفوس أبيات لها همم » ـ مقالات تهيب فيها بأفراد الشعب أن يقفوا مع اخوانهم فى نضالهم ، وتستندى أكفهم وتحثهم على الجهاد والتطوع لنصرة الدين والدولة (٣) وأمام تلك الروح التى أبدتها الأمة المصرية نحـو أشقائها العرب والمسلمين فى طرابلس أوعز الانجليز الى الحكومة القائمة بايقاف حملة الصحف على ايطاليا فأصر « محمـد سعيد » رئيس الوزراء ووزير الداخلية بلاغا الى الصحف فى ٥ نوفمبر سنة ١٩١١ طالبها فيها بالاعتدال فى لهجة التعليق على أخبار الحرب (٤) •

كما أعلن الانجليز ـ بموافقة الحكومة المصرية ـ حياد مصر واغلاق الحدود فى وجه المتطوعين والبعثات الطبية ، وقوافل الذخيرة ،ولكن على الرغم من هذه القيود التى فرضها الانجليز على الشعب المصرى ليتخلى عن مؤازرة أشقائه فى جهادهم واصلوا تأييدهم لهم (٥) •

وقد واكب الشعر المحافظ هذا الشعور الاسلامى فى مصر فاستنهض الهمم واستحث العزائم ، واستثار الوجدان الاسلامى لمؤازرة المقاتلين فى طرابلس واستنفر الحمية الدينية باظهار فظائع الطليان ووحشيتهم فى

---

(١) سالم عبد النبى قنيبر : « الاتجاهات السياسية والفكرية والاجتماعية فى الأدب العربى المعاصر » ص ٣٠٧ •

(٢) د• محمد حسين : الاتجاهات الوطنية •• جـ ١ ص ٣٥ •

(٣) راجع : مجلة العلم من ١٠/٨ ـ الى ـ ١٩١١/١٢/١٨ •

(٤) مجلة العلم ١٩١١/١١/٥ عدد : ٤٥٨ •

(٥) سالم قنيبر : المرجع السابق ص ٣١٢ •

هذه الحرب ، واستنكر مواقف رجال الدين المسيحى الذين ينتسبون الى المسيحية ، والمسيحية منهم براء .

يقول شوقى مستحثا جموع المسلمين الذين ينضوون تحت لواء الدولة العثمانية على التعاون فيما بينهم على البر باخوانهم المقاتلين فى طرابلس : (١)

يا قوم عثمان والدنيا مداولة تعاونوا بينكم يا قوم عثمانا
كونوا الجدار الذى يقوى الجدار به فالله قد جعل الاسلام بنيانا
البر من شعب الايمان أفضلها لا يقبل الله دون البر ايمانا
هل ترحمون لعل الله يرحمكم بالبيد أهلا وبالصحراء جيرانا
فى ذمة الله أو فى ذمة نفر على طرابلس يقضون شجعانا

ويقول « حافظ » مصورا فظائع الطليان فى هذه الحرب : (٢)

كبلوهم ، قتلوهم ، مثلوا بذوات الخدر ، طاحوا باليتامى
ذبحوا الأشياخ والزمنى ولم يرحموا طفلا ، ولم يبقوا غلاما
احرقوا الدور ، استحلوا كل ما حرمت لاهاى فى العهد احتراما
بارك المطرون فى أعمالهم فسلوه بارك القوم علاما
أبهذا جاءهم انجيلهم آمرا يلقى على الأرض سلاما

ويأسى « عبد المطلب » لأهل طرابلس ويهيب بالمسلمين أن ينجدوا اخوانهم وأن يردوا عن حمى الاسلام أعداء الاسلام فيقول :

خليلى مالى ان تذكرت برقة بجنبى نيران الأسى تتلهب
نعم راعنى من نحو برقة صارخ يهيب بانصار الهلال الاركبوا
دعا صارخ الاسلام يا لبنى الهدى أغار العدا أين الحسام المشطب
كأنى به يدعو الخلافة مسمعا كأنى به فى المسلمين يثوب
أرادت حمى الاسلام روما فاقبلت زعانفها فى بغيها تتشعلب

---

(١) ديوان شوقى : ج ٢ ، ص ٨١ ، توثيق د. أحمد الحوفى .
(٢) ديوان حافظ : ج ٢ ، ص ٦٦ .

ويستنكر « عبد المطلب » موقف البابا وقد راح يبارك الجنود المعتدين ويعدهم الجنة ويتساءل : أين هذا من تعاليم المسيح ؟

اذا وقف البابا يبارك جندكم فما كل بابا للمسيح مقرب
سلوه أفى الانجيل للحرب آية اذا كان فى انجيله ليس بكذب

ويسخر من هذا الوعد الكاذب الذى يرمى بالمقاتلين فى التهلكة حيث تحصدهم سيوف المجاهدين :

لكم جنة البابا مآب وانما مفاتحها من أرض برقة تطلب
وان لدى أسيافنا ورماحنا بأبوابها علما هلموا فجربوا

ثم يخوف الأعداء من قوة الاسلام وحمية رجاله فيقول :

حذار فللاسلام فى كل بقعة سراة اذا ما أجدب الناس أخصبوا
حذار فللاسلام فى كل أمة حماة اذا ما شزر الدهر قطبوا
حذار فللاسلام فى كل بلدة دهاة اذا ما أظلم الرأى أثقبوا

ثم يتوجه بالحديث الى أبناء مصر فيحثهم باسم الدين على البذل والعطاء لانقاذ الدين ونجدة المسلمين فيقول :

بنى مصر هذا الدين يدعو فاقبلوا على الله فى تأييده وتقربوا
بنى مصر قد رام الخلافة معشر تنادوا على غدر بها وتألبوا
بنى مصر هذا موقف العزم فانهضوا سراعا الى احرازه وتألبوا
اذا ما تنادى المسلمون فانما لنجدتنا كل الممالك ترقب
وكم فى سبيل الله من أريحية لمصر بها رأب الخلافة يشعب
تفيض على الاسلام بالجود أنعما غزارا اذا ما أخلف الأرض صيب(١)

ويقول « المصرى » يستنفر همم المسلمين ويحرضهم على القتال الى جانب اخوانهم فى طرابلس دفاعا عن دينهم ضد عدوهم المتربص بهم :

يا أيها المسلمون استيقظوا وكفى نوما فان عيون الغرب لم تنم
هذى ممالككم تغشى وأرضكم يسومها القوم سوم النوق للسلم
أصبحتم بددا فى كل ناحية كأنما صرتم فى دولة الخدم
الله فى الدين ان الدين قد صار على صحيفة الموت متلوا بكل فم

---

(١) ديوان عبد المطلب ، ص ٢٨٥ .

اذا طرابلس ضاعت فالسلام على　　من فى (الكنانة) والبيتين والحرم
فاستصرخوا الله ينصركم على نفر　　طغى عليكم وأربى غير محتشم

ثم يتجه بالحديث الى مسلمى مصر فيدعوهم الى البذل فى سبيل الله حتى تنفرج هذه الأزمة التى تعتصر الدين وتهدد دنيا المسلمين فيقول :

يا مسلمى مصر هل برهنتم كرما　　فى أزمة الدين والدنيا على الكرم
فاخرجوا المال من أقصى خزائنكم　　المال لله ليس المال للنسم (١)

ويقول من قصيدة أخرى بعنوان (الصوت الثانى) (٢) وهى من قصائده فى الحرب الطرابلسية يستحث فيها بنى عثمان ويستحلفهم بقوادهم العظام وبالأماكن المقدسة ، وبأنبياء الله عليهم الصلاة والسلام أن يجيروا ذلك الشعب الحزين الذى يستجير بهم من الموت :

بنى عثمان بالجيش المغازى　　(بشوكت) بل (بأنور) بل (نيازى)
بمكة بالمدينة بالحجاز　　ببيت القدس بالبيت الحرام
(بموسى) بل (بعيسى) بل (بأحمد)　　بكل ديانة وبكل معبد
بكل كريمة تطوى وتحمد　　أجيروا المستجير من الحمام
اجيروا ذلك الشعب الحزينا　　لأنتم جاهه دنيا ودينا
فداووا ذلك الداء الدفينا　　وحلوا عقدة الخطب الجسام

« ولأحمد محرم » فى هذه الحرب عدد من القصائد التى تفيض بالعاطفة الدينية وتدعو المسلمين الى مؤازرة اخوانهم ، وتحرضهم على القتال فى سبيل الله .

ومن هذه القصائد قصيدة بعنوان « الحرب الوحشية فى طرابلس » وفيها يستنفر جموع المسلمين للقاء عدوهم ، ويذكرهم ببلاء المسلمين فى صدر الاسلام ويستدعى صور البطولة التى زخرت بها معارك المسلمين فى الماضى يريد أن يوقد الحمية الدينية ويبعث النخوة لتفيض النفوس بالبذل والتضحية فى سبيل الله والوطن .

فيقول :

أين الحماة وقد ضاعت محارمنا ؟　　أين الكفاة ؟ وأين الذادة الغير ؟

---

(١) ديوان المصرى : ج ٢ ، ص ٨٢ .
(٢) ديوان المصرى : ج ٢ ، ص ٨٨ .

أين النفوس ترامى غير هائبة ؟ أين العزائم تمضي ما بها خور ؟
أين الأكف يفيض المال متدفقا منها كما اندفقت وطفاء تنهمر ؟
من لي بهم معشرا صيدا غطارفة ما ضيعوا ذمة يوما ولا غدروا
ان أدعهم لجلاء الغمرة ابتدروا وان أصح فيهم مستنفرا نفروا(١)

ويشد « الكاشف » على يد الخليفة العثماني مؤكدا وقوف المسلمين الى جانب اخواهم فى (الحرب العثمانية الايطالية) (٢) فيقول :

المؤمنون اليك مستبقونا لذمارهم وديارهم فادونا
فاحشد كتائبك التى أعددتها للحق أبلج والرجاء متينا
واترك لقوتك الرهيبة حكمها تجد العداة اليك يحتكمونا

ثم يتوجه بالخطاب الى ايطاليا المسيحية التى استباحت العدوان على الآمنين من المسلمين الذين لم يرتكبوا فى حقهم اثما ولا عدوانا فيقول لهم متسائلا :

أبهذا العدوان الوحشى أوصاكم المسيح عليه السلام ؟
يا آل عيسى ما لعيسى لم يقم مستنكرا ما أنتم جانونا ؟
اوصاكم بالمعتدكن فما لكم بالآمن المأمون فتاكينا
ماذا جناه المسلمون عليكم وهم على الأمصار غلابونا

ثم يهاجم السياسة الانجليزية التى أكرهت مصر على الحياد فيقول :

ما للحيود وما لمصر ؟ وما بها الا شجونا تستثير شجونا
ما كان للمتطوع المختار أن يشكوا قيودا أو يخاف ظنونا

ثم يتجه الى اخوانه فى طرابلس فيطمئنهم لوقوف اخوانهم فى مصر الى جانبهم على طريق الجهاد حتى النصر فيقول :

★★★

يا أخت مصر وفى حشاها جمرة لبيك حتى يكتفى الداعونا
بعثت اليك بزادها وتود لو بعثت اليك الجند مبتدرينا (٣)

---

(١) د. بدوى طبانة : « أحمد محرم » فى « خمسة من شعراء الوطنية » ص ٥٧ .
(٢) ديوان الكاشف ، ج ٢ ، ص ١٧ .
(٣) ديوان الكاشف ، ج ٢ ، ص ١٧ .

وينتقد « اسماعيل صبرى » سياسة الغدر والعدوان فى « الحرب بين الايطاليين والأتراك » فى طرابلس (١) فيقول :

بعض هذا الجفاء والعدوان راقبى الله أمة الطليان
قد ملأت الفضاء غدرا وجهلا وتسنمت غارب الطغيان
وبعثت السفين ترمى طرابلس بحرب مشبوبة النيران
تغرق البحر والمواثيق والعهد جهارا ، وذمة الجيران

ويخوف الايطاليين عاقبة الشر والعدوان فيقول من قصيدة له يذكر فيها الايطاليين المعتدين « بأثينا » التى استباحت الشرور والفجور فكان عاقبتها سوء المآل :

يا بنت « روما » لا تكونى كما كانت أثينا بين قيل وقال
دفنت عدل الله فى أرضه فاستوثقى من شر ذاك المآل (٢)

واذا كان الشعر الاسلامى فى مصر قد أدى دوره فى الحرب الطرابلسية فألهب حماس الجماهير الاسلامية وأثار حميتها الدينية ، ووجهها الى مؤازرة المجاهدين فى طرابلس بالمال والعتاد والرجال متحديا فى ذلك سياسة المحتل الذى فرض الحياد على مصر .. فان هذه الحرب كانت دفعة قوية لفكرة الجامعة الاسلامية وتأكيدا لضرورة التضامن الاسلامي الذى أثار دهشة العالم الغربى وحمل ساسته على الجزع والارتباك » . فأخذوا يتساءلون فى الخطب الكبير وفى الذى عساه أن ينفجر انفجارا عاما فى مشرق العالم الاسلامى ومغربه فقال : « غبريال هانوتو » وهو وزير فرنسى من وزراء الخارجية السابقين :

« بالله لماذا وجدت ايطاليا طرابلس غير المحصنة كوكر الزنانير اللساعة ؟ أفليس لأنهـا لا تحارب تركيا وحدها بل العالم الاسلامى اجمع ؟ » .

فايطاليا جنت على نفسها وعلينا جناية لا يعلم غير الله عاقبتها ومنتهاها (٣) .

★★★

والواقع أن تضامن المسلمين كان دائما ــ وسيظل ــ يؤتى أطيب الثمرات وأوفق النتائج لصالح الاسلام والمسلمين .

---

(١) ديوان اسماعيل صبرى ، ص ١٨٣ .
(٢) ديوان اسماعيل صبرى ، ص ١٨٦ .
(٣) لوثروب ستودارد حاضر العالم الاسلامى ، ج ١ ، ص ١٤٤ .

وفي هذه الحرب الطرابلسية تضامن المسلمون • فماذا كان نتيجة هذا التضامن الاسلامي ؟ يقول الأمير « شكيب أرسلان » (١) « كانت اعانة مصر في الحرب الطرابلسية مائة وخمسين ألف جنيـــه وأنفقت الدولة العثمانية على تلك الحرب نحو مليون جنيه » • فانظر الى ما كان لذلك من النتائج ••

النتيجـــة الأولى :

وهي أهم شيء : حفظ شرف الاسلام وافهام الأوروبيين ان الاسلام لم يمت وأن المسلمين لا يسلمون بلدانهم بدون حرب وفي ذلك من الفائدة المادية والمعنوية للاسلام ما لا ينكره الا مكابر •

النتيجـــة الثـانية :

أن هذا المبلغ الضئيل بالنسبة الى نفقات الدول الحربية قد كان السبب في توطين الطرابلسيين أنفسهم على المقاومة والمجاهدة بما رأوا من نجدة اخوانهم لهم فكانت هذه المقاومة سببا لتجشم ايطـاليا المعتدية من المشاق والخسائر ما هو فوق الوصف الى أن صار كثير من ساسة الطليان يصرحون بندمهم على هذه الغارة الطرابلسية •

النتيجـة الثـالثة :

مهما يكن من عدد القتلى الذين افقدهم العرب في هذه الحرب فان مجموع قتلى الطليان الى اليوم يفوق مجموع قتلى العرب أضعافا مضاعفة • فلقد لقي الطليان في هذه الحرب من الأهوال ما لا يتسع لوصفه مقالة أو رسالة وفي واقعة واحدة هي واقعة « الغويهات » على باب بنغازي ثبت فيها مائة وخمسون مجاهدا لثلاثة آلاف جندي طلياني من الفجر الى غروب الشمس الى أن انقرضوا جميعا •• فالمسلمون قد قاتلوا في هذه المعركة جيشا يفوقهم في العـدد عشرين ضعفا وقتلوا نصفه • أي قتلوا عشرة أضعافهم • والله تعالى قد قدر لهم في حال القوة أن يغلبوا عشرة أضعافهم وفي حال الضعف أن يغلبوا ضعفيهم فقط • كما قال الله تعالى : « يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون (٦٥) الئن خفف الله عنـكم وعلم أن فيـكم ضعفا فان يكون منكم مائة صابرة

---

(١) شكيب ارسلان : « لماذا تاخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم » ص ٢١/٢٢ •

يغلبـوا مائتين وان يـكن منـكم ألف يغلبـوا ألفين باذن الله والله مع الصابرين » (٦٦) ٠

صدق الله العظيم

النتيجـة الرابعـــة :

أنه قد كانت نفقات ايطاليا فى الحرب الطرابلسية فى السنة الأولى أى من سنة ١٩١١ الى سنة ١٩١٢ نحو مائة مليون جنيه ٠٠

فهذا كله نتيجة تلك الاعانة القليلة والنفقات الضئيلة التى قام بها المسلمون فى تلك الحرب (١) ٠

ومعنى ذلك أن تعاون المسلمين وتضامنهم فى هذه الحرب قد وقف سدا منيعا فى وجه الزحف الاستعمارى على بلاد الاســلام ، وحال دون تحقيق أحلام الايطاليين فى طرابلس ، وجسد فكرة التجمع الاسلامى ـ أو ـ الجامعة الاسلامية فى مواجهة الخطر الصليبى الجديد ٠

ثم كان موقف المسلمين فى الحرب البلقانية سنة ١٩١٢(٢) صورة أخرى من صور التجمع الاســـــلامى فى مواجهة الخطـر الصليبى ضـــد الاســـــلام ٠

ففى هذه الحرب تجلت فكرة الجامعة الاسلامية ماديا ومعنويا حين وقف المسلمون الى جانب تركيا يشدون أزرها بالمال والعتاد ، ويتابعون أخبارها فى ميدان القتـال وأيديهم على قلوبهم خـوفا من الهزيمة أمـام الأعـداء ٠

لقد كان المسلمون يترقبون أنباء الحرب وقلوبهم على أحد من جمر الغضى فلما طير البرق نبأ الكارثة التركية فى البلقان أجفل العالم الاسلامى للخطب أيما اجفال ، وبلغت صرخاته عنان السماء ، فقال أحد مسلمى الهند فى نداء وجهــه الى بنى قومه « يوقد ملك اليونان نار حرب صليبية

---

(١) شكيب أرسلان : **المرجع السابق** ، ص ٢٢ ٠

(٢) نشبت الحرب البلقانية سنة ١٩١٢ حين عم الاضطراب دول البلقان فهبت مطالبة بالاستقلال الادارى عن الدولة العثمانية ثم اضطر تركيا الى اعلان الحرب على هذه الدول فى ٢٧ أكتوبر ١٩١٢ ٠ وفى هذه الحرب التى اوقدتها الدول البلقانية النصرانية خسرت تركيا جميع أملاكها الأوربية فلم يبق من جميع ما كان لها فى أوربا غير القسطنطينية معرضة لخطر الغارات عليهـــــا ومهددة شر تهـديد ، راجع : لوثروب ســـــــودارد : **المرجع السابق** ، ص ١٤٣ ٠

جديدة ، ويستنصر وزراء بريطانيا تعصب النصرانية على الاسلام ، ويأتمر وزراء الروسيا فى بطرسبرج لرفع الصليب وشكه فى قبة مسجد « أيا صوفيا » للاستيلاء على مسجد عمر بن الخطاب المسجد الأقصى فى بيت المقدس ٠٠ أيها المؤمنون الاخوة : اتحدوا وكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا فان الواجب المقدس ليدعو كل مؤمن بالله ورسوله أن ينضم الى أخيه المؤمن تحت لواء الخليفة أمير المؤمنين ويجاهد فى سبيل الذود عن حياض الاسلام والمسلمين » (١) ٠

وقال أحد زعماء المسلمين فى الهند مخاطبا الدولة البريطانية : « أننا ننادى الحكومة البريطانية بملء أفواهنا أن تقلع عن سياستها العدائية لتركيا اتقاء لانفجار بركان المئات من ملايين المسلمين انفجارا يجر لبلاء عظيم » (٢) ٠

وفى مصر عقدت اللجان والجمعيات لجمع التبرعات ٠ وعندما وردت الأخبار الأولى الى مصر بانتصار تركيا قامت مظاهرات الفرح والابتهاج بهذا النصر ، وقبضت سلطات الاحتلال على بعض المحرضين عليها ٠ ولكن هذا الفرح ما لبث أن تحول الى وجوم عندما وردت الأنباء بتقهقر الجيوش التركية وسقوط « أدرنة » بعد حصار دام خمسة شهور أبلت فيها حاميتها أروع بلاء (٣) ٠

وهكذا تجاوبت أصداء هذه الحرب البلقانية فى كل البلاد الاسلامية وسيطرت أنباؤها على مشاعر المسلمين فى كل مكان ٠

وقد واكب الشعر المحافظ فى مصر هذه الحرب كما واكب الحرب الطرابلسية وتابع الشعراء مع مسلمى العالم أحداث المعارك فى جبهات القتال ٠

فحين سقطت « أدرنة » فى يد البلقان ارتفع صوت شوقى يندبها ويبكيها بكاء حارا مخلصا يصدر عن عاطفة اسلامية خالصة ٠ فقد ذكره ذلك بهزيمة المسلمين فى الأندلس ، وذكره تقلص ظل الاسلام عن شرق أوروبا وقتذاك بضياع سلطته فى غربها حين طرد العرب من الأندلس ، ولذلك سمى قصيدته « الأندلس الجديدة » (٤) وفيها يقول شوقى :(٥)

---

(١) لوثروب سودارد : « **حاضر العالم الاسلامى** » جـ ١ ، ص ١٤٤/١٤٥ ٠
(٢) لوثروب سودارد : **المرجع السابق** ، جـ ١ ، ص ٣٩ ٠
(٣) راجع د٠ محمد محمد حسين : « **الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر** » جـ ١ ، ص ٤٠ ٠
(٤) راجع : د٠ محمد محمد حسين : **المرجع السابق** ، جـ ١ ، ص ٤٠ ٠
(٥) **ديوان شوقى** ، جـ ١ ، ص ٣٨٥ ٠ توثيق د٠ احمد الحوفى ٠

يا اخت اندلس عليك سـلام — هوت الخلافة عنك والاسـلام
نزل الهلال عن السماء فليتها — طويت وعم العالمين ظـلام
ازرى به وأزاله عن أوجـه — قـدر يحط البـدر وهو تمام
جرحان تمضى الأمتان عليهما — هذا يسيل وذاك لا يلتـام
بكما اصيب المسلمون وفيكما — دفن اليراع وغيب الصمصـام
لم يطو مأتمها وهذا مأتـم — لبسوا السواد عليك فيه وقاموا
ما بين مصرعها ومصرعك انقضت — فيما نحب ونكره الأيـام

★★★

ويندد شوقى بالذين استغلوا اسم الدين فى الانتقام من المسلمين الآمنين والتنكيل بالأبرياء من المدنيين ، فارتكبوا باسم المسيحية أبشع الآثام والمسيحية منها براء فما كان المسيح عليه السلام سفاكا للدماء ولا كان داعيـا لاباحة الحرمات وانمـا كانت دعوته رحمـة ومحبـة وسـلاما : (١)

أخذ المدائن والقرى بخناقهـا — جيش من المتحالفين لهـام(٢)
غطت به الأرض الفضاء وجوهها — وكست مناكبها به الآكـام
تمشى المناكب بين أيدى خيله — أنى مشى البغى والاجـرام
ويحثه باسـم الكتاب أقسـة — نشطوا لما هو فى الكتاب حرام
عيسى سبيلك رحمة ومحبـة — فى العالمين وعصمة وسـلام
ما كنت سفاك الدمـاء ولا امرءاً — هان الضعاف عليك والأيتـام
يا حامل الآلام عن هذا الورى — كثرت عليك باسـمك الآلام
أنت الذى جعل العباد جميعهم — رحما وباسمك تقطع الأرحام
واليوم يهتف بالصليب عصائب — هم للاله وروحه ظـلام
خلطوا صليبك والخناجر والمدى — كل اداة للأذى وحمـام

★★★

(١) د. محمد محمد حسين : المرجع السابق ، ص ٤٠ .

(٢) لهام (بضم اللام) أى عظيم كأنه يلتهم كل شىء .

واذن فما أشد التناقض بين المسيحية والمسيحيين وما أكذب هؤلاء المنتسبين الى المسيحية حين لا يتخلقون بأخلاقها السمحة الكريمة .

وما أبعد هذا السلوك الوحشى من تعاليم المسيح ومن كل القيم الانسانية التى جاءت بها الأديان السماوية واصطلحت عليها الأمم المتحضرة .

وقد أثار هذا العمل الوحشى مشاعر الشيخ « عبد المطلب » فأخذ يستثير عواطف المسلمين بهذه الصور الاجرامية التى ارتكبها جنود البلقان ضد الضعفاء من المسلمين فيقول : (١)

رموا غرض العدوان عن قوس فتنة   اذا ضرمت كانت بوار العوالـــم

فان حسبوا الاسلام لانت قناتـه   فما زال دين الله صلب المعاجـــم

عدوا طورهم فاستضعفوا ليث غابه   وعاثوا فسادا فى القرى والعواصم

يسومون ضعفاها العذاب مبرحـا   ويغلون بغيا فى انتهاك المحـــارم

فمن حرة تبكى عفافا هفت بــه   يد البغى من تلك الأكف الظوالم

وطفل يعانى سكرة الموت فى الظبى   ويكرع من كأس الردى غير هائم

اذا ما بكت أمه فتكت بهـا   ذبابة هندى من البيض صـــارم

بواك يذيب القلب رجع أنينهـــا   وتجرى لها حزنا دموع الغمائـــم

★★★

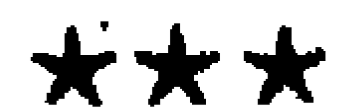
ويستنكر الكاشف ما ارتكبه جنود البلقان فى هذه الحرب من فظائع تتبرأ منها المسيحية التى يحاربون باسمها كذبا وزورا .. فيقول :

صليبية يا قوم أم عنصريـــة   حروبكم ؟ والدين هذا أم الشرك ؟

وجيرانكم أعداؤكم أم حماتكم   وأعداء عيسى المسلمون أم الترك

فهل كان عيسى يطلب الثأر بالخنا   وهل كان من أخلاقه البغي والفتك ؟

أقـــر باضغان النفوس ملوككم   ومن كان فى شك فقد ذهب الشك (٢)



---

(١) ديوان عبد المطلب ، ص ٢٧١ .

(٢) ديوان الكاشف : جـ ٢ ، ص ٢٣ .

ولقد يستلفت النظر فى شعر المحافظين فى مصر عن الحروب العثمانية بوجه عام شيوع الروح الاسلامية فى ثناياه • يظهر ذلك فى :

١ ـ احترام الشعراء المحافظين لحرمة الدين المسيحى ، ولمكانة السيد « المسيح » عليه السلام على الرغم مما ارتكبه المسيحيون فى حق المسلمين من فظائع تتنافى مع المسيحية السمحة وهذا من أدب الاسلام فى احترام الأديان السماوية •

٢ ـ الاشارة الى نظام الاسلام فى أسرى الحرب والتنويه بانسانيته فى معاملة الأسرى يقول عبد المطلب : فى « حرب طرابلس بين الترك والطليان » : (١)

علينا أن نجلل كل عضب نجيعا من دمائكم ثخينا

وأن يلقى أساراكم لدينا مكارم بشها الاسلام فينا

مكارم يعلم الثقلان أنا ورثناها عن الآباء دينا

٣ ـ أن القتال فى الاسلام يستهدف اقرار العدالة فى الأرض واعلاء كلمة الحق فى دنيا الناس ومتى تحقق ذلك فى واقع المجتمع الانسانى فلا قتال • ولكن سلاما ورحمة !!

وفى ذلك يقول « عبد المطلب » مخاطبا جنود الأعداء :

فان يك فى ملوك الأرض عدل وفى أهل السياسة منصفونا

نرد الى أكنتها المواضى ونرعى فيكم الحق المصونا(٢)

٤ ـ أن الاستعانة بالله ، والاستغاثة به تعالى من مقومات النصر فى المعارك :

يقول « المصرى » مخاطبا جنود الاسلام :

فاستصرخوا الله ينصركم على نفر طغى عليكم وأربى غير محتشم(٣)



---

(١) ديوان عبد المطلب : ص ٢٨٩ •

(٢) ديوان عبد المطلب : ص ٢٨٩ •

(٣) ديوان المصرى : جـ ٢ ، ص ٨٤ •

٥ ـ أن عقيدة المقاتل من أهم مقومات النصر على الأعداء ٠ ومن ثم وجب على المسلمين أن يعدوا للجهاد شبابا صالحين :

من كل محتفظ بالدين ذي ثقـة   للنصر منتدب بالله معتصم(١)

وأن يحاربوا الأعداء :

بكل فتى اذا ذكر المنـايا   يحن الى مواردها حنينـا
تعـلم حفظ بيضته وليـدا   وأشرب حب ملقه جنينـا
يرى أى حيـاة اذا أهينت   فيأبى أن يهان بأن تهونا(٢)

★★★

٦ ـ أن المقـاتل المسلم يغلب عشرة من أعـدائه ـ كما يقول القرآن الكريم (٣) ، وفى هذا يقول « الكاشف » عن قصيدة له فى الحرب العثمانية الايطالية : (٤)

هاتوا الذئاب الى الليوث فخمسة   منهـم ابادوا منـكم خمسـينا

★★★

٧ ـ من أخلاق المقاتلين المسلمين أنهم :

جند اذا طلبوا خفوا ، وان سلبوا   عفوا ، وان غلبوا كفوا عن الفخر (٥)

وبهذه المعانى الاسلامية أشاع الشعراء المحافظون فى قصائدهم عن الحروب العثمانية جوا دينيا يوحى بغلبه النزعة الدينية فى هذا العصر ، ويؤكد مشروعية الحرب التى خاضتها الدولة العثمانية دفاعا عن مقدساتها ٠ وكان السلطان العثمانى حريصا على تأكيد هذا المعنى الدينى حتى يضمن

(١) ديوان الكاشف ٠ جـ ١ ، ص ٥٠ ٠
(٢) ديوان عبد المطلب : ص ٢٨٥ ٠
(٣) سورة الأنفال : آية : ٦٥ ٠
(٤) ديوان الكاشف : جـ ٢ ، ص ١٩ ٠
(٥) ديوان المصرى ، جـ ٢ ، ص ١٠٩ ٠

عون المسلمين ووقوفهم ـ بوحي من عاطفتهم الدينية ـ الى جانب اخوانهم المسلمين في قتالهم ضد الطليان والبلقان الذين ارتكبوا أبشع الجرائم ضد المسلمين الآمنين .

وبذلك كانت الحروب العثمانية مظهرا من مظاهر التجمع الاسلامي في مواجهة الخطر الصليبي الجديد ، وكان الدين سلاحا فعالا في هذه الحروب أثار به الشعراء حميـة المجاهدين ، واستنفروا عزائم المسلمين لمؤازرة اخوانهم في جبهات القتال .

★★★

واذا كانت الحمية الدينية من أهم أسباب التجمع الاسلامي ، فان كل ما يثير هذه الحمية الدينية من شأنه أن يدعم فكرة الجامعة الاسلامية ، ويعمق لدى المسلمين احساسهم بضرورتها في مواجهة الخطر على الاسلام والمسلمين ..

ومن هنا كان تعلق المسلمين بفكرة الجامعة الاسلامية يشتد كلما بدا في الأفق البعيد شبح الخطر على الاسلام والمسلمين .

وفي هذه الفترة تعـددت منـافذ الخطر ، وتنوعت أساليب الغزو الأجنبي للعالم الاسلامي . وكان الغزو الفكري هو أحد هذه الأساليب وأخطرها وقد ظهر ذلك عندما أخذ المفكرون من ساسة الغرب وكتابه في التهجم على الاسلام والطعن في مبادئه ، والزراية بالمسلمين وبمدنيتهم التي أسسها القرآن .

فـكتب « فولتـير » و « لامنس » و « هانوتو » و « برتران » و « داركور » و « لا فيجرى » و « كرومر » و « مرجليوث » « سكوت و « رينان » و « زويمر » وغيرهم .. عن الاسلام ما ليس منه .

وكان « هانوتو » الفرنسي ، « كرومر » الانجليزي على رأس أولئك الطاعنين في طبيعة الاسلام ومبادئه .

أما « هانوتو » فقد كتب سـنة ١٩٠٠ مقالا عن الاسلام بمناسبة سياسة فرنسا في المستعمرات فتحرش بمسألتين من أمهات مسائل الدين وهما : التوحيد ، والقدر .

وخلاصـــة ما قاله « هانوتو » في ذلك ـ موازنا بين المسيحيـة والاســـلام :

« ان اعتقاد النصارى في التثليث وتصورهم للاله الانسان جعلهم يرفعون مرتبة الانسان ويخولانه حق القرب من الذات الالهية على حين ان العقيدة الاسلامية بدعوتها الى التوحيـد وتنزيه الله عن البشرية حملت الانسان على الضعف والوهن » ، والعقيدة المسيحية القائلة بحرية الانسان وارادته دفعته الى العمل والجد ، أما عقيدة المسلمين في القضاء والقدر فحملتهم على الجمود والركود » (١) .

ولم يتورع « هانوتو » عن نقل شتائم « مسيو كيمون » ـ الفرنسى ـ فى الاسلام ونبيه والمسلمين ، ووصفه للاسلام بأنه « جذام فشا بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكا ذريعا ، بل هو مرض مريع ، وشلل عام ، وجنون ذهولى يبعث الانسان على الخمول والكسل ولا يوقظه منهما الا ليسفك الدماء » ووصفه للمسلمين بأنهم وحوش ضارية ، ومطالبته بابادة خمسهم والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة وتدمير الكعبة ، ووضع قبر النبى(٢) فى متحف اللوفر (٣) .

ولقد أثارت تلك المطاعن غضب الامام محمد عبده فانبرى للرد عليها وتفنيدها بما يشهد له بسعة العلم وقوة العارضة(٤) وقد اعتذر «هانوتو» للأستاذ الامام حين قابله فى باريس (٥) ولكن هذا الاعتذار لم يغير شيئا من حقيقة العداء المسيحى للاسلام .

أما كرومر : فقد انتقد الاسلام وصوره دينا رجعيا لا يصلح لأن يقوم على أساسه نظام اجتماعى راق ، وأنه عبارة عن مبادىء وضعت من ألف سنة هديا لهيئة اجتماعية فى حالة الفطرة والسذاجة ، وهذه المبادىء منها ما يجيز الرق ، ومنها ما تضمن أمرا أهم من هذا كله وهو افراغ القوانين

---

(١) أحمد أمين : **زعماء الاصلاح فى العصر الحديث** ، ص ٣٣٢ ، وراجع فى ذلك أيضـــا :

(أ) محمد رشيد رضا : **تاريخ الامام محمد عبده** ، جـ ١ ، ص ٤٠١/٤١٥ .

(ب) د. محمد عمارة : **الأعمال الكاملة للامام محمد عبده** ، جـ ٣ ، ص ٢٠٧ .

(جـ) د. محمد محمد حسين : **الاتجاهات الوطنيـــة فى الأدب المعاصر** ، جـ ١ .

(٢) صلى الله عليه وسلم .

(٣) راجع ترجمة مقال هانوتو : فى **تاريخ الامام محمـــــد عبـــده** ، جـ ٢ ، ص ٤٠١ ـ ٤١٥ .

(٤) راجع : د. محمد عمارة : **الأعمـــال الكاملة للامام محمـــد عبده** ، جـ ٣ ، ص ٢٠١ ـ ٢٢٠ .

(٥) راجع : **تاريخ الامام** ، جـ ٢ ، ص ٤٣١ وما بعدها .

المدنية والجنائية والملية فى قالب واحد لا يقبل تغييرا ولا تحويرا ، وهذا ما أوقف تقدم البلدان الاسلامية التى دان أهلها بالاسلام (١) ٠

وخلاصة ما يراه « كرومر » فى الاسلام أنه مناف للمدنية وغير صالح الا للزمن والمحيط اللذين وجد فيهما ، وأن المسلمين لا يمكن أن يرقوا فى سلم الحضارة والتمدن الا بعـد أن يتركوا دينهم ، وينبذوا القرآن وأوامره ظهريا لأنه يأمرهم بالخمول والتعصب ويبث فيهم روح البغض للاغيار والشقاق وحب الانتقام (٢) ٠

وقد انبرى الذادة الغير من رجال الاسلام للرد على « كرومر » وتفنيد مزاعمه ٠ وكان الأستاذ « محمد فريد وجدى » فى مقدمة من تصـدوا للرد على مفتـريات « كرومر » ٠ وقد نشرت جريدة « الدستور » هـذه المقالات فى الرد على « كرومر » سنة ١٩٠٧ ، ثم جمعت فى كتيب تحت عنوان « اللورد كرومر والاسلام ــ ردود وملاحظات ــ بقلم محمد فريد وجدى سنة ١٩٠٨ » ٠

كما كان « مصطفى الغلايينى » أحد المدافعين عن الاســلام عنـد مفتريات « كرومر وأكاذيبه » (٣) ٠

وأيا ما كانت جهود المفكرين من رجال الاسلام فى الرد على مطاعن الخصوم ٠ فان هذه المطاعن التى استهدفت النيل من الاسلام قد أثارت ــ ولا شك ــ حمية المسلمين فازداد اشفاقهم على الاسلام ، واشتد حماسهم للدفاع عنه ٠ وقوى ايمانهم بضرورة التجمع لمواجهة الخطر عليه ٠

وبذلك كانت موجات العداء للأسلام قوة دفع ونماء لفكرة الجامعة الاسلامية ٠

وقد شارك الشعر المحافظ فى مصر فى شرف الدفاع عن الاســلام ضد هذه الحملات فأشاد بموقف الامام محمد عبده فى الرد على « هانوتو » وجزع لضعف المسلمين وهوانهم واجتراء الأعداء على دينهم ، وسخر من مطاعين الخصوم ضد الاسلام ٠ مؤكدا براءة الدين من النقائص وجهـل الأعداء بطبيعته ٠

---

(١) المؤيد : فى ١٩٠٧/٤/٢٤ ــ العدد ٥١٤٨ ٠

(٢) مصطفى الغلايينى « الاسلام روح المدنية أو الاسلام واللورد كرومر » ص ١٣ بيروت سنة ١٩٠٨ ٠

(٣) راجع مصطفى الغلايينى : المرجع السابق ٠

يقول اسماعيل صبرى من قصيدة له فى رثاء الامام محمد عبده مشيدا بجهوده فى الدفاع عن الاسلام ضد أعدائه :

ورب اناس حاربوا دين أحمد فثرت عليهم ثورة الليث عاديا
وقفت وأقلام الغواية شرع وأقلام أهل الحق ترنو سواهيا
وأفحمت بالبرهان كل مناضل لو أنك لم تغضب لزاد تماديا(١)

ويقول « أحمد محرم » مشيرا الى فعال « هانوتو » فى التهجم على الاسلام :

أيهم « هانوتو » بقبر محمد ويسوع حوليه يطوف ويعكف ؟
أيقول تلك . فلا تميد بأهلها باريس من فزع ويهوى المتحف(٢)
فلسوف ينظر أى ملك ينطوى ولسوف يعلم اى عرش يخسف
ويجى على الاسلام ! هان وزلزلت اى الخطوب شعوبه فاستضعفوا
لولا التعصب لم ترع فى ظله امم تميد ولا ممالك ترجف

ثم يقول مشيرا الى رد الامام :

كشف الكتاب عن الحجة فانظروا وارى الحجة عندكم أن تصدفوا
لوذوا بأروع ما تخاف نفوسكم ان الكتاب على النفوس لأخوف
ان الذى قهر الجبابر ما له مثل يعد ولا شبيه يوصف
تزجى أساطيل القضاء سطوره وتقود خيل الله منه الأحرف (٣)

ويقول « عبد المطلب » فى رثائه للامام محمد عبده مشيرا الى موقفه من « هانوتو » : (٤)

فكم من يد للدين أسدى وموطن تبين فيه الذى ضل رشده
وما نسى الأقوام موقفه الذى به رد هانوتو وقد ضل كيده

★★★

ومن القصائد التى أنشئت فى الرد على مزاعم « كرومر » قصيدة « لأحمد محرم » وفيها يقول مخاطبا « كرومر » :

---

(١) ديوان اسماعيل صبرى ، ص ٣٠٩ .

(٢) يشير الى ما جاء فى مقال « هانوتو » من ضرورة نقل قبر النبى عليه الصلاة والسلام الى متحف اللوفر بباريس .

(٣) ديوان احمد محرم : جـ ٢ ، ص ٧١ .

(٤) منشآت الامام : جـ ٢ ، ص ٣٣٦ .

وكان يظن ابن الفرنسى انه ... أتى بالذى لا يمكن الناس جحده

★★★

ومن القصائد التى أنشت فى الرد على مزاعم « كرومر » قصيدة « لأحمد محرم » وفيها يقول مخاطبا « كرومر » :

زعمت الدين والقرآن جـاءا ... بما يشقى حيـا ة المسلمينـا
زعمت محمدا لم يؤت رشدا ... ولم يسلك سبيل المصلحينـا
فليتك كنته لتسـن شرعـا ... يبلغنـا مـكان السابقينـا
سننا الرشـد للأقوام طـرا ... ولولا الدين لم نك راشـدينا
ولولا معشر ضـلوه منـا ... لكنـا السـابقين الأولينـا
اتزعم ما جنى الجهـلاء دينـا ... وتاخـذنا بجهل الجاهلينـا
رويدك أيهـا الجبـار فينـا ... فمـا أنصـفتنا دنيـا ودينـا (١)

★★★

ويقول « حافظ ابراهيم » من قصيدة له فى « وداع كرومر » مشيرا الى تلك المزاعم : (٢)

وأودعت تقرير الوداع مغـامزا ... رأينـا جفاء الطبع فيها مجسدا
غمزت بهـا دين النبى وأننا ... لنغضب ان أغضبت فى القبر (أحمدا)

★★★

ويقول « أحمد نسيم » مخاطبا « اللورد كرومر » ومشيرا الى مطاعنه فى الاسلام : (٣)

باللورد هل لك فى الاسلام من غرض ... ترمى اليه بسهم غـير ممنون
ألم يكن دين طه خير ما نهضـت ... به البـلاد الى علم وتمدين
فكل معتنق للدين معتقـد ... هاجت ثوائره من بعد تسكين

★★★

وهكذا شارك الشعر الاسلامى المحافظ فى مصر فى شرف الدفاع عن الاسلام والتصدى لهجمات الغزو الفكرى للعالم الاسلامى معبرا بذلك عن ثورة الشعور الاسلامى التى أقدتها الحمية الدينية والغيرة الاسلامية .

---

(١) ديوان أحمد محرم : ج ٢ ، ص ١٥ .
(٢) ديوان حافظ ابراهيم : ج ٢ ، ص ٣٩ .
(٣) ديوان احمد نسيم : ج ١ ، ص ٨ .

ونخلص مما تقدم الى ما يأتى :

أولا : أن فكرة الجامعة الاسلامية فى هذه الفترة كانت تيارا أساسيا فى الفكر السياسى المصرى ، دعت اليه عاطفة الدين التى تجعل من المسلمين على اختلاف أوطانهم اخوة متحابين فى الله · يتعاونون على البر ، ويتناصرون ضد العدوان على الاسلام والمسلمين ·

كما دعت اليه عاطفة الوطنية التى رأت فى الجامعة الاسلامية تحت جناح الخلافة العثمانية سلاحا تناوىء به الاحتلال البريطانى الذى لم يجرؤ على اعلان الحماية على مصر الا فى ديسمبر سنة ١٩١٤ بعد دخول تركيا فى الحرب العالمية وسقوط السيادة العثمانية على مصر (١) ·

ثانيا : أن الإسلام كان ـ ولا يزال ـ أوثق الوشائج بين شعوب العالم الاسلامى وأنه ـ لذلك ـ كان سلاحا فعالا فى كل معارك النضال التى خاضتها الأمة الاسلامية فمن خلاله عبأ الزعماء شعور الأمة للجهاد وحرضوها على القتال ، وحببوا اليها البذل والعطاء ، واستثاروا حميتها الدينية لمؤازرة المجاهدين فى ميادين القتال ·

وبذلك كان الاسلام هو الحبل المتين الذى شد المسلمين بعضهم الى بعض كالبنيان المرصوص فى مواجهة الخطر الزاحف · وكان هو الحصن الحصين الذى قاوم المسلمون من داخل أسواره طلائع الصليبية فى العصر الحديث ·

ثالثا : أن الشعر الاسلامى المحافظ فى مصر قد أدى رسالته فى هذه المرحلة النضالية من تاريخ مصر الحديث · فصاغ الشعور الاسلامى ، وعبر عن الآمال الوطنية للجماهير بالكلمة الصادقة والصورة الموحية والخيال البارع ، والايقاع الجميل ·

★★★

---

(١) مكرم عبد الفتاح عبد الخالق : **العلاقات المصرية العثمانية ·· من خلال المصادر التركية** ، رسالة دكتوراه غير مطبوعة · بآداب (عين شمس) ١٩٨٢ ·

الفصل الثانى

السيادة الوطنية المصرية

كان الاتجاه نحو تحقيق السيادة الوطنية المصرية فى هذه الفترة (١٨٨٢ ــ ١٩١٩) يأخذ مكانه فى الفكر السياسى المصرى جنبا الى جنب مع الاتجاه نحو الجامعة الاسلامية • وكان تحقيق هذه السيادة الوطنية مرهونا بزوال الاحتلال البريطانى الذى قبض على زمام السلطة الفعلية فى البلاد بعد أن خلا له الجو من المقاومة بهزيمة عرابى سنة ١٨٨٢ •

وكانت هزيمة عرابى بما تلاها من الاحتلال ، صدمة نفسية أصابت الشعب باليأس والاستخذاء والقهر • فانهزمت الروح الوطنية ، وتضاءل الشعور القومى وفشا الجبن والنفاق والذل والرياء ، وعمت النفعية والأنانية ، وتضاءل الخير وقل البر والعطف والاحسان ، وغاض الوفاء والاخلاص ، وانعدمت الكرامة والمروءة ولا غرابة فى هذه النتائج • فالنفوس اذا فقدت الوطنية • فقدت معها الأخلاق الكريمة • لأن الوطنية الى جانب الدين منبع الأخلاق والفضائل (١) •

وفى غمرة هذا اليأس الذى ألم بالنفوس فأذهب ما بها من معانى العزة الوطنية مضى الاحتلال البريطانى يدق أوتاده فى كل ناحية من نواحى الحياة المصرية متجها بها الى صوب الخضوع والاستسلام والضعف • فسرح الجيش الوطنى الذى حارب مع عرابى وكان يضم رجالا أشداء ، وجنودا بواسل • ثم أعاد تكوينه ضئيلا هزيلا أعزل لا يتجاوز عدده ستة آلاف ، فى قبضة « سردار » انجليزى يعاونه طائفة من كبار الضباط الإنجليز • وأغلق جميع مصانع الأسلحة بعد أن بيعت أدواتها بأبخس الأثمان ، وبيعت السفن الحربية أو حطمت وبيعت أجزاؤها ، وصارت مهمات الجيش وأداته تشترى من انجلترا ، ولا يحملها الجنود المصريون الا وقت التمرين (٢) •

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ، ص ١٩٨ •
(٢) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ، ص ٣٢ •

كذلك تسلط الاحتلال البريطانى على البوليس فوضع رجلا انجليزيا على رأسه وعين وكيلا انجليزيا متغطرسا لوزارة الداخلية (١) ٠

كما تسلط على الحياة الاقتصادية للبلاد فألغى المراقبة الثنائية وعين مستشارا انجليزيا للمالية ، وأغرق مصر وأرهقها بتعويضات الأجانب عما نالهم من خسائر وهمية ، وبتكاليف جيش الاحتلال والموظفين الانجليز ، وبتكاليف حرب المهدى فى السودان (٢) ٠

وتوالت الوزارة المستسلمة للانجليز وأخمدت أنفاس الصحافة لأدنى شبهة يتوهم فيها التعريض بالاحتلال أو الخديو (٣) ٠

وكان لهذا التغلغل الانجليزى فى الحياة المصرية أثره فى اضعاف الروح الوطنية والعزة القومية مما جعل الناس يألفون الاحتلال ، ويركنون الى الاستكانة والخضوع ويتنكرون لمعانى الشهامة والبطولة والاستمساك بالحق والواجب (٤) ، وكان ضعف الروح الوطنية هو أخطر آثار الاحتلال لأن ضعف الروح الوطنية يفقد الأمة أعظم أسلحة النضال ضد الاحتلال ٠

ومن هنا كان بث الروح الوطنية فى نفوس الشعب هو البداية الصحيحة للنضال فى سبيل الاستقلال والسيادة الوطنية ، وهو المهمة الصعبة التى شمر لها زعماء الفكر السياسى الاسلامى فى مصر عن سواعدهم ٠ ايمانا منهم بأن الروح الوطنية والشهامة الاسلامية من أهم عوامل النصر فى معارك النضال ضد الاحتلال ٠

ومن أجل ذلك ٠ ارتفع صوت « جمال الدين الأفغانى » يؤذن للجهاد ويندد بالاحتلال ، ويستنهض همم الشعب لمناوأة الانجليز ، ويستثير حميته الدينية ، ونخوته الوطنية انطلاقا من قاعدة الجهاد الاسلامية التى تفرض على المسلمين العمل فى سبيل حفظ الوطن وحمايته ، وتطهير أرضه من المعتدين وفى هذا يقول « جمال الدين » : « ان جميع المسلمين وعموم الوطنيين يرون من فروض ذمتهم السعى فى معاكسة سير الانجليز ، واقامة الموانع فى طريقهم بقدر الطاقة والامكان قياما بما يوجبه الدين والوطن ، ولا يحتاجون فى الانبعاث لهذا العمل الشريف الى أمر سلطانى فان الشريعة الالهية والنواميس الطبيعية فى كل ملة وكل قطر

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : **المرجع السابق** ، ص ١٥٩ ٠

(٢) عبد الرحمن الرافعى : **المرجع السابق** ، ص ٩ ، ص ٦٤ ٠

(٣) د٠ محمد محمد حسين : **الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر** ، ج ١ ، ص ١٩٩ ٠

(٤) عبد الرحمن الرافعى : **المرجع السابق** ، ص ١٩٩ ٠

من أقطار الأرض تطالب كل شخص بصيانة وطنه ، والذود عن حوزته ، وتبيح الموت دونه ، بل توجبــه فى مدافعة الباغين عليه ، وتدعو كل ذى عقل لأخـذ الحذر من حيـل المحتالين الذين يهتكون حرم البـلاد ، ويخفضون شئون العباد ، ويغمطون الحق ، ويفسدون الأخلاق ، ويذلون النفوس (١) •

وعلى هـذا الأساس الدينى أقام « الأفغـانى » دعوته الى الجهاد ، والتصدى للاستعمار فاستثار الحمية الدينية واستهاض الروح الوطنية بالتنديد بسياسة الانجليز واثارة حفائظ المصريين ضــدهم وبالتحريض على مقاومتهم ومعاكسة سيرهم حتى لا يطمئن بهم المقام على أرض اسلامية •

فيقول منددا بسوء تصرف الانجليز ومثيرا حفائظ المصريين ضدهم :

« بلغت غشمرة (٢) الانجليز الى حد لا يحتمل فليس من الغريب ان تضيق بها الصدور وتفيض بالغيظ منها القلوب ، وتبلى منها دروع الصبر ، وتذوب سابغات الجلد •

فيا ايها المصريون هـذه دياركم وأموالهم وأعراضكم وعقائد دينكم واخلاقكم وشريعتكم قبض العدو على زمام التصرف فيها غيلة واختلاسا • زحف العدو اليكم تحت راية المحبة • ثم قلب لكم ظهر المجن ، وتناول بيده الظالمة شئونكم العامة من عسكرية ومالية وادارة وقضاء ، ولم يبق لكم شيئا الا الحرمان من خدمة أوطانكم وانتم أحق بها وطالما دافعتم عنها•• ماذا ترجون من مطاولته ؟ وماذا تؤملون فى ارخاء العنان له ؟ وماذا تهابون معارضته ، والأخـذ على يده ؟ اما رجاء الخير منه فوهم فاسد ، وخيال باطل • فقد رأيتم أنه أفسد شئونكم وأقلق راحتكم وحرم رجالكم من الخدم ، وافقر آلافا مؤلفة من العائلات ووهب من بلادكم لأعدائكم وأضر بمنافعكم العامة من زراعة وتجـارة وصـناعة فاغلق أبواب الكسب فى وجوهكم • وقصد الى التدخل فيما يختص بامور دينكم وعمق الى خرق سياجكم وازالة قوتكم بطرد جنودكم • وهـذه اول اعماله فكيف تكون نهايتها ؟ فماذا تخشون منه ؟ ••• أنتم واقعون بسكوتكم فيما تخافون منه • انتقصت الأموال والثمرات ، وفاضت العبرات وزادت الخسرات • وان زدتم فى الخضوع زادكم عدوكم خسارا ، واوسعكم خرابا ودمارا ان رسخت قدم العــدو بينكم لا يبقى منـكم غنى الا افتقر ، ولا عظيم

---

(١) العروة الوثقى : فى ١٦/١٠/١٨٨٤ ، وانظـــر : تاريخ الامام ، جـ ١ ، ص ٣٦٥ •

(٢) الغشمرة : ركوب الرأس والظلم ، واللامبالاة ، وعدم التبصر •

الا احتقر ، وان شئتم فانظروا مستقبلكم فى مرآة حاضركم واقرأوا حالكم فى تواريخ من سبقكم (١) •

ويقول فى موضع آخر مبينا أثر الاحتلال فى مصر وكاشفا عن بعض سيئاته :

« عم اليسر وأحاط الضنك وتقوضت آلاف من البيوت التجارية ، وأتربت أيدى ملايين من عمال الصناعة وأعدم المزارعون قاطبة الا نزر يسير من حفظة الكنوز أو المستأثرين بأموال الكافة نهبا وسلبا ، باع الفلاح أساس بيته ، بل وما أبقاه « التيفوس » من عاملة أرضه بعد ما ذهبت الحاجة بحلى حرمه وبناته ليؤدي ما عليه لحكومته ، ولم ينل من غضاره ما يقوم بحفظ حياته ، وعاد الى الفطرة الأولى يقتات بأقوات البهائم ويسرح مسارح الحيوانات الا قليلا منهم الله يعلمهم • وزاد الويل بمحق الحرية الشخصية والأخذ بالشبه وان ضعفت ، واتباع بواطل التهم وان بعدت أو استحالت حتى أخذ الفزع من القلوب مأخذه ، وبلغ منها مبلغه فلا ترى مارا بطريق الا وهو يتلفت وراء لينظر هل تعلق بأثوابه شرطي يقوده الى السجن أو يقتضى منه قدا • وكان معروف الاسم من المصريين ينتظر كل خطوة عثرة ، وفى كل نهضة سقطة ، وله من كل شخص دهشه ، ومن كل طارق لبابه غشية • أى شقاء ينتظره الحى فى حياته أشنع من هذا ؟ هذا ما تنشق له المرائر من أحوال سكان القطر المصرى (٢) •

واذ نجح « الأفغانى » فى اثار حفائظ المصريين ضد الانجليز • أخذ يحرضهم على الجهاد ضد أعداء الله وأعداء الشعوب ، ويذكرهم بوعد الله للمجاهدين من المؤمنين ويخوفهم عاقبة القعود والاستكانة « والمساهلة فى شئون الأوطان » (٣) •

فيقول :

« الا أيها النائمون تيقظوا • الا أيها الغافلون تنبهوا • يا أهل الشرف والناموس ، ويا ارباب المروءة والنخوة ، ويا أولى الغيرة الدينية والحمية الاسلامية ، ارفعوا رءوسكم تروا بلاء منصبا على أوطانكم ، وما انتم

---

(١) العروة الوثقى : فى ١٨٨٤/١٠/١٦ وانظر : تاريخ الامام ، ج ١ ، ص ٣٦٧ •

(٢) د. محمد عمارة : الأعمال الكاملة : لجمال الدين الافغانى ، ص ٤٧٠ ، وانظر : تاريخ الامام ، ج ١ ، ص ٢٣٥ •

(٣) العروة الوثقى : فى ١٨٨٤/٩/١٢ •

ببعيدين منه ، ولا معزولين عنه ، ان لم يكن أصابكم اليوم فسيصيبكم غدا تساهلتم في الذود عن حقوقكم المقدسة ولهوتم عما أضمرت هذه الحكومة) الانجليزية (الماكرة من الاهانة والتدليل وسوم الخسف وتعللتم بالأوهام ، فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور ، أصبحتم على شفا جرف المذلة ويخشى أن يقذف بكم بعد قليل في جحيم العبودية الا ان وقت التدارك ما فات ، فالأرواح في الأجساد ، والعقول في الرءوس ، والهمم في النفوس وأقدام العدو في زلل ، وشئونه في خلل ، فاثبتوا ، ولا تهنوا ، ولا تحزنوا وأنتم ثباتا قليلا واقداما خفيفا في هذا الوقت يفعل ما لا يفعله الجيش الاعلان ان كنتم مؤمنين • لا ترضوا بالدنية خوفا من المنية ، واعلموا أن العرمرم •• فالثبات الثبات وحذار حذار من التواني والتقاعد ، هذا وقت يتقرب فيه المؤمنون الى ربهم بافضل عمل شرعي ، هذا وقت تنال فيه سعادة الدارين •• هذا وقت تظهر فيه ثقة المؤمن بوعد ربه • الا أن الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوا أعداءكم ، ولا تكونوا كالذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة • ان الله تعالى قد جعل من علامات الايمان حب الموت اختيارا لمرضاه ، واعلاء لكلمته ، كونوا مع الله في نصره ينصركم ويثبت أقدامكم ، ثقوا بوعد الله فلن يخلف الله وعده ان أخلصتم له في العمل ، سلوا قلوبكم ، وامتحنوا ايمانكم ، ولا ترتابوا في وعود ربكم فلن يرتاب فيها الا القوم الكافرون » (١) •

ويقول في موضع آخر :

« تعلمون أنه ما عز قوم بالخضوع ، ولا أهين شعب بالاباء • لماذا تعدون أنفسكم في الدرجة الدنيا عمن سواكم ؟ ألستم تتشابهون في الخلقة مع أعدائكم ؟ ألستم تمتازون عنهم بالايمان الصادق ، والعقائد الصحيحة ؟ ألستم تنتسبون الى أولئك الأبطال الذين دخلوا البلاد وسادوا العباد ؟

ألستم تدعون أنكم أشرف عنصرا ؟ وأكرم جوهرا ؟ فان قمتم بطلب حقوقكم فهل يصيبكم اكثر مما يصيب أعداءكم ؟ ان كان الموت فهم يخشونه • ان كان الخسار فهم يرهبونه • انهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون » •• لا تزال فيكم النجدة والشمم والرفعة ، لا يزال دينكم يترقب منكم حمية عليه وغيرة لدفع الغائلة عنه •

---

(١) العروة الوثقى : في ١٨٨٤/٩/١١م •

ان صاحب الدين صلى الله عليه وسلم ينتظر فيما يعرض عليه من أعمالكم نهضة لاعلان كلمة الحق ، وانقاذه من مخالب أعدائه ، وأن الله فى عزة جبروته لن يدعكم على ما أنتم عليه حتى يعلم الصادقين منكم ويعلم الصابرين • (يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله • ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين ، ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين) (١) •

بهذه الأفكار الواعية والمعانى الثائرة ، والعاطفة الملتهبة ، والحمية الدينية والوطنية أذن « الأفغانى » للجهاد على منبر « العروة الوثقى » التى كانت أول صحيفة رفعت لواء المعارضة فى وجه الطغيان الانجليزى وحملت على الاحتلال بلا هوادة ، وبثت روح الأمل والجهاد فى نفوس المصريين •

وليس من شك فى أن هذه الأفكار التى بثها « الأفغانى » فى قلوب المصريين قد أثارت حميتهم ، واستنفرت عزائمهم ، وجرأتهم على مناهضة الاحتلال وحببت اليهم الجهاد فى سبيل انقاذ الوطن من أيدى أعدائه وأعداء دينه • وكانت دستورا لجبهة العداء ضد الانجليز التى قادها من بعده زعماء الحركة الوطنية •• من أمثال « عبد الله النديم » و « مصطفى كامل » و « محمد فريد » أولئك الذين حملوا على الاحتلال أعنف الحملات عبر الصحف الوطنية ، ومن خلال اللقاءات الشعبية ، وفى المحافل الدولية حتى فضحوا أساليب الاستعمار وكشفوا عن سيئاته ونددوا بسياسته •

ومن ذلك ما كتبه « النديم » فى مجلة « الأستاذ » سنة ١٨٩٣ عن سياسة أوروبا الاقتصادية فى بلاد الشرق (٢) وعن أثر الانجليز فى افساد أخلاق المصريين وتقاليدهم (٣) •

وكان لما كتبه « النديم » فى « الأستاذ » أثره فى توعية الشعب بحقيقة ما يراد به مما أثار حنق الانجليز على « النديم » ومجلته ، فأغلقت بعد تسعة أشهر من صدورها وفرض على صاحبها مغادرة مصر منفيا (٤) •

ثم ان هذه المقالات التى كتبها « النديم » منددا بأساليب الانجليز كاشفا عن خداعهم كانت الى جانب مقالات « الأفغانى » الثائرة من أهم

---

(١) العروة الوثقى فى ١٦/١٠/١٨٨٤م ، وانظر تاريخ الإمام ، جـ ١ ، ص ٣٦٩ •

(٢) راجع الاستاذ فى ١٨٩٣/١/١٧ • مقال (لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا) •

(٣) راجع : الاستاذ العدد السابق ، ونفس المقال •

(٤) أنور الجندى : الصحافة السياسية فى مصر ، ص ٥١ •

مكونات الفكر السياسى « لمصطفى كامل » الذى تلقف الراية من يد « النديم » مبتدئا جهاده الوطنى الباكر من سنة ١٨٩٥ مستهدفا خدمة الوطن والدين مؤمنا بأن الدين والوطنية توأمان متلازمان ، وأن الرجل الذى يتمكن الدين من فؤاده يحب وطنه صادقا ، ويفديه بروحه ، وما تملك يداه (١) وأن التعلق بدولة الخلافة الاسلامية أقدس واجب تفرضه على المصريين الوطنية الحقة (٢) ٠

ومن هذا المنطلق ابتدأ « مصطفى كامل » جهاده الوطنى ، فأخذ يناهض الاحتلال ، ويبث روح الوطنية ، ويستنهض الشعب لازالة عار الاحتلال بمثل قوله : « كل احتلال أجنبى هو عار على الوطن وبنيه ، والعار واجب أن يزال ٠٠ فيا ذوى النفوس الأبية ويا ذوى الضمائر الحية ، اطلبوا الشرف ولومع الفقر ، اخدموا وطنكم ولو أسقطت على رءوسكم الصواعق (٣) ٠

كما أخذ يدعو الى دستور وطنى ويقوم على ارادة الأمة ليكون أداة الحكم الصالح فى مصر ٠ مؤكدا أن بقاء السلطة المطلقة فى يد رجل واحد من شأنه أن يضر بالبلاد ويجر عليها الوبال (٤) ٠

★★★

وكان « مصطفى كامل » ــ مع دعوته الى الجلاء والى الدستور ــ يدعو الى الوحدة الوطنية والى الاخاء بين المسلمين والأقباط منذ سنة ١٨٩٦م ٠ ابطالا لكيد الانجليز ، ومؤامراتهم للدسيسة بين أبناء الوطن الواحد ٠ فيقول :

« ان لأعدائنا مقصدين من القول بأننا متعصبون فى الدين : اهاجة الأمة ، والقاء بذور الشقاق بين الأوروبيين والمصريين ، ولكن من حسن حظ مصر ان الأمة محافظة على السكينة ، عارفة بقيمة الاعتدال الدينى وحسن معاملة الأوروبيين » (٥) ٠

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : **مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية** ، ص ١٢ ٠

(٢) **المؤيد** : ٩ يونيه ١٨٩٧ ٠

(٣) **المؤيد** : العدد السابق ٠

(٤) راجع : عبد الرحمن الرافعى ، **المرجع السابق** ، ص ١٦٤ ٠

(٥) عبد الرحمن الرافعى : **المرجع السابق** ، ص ٤٤٩ ٠

ويقول من خطبة له فى الاسكندرية سنة ١٨٩٧ :

« ... ان المسلمين والأقباط شعب واحد مرتبط بالوطنية والعادات والأخلاق وأسباب المعاش ، ولا يمكن التفريق بينهما الى الأبد » (١) .

ويقول فى خطبة ثالثة سنة ١٨٩٧ :

« ... مهما دبر الدخلاء من الدساس فان المصريين عامة أرشد من أن ينخدعوا ، وعقلاء الأقباط أصدق وطنية وأشرف احساسا من أن يكونوا آلات فى أيدى هؤلاء الأعداء المقوتين ، وانى أسأل الأقباط الصادقين قبل المسلمين أن يقاوموا هؤلاء الدخلاء ، وأن يحققوا أمام العالم كله أن الأمة المصرية على قلب واحد ، وانهـا متحدة ضـد أعدائها فمصلحة الوطن قاضية بذلك » (٢) .

ثم كرر هذه الدعوة سنة ١٩٠٠ فقال فى خطبة له بالاسكندرية :

« ... كيف يستطيع رجل وطنى أن يدعو للشقاق والبغضاء ، وهذه الدعوة مناقضة للوطنية الصحيحة ؟ فالأقباط اخوة لنا فى الوطن تجمعنا بهم أشرف رابطة ، وقد عشنا معهم القرون الطوال على أتم وفاق » (٣) .

★★★

وكانت الوحدة الوطنية فى مصر قد تعرضت فى بداية هذا القرن لخطر التصدع والانهيار بسبب دسائس الاستعمار من ناحية ، ثم بسبب الجهل وسوء الظن وفقدان الثقة بين المسلمين والمسيحيين من ناحية أخرى . حيث كان المسلمون يسيئون الظن بالأقباط ويتهمونهم بموالاة الانجليز المستعمرين لما بينهما من رابطة المسيحية ، وكان المسيحيون يسيئون الظن بالمسلمين ويتوهمون أنهم يتحينون الفرص للانتقام منهم ، ولا يحول بينهم وبين ذلك الا الانجليز ، وقد لعب الجهل الذى يقود الى عصبية عمياء لا تقوم على أساس من منطق أو دين دورا خطيرا فى هذه الانشقاق (٤) ثم تزايدت حدة الخلاف وتفاقم خطر الانقسام بين الجانبين حتى بلغ مبلغه بمقتل « بطرس غالى » سنة ١٩١٠ . فاندلعت نيران الفتنة ، واشتد لهب الخلاف ، وأرثت الصحف القبطية نار التعصب المذموم . ولولا ان قيض الله لهذه الفتنة من أطفأها من عقلاء الجانبين لانهار صرح الوحدة الوطنية ولضاعت — بذلك — آمال الأمة فى الحرية والاستقلال .

---

(١) د. أحمد الحوفى : **الوطنية فى شعر شوقى** ، ص ٣٤٢ .

(٢) **المؤيد** : ٩ يونيو ١٨٩٧ .

(٣) د. أحمد الحوفى : **المرجع السابق** ، نفس الصفحة .

(٤) د. محمد محمد حسين : **الاتجاهات الوطنية** ، ج ١ ، ص ١٠٧ .

وكان الزعيم « مصطفى كامل » على وعى بخطر الانقسام بين عنصرى الأمة ، وبدور السياسة الانجليزية فى التفريق بأن العنصرين ، فجهر بالدعوة الى الاخاء والوحدة منذ وقت مبكر . ثم تبعه فى دعوته خليفته « محمد فريد » فقال فى خطبة له بالاسكندرية سنة ١٩٠٨ :

« انبذوا الشقاق والاختلاف الدينى ، وكونوا جميعا اخوانا . أبناء وطن واحد . أى كونوا مصريين قبل كل شئ » (١) .

واذن .. فقد كانت قضية الوحدة الوطنية من القضايا الهامة المطروحة على الساحة السياسية المصرية فى هذه الحقبة .

ومن خلال ما تقدم يمكن القول بان أهم القضايا الوطنية ذوات المساس بالدين والتى شغلت الفكر السياسى المصرى فى هذه الحقبة كانت تتمثل فيما يلى :

أولا : الدعوة الى الجهاد ، وبث روح الوطنية فى الشعب ، واستنهاض همه لمقاومة الاحتلال واثارة حفائظه ضد الانجليز بتصوير فظائعهم والتنديد بسياستهم .

ثانيا : المطالبة بالدستور ، وتمجيد الشورى ، ورفض الاستبداد وحكم الفرد .

ثالثا : الدعوة الى الوحدة الوطنية ، والسلام الاجتماعى ، ونبذ الفرقة والتعصب بين عنصرى الأمة .

تلك كانت أهم القضايا السياسية على الساحة الوطنية المصرية فى هذه الحقبة فماذا كان موقف الشعر المحافظ فى مصر من هذه القضايا ؟

والجواب ــ فى اجمال ــ هو : أن الشعر المحافظ قد عالج هذه القضايا بروح وطنية موصولة بالاسلام . أو بمعنى آخر ، كان موقف الشعر من هذه القضايا الوطنية لا يبعد عن موقف الاسلام منها .

بيد أن هذا الجواب ــ المجمل ــ يحتاج الى شئ من الايضاح لموقف الاسلام من هذه القضايا ــ أولا ــ ثم لموقف الشعر ــ من خلال نماذجه حول هذه القضايا ــ ثانيا ــ فما موقف الاسلام فى ايجاز ــ من هذه القضايا ؟

---

(١) د. أحمد الحوفى : **وطنية شوقى** ، ص ٣٤٢ ، نقلا عن : عبد الرحمن الرافعى ، محمد فريد ، ص ٤٤٩ ..

أما قضية التحريض على الجهاد ، واستنهاض همم الشعب لمقاومة الاحتلال ورد عدوانه ، ومطالبته بالجلاء · فان الاسلام ــ انطلاقا من قاعدة الجهاد ــ يحرض المؤمنين على القتال ، ويدعوهم الى مناوأة البغي ومخاصمة الضلال ، لان الاسلام دين يقوم على الحق ، ومن طبيعة الحق انه يرفض الظلم ، ويكره العدوان مثلما يكره الذل والهوان ·

فاذا كان الاحتلال قد غرس مخالبه في مقاتل المصريين ، وقبض على زمام السلطة الفعلية في البلاد ، وقضى على الحرية ، وأوقد نار الفتنة بين عنصري الأمة ، وسام الشعب كله سوء العذاب · فان الاسلام ــ انطلاقا من قاعدة الجهاد لرد العدوان ــ يفرض على المسلمين قتال المعتدين · قال الله تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » (١) ·

ومن واجب الدعاة الى الحق في كل عصر أن يبصروا الأمة بحقوقها ، وأن يردوا اليها وعيها ، وأن يبثوا في أبنائها روح الجهاد ضد العدوان ·

فاذا فعل الشعراء ذلك · فأيقظوا وعي الأمة ، واستنهضوا هممها لمقاومة العدوان عليها ، وحرضوا الشعب على قتال ظالميه ومستبيحي حرماته ، اذا فعلوا ذلك ·· فقد أدوا رسالتهم الوطنية الدينية الانسانية· وهذا ما فعله الشعراء حين تصدوا لهذه القضايا ·

★★★

وأما قضية الدستور : فمن المعروف ان مهمة الدستور في الدولة تتلخص في حماية الحقوق ، وضمان الحريات ، وتنظيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم · فاذا نظرنا الى الاسلام وجدنا أنه قد كفل هذه الجوانب ، وأحاطها بكل الضمانات التي تجعل منها حقيقة قائمة لا قوانين مفرغة » ·

ويكفي أن أشير الى بعض المبادئ الاسلامية فيما يتصل بهذا الجانب :

أولا ــ قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

وهي قاعدة اسلامية عامة تتمثل فيها الحرية بأوسع صورها ، وأنبل غاياتها ، لأنها تضع « أسس التمرد على المظالم ، والثورة على الفسوق · وتجرئ العامة فردا فردا على أن يصدعوا بالحق ، وأن يصدعوا به رأس كل جبار عنيد (٢) ·

---

(١) سورة البقرة . الآية : ١٩٤ ·

(٢) محمد الغزالي : **الاسلام والاستبداد السياسي** ، ص ١٥٧ ·

ثانيا ــ مبدأ الشورى فى الحكم فى قوله : « وشاورهم فى الأمر » (١) : وفى قوله : « وأمرهم شورى بينهم » : (٢)

مبدأ اسلامى عام • يتقرر فى ظله حق الجماعة وينتفى نظام الفرد وينعدم الاستبداد والتسلط • وسوف أعود الى بيان ذلك عند الحديث عن سياسة الحكم فى الاسلام •

ثالثا ــ قاعدة « لا ضرر ولا ضرار » :

قاعدة اسلامية عامة • تحفظ توازن المجتمع ، وتحمى بعضه من بعض •• ذلك الى جانب ما قرره الاسلام من حق العدل والمساواة وحماية الدماء والأموال والأعراض •

وأما قضية العلاقة بين المسلمين والمسيحيين : فان الاسلام بداية لا يكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ، بل يقرر قاعدة عامة هى « لا اكراه فى الدين » (٣) •

وفى ضوء هذه القاعدة • يدعو الاسلام الناس الى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة وينهى المسلمين عن مجادلة أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن ، وينتدب المسلمين الى أن يكون موقفهم من غير المسلمين موقف رحمة وبر وعدل وقسط فيقول جل شأنه : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين » (٤) •

ومن القواعد الاسلامية المقررة فى دولة الاسلام قاعدة : « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » فهذه القاعدة « لا تكتفى بأن تكفل لغير المسلمين فى بلاد الاسلام حرية عقائدهم أو عوائدهم ، وحماية أشخاصهم وأموالهم وأعراضهم ، بل تمنحهم من الحرية والحماية ومن العدل والرحمة قدر ما تمنحه للمسلمين من الحقوق العامة « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » (٥) •

ان الاسلام لا يكف لحظة واحدة عن مد يده لمصافحة أتباع كل ملة ونحلة فى سبيل التعاون على اقامة العدل ، ونشر الأمن ، وصيانة الدماء أن تسفك وحماية الحرمات أن تنتهك » (٦) ••

---

(١) سورة : آل عمران ، الآية : ١٥٩ •
(٢) سورة : الشورى ، الآية : ٣٨ •
(٣) سورة : البقرة ، الآية : ٢٥٦ •
(٤) سورة : الممتحنة : الآية : ٨ •
(٥) محمد الغزالى : التعصب والتسامح بين المسيحية والاسلام ، ص ٨١ ــ ٨٢ •
(٦) محمد الغزالى : التعصب والتسامح بين المسيحية والاسلام ، ص ٨٢ •

والدين الذى يسمح باختلاف الدين فى بيت صغير تتلاقى فيه الوجوه ، وتتقارب الأبدان وتشتبك المشاعر — لا يضيق — البته — باختلاف الدين فى وطن كبير تتسع فيه المصالح وتتعدد الحاجات والكفايات ، ويستحب فيه التعاون على بلوغ الغايات » (١) ٠

★★★

واذن فان كل دعوة الى الاخاء الوطنى ، والسلام الاجتماعى ، والتعايش السلمى بين المسلمين والمسيحيين هى دعوة اسلامية تنبع من سماحة الاسلام ٠

ذلك موقف الاسلام — فى ايجاز — من القضايا الوطنية التى شغلت الرأى العام فى مصر ٠ أعود بعده لبيان موقف الشعر المحافظ فى هذه القضايا ، من خلال ما قدمه الشعراء فى قصائدهم السياسية ٠

★★★

والحق أن شعراءنا المحافظين قد انفعلوا بقضايا وطنهم وفى مقدمتها هذه القضايا ، فراحوا يبثون روح الوطنية ، ويستنهضون همم الشعب، ويحفزونه الى النضال والتضحية والجهاد ، ويندون بسياسة الانجليز، ويطالبون بالدستور ويؤلفون بين عنصرى الأمة فى وحدة وطنية جامعة ٠

فلنستمع الى شعرائنا وهم يبثون روح الوطنية ، ويستنهضون همم الشعب للجهاد والتضحية ٠

يقول « أحمد محرم » يهيب بالأمة أن تهب للجهاد ، وأن تستيقظ للدفاع عن محارمها ضد أعدائها المتربصين بها :

يا أمة خاط الكرى أجفانها ... هبى فقد أودت بك الأحلام

هبى فما يحمى المحارم راقد ... والمرء يظلم غافلا ويضام

هبى فما يغنى رقادك والعدى ... حول الحمى مستيقظون قيام

غنموا نفائسه وثم بقية ... ستنيلها أيديهم الأيام

---

(١) محمد الغزالى : **المرجع السابق** ، ص ١٠٩ ٠

ثم يقول ناصحا ومحذرا :

شيئان يذهب بالشعوب كلاهما   نوم عن الأوطان واستسلام (١)

★★★

وفي سبيل الحق المقدس لا يبالي « أحمد محرم » بلوم اللائمين بل يعلن أنه من حزب الله وأنه قد بايع على نصرة الحق فيقول : (٢)

نحن حزب الله صنا حقه   وحفظنا عهده في الناكثين
نحن بايعناه مذ كنا على   نصرة الحق وكنا فاعلين
ان غضبنا أو رضينا فله   لا نبالي نزهات المرجفين

ثم يستنفر قومه للجهاد في سبيل الحق ، والحفاظ على المحارم ، وحماية الوطن ، لأن مصر حصن الاسلام ، وملاذ المسلمين فيقول :

يا لقومي ، جاهدوا ، لا تهنوا   وسيأتي الله بالنصر المبين
أنجدوا مصر اذا ما فزعت   وأهابت بالكماة الباسلين
احفظوها ان مصر ان تضع   ضاع في الدنيا تراث المسلمين

★★★

ويقول « أحمد نسيم » يحث الأمة على الجهاد والذود عن حقوقها في الحرية والاستقلال :

هلم ندافع جهدنا عن بلادنا   دفاع كماة أو ضراغم غاب
كذلكم الرئبال تعروه سورة   اذا احتل يوما خيسه بذئاب
ومن فقد استقلاله عاش هينا   يسام صفوفا من أذى وعذاب
هلم نخض غمر الصعاب الى العلا   ونفرق من الاقدام كل عباب (٣)

وقال يحث الأمة على الثبات وطلب الجلاء : (٤)

يا أمة ثبتت على كيد العدا   لا تجزعي ، ان الثبات فخار
سيري الى طلب الجلاء ولا تني   نمنح من العلياء ما نختار

---

(١) ديوان أحمد محرم : ج ١ ص ٨٥ .
(٢) ديوان أحمد محرم : ج ٢ ، ص ١٨٠ .
(٣) ديوان أحمد نسيم : ج ١ ص ٤ .
(٤) ديوان أحمد نسيم : ج ٢ ، ص ٦ .

وقال يستنفر للجهاد والسعى الى طلب الجلاء : (١)

قومى لقد حان التيقظ فانشدوا مجـــدا لكم ضيعتموه ونمتموا
من بات ينشد حقه متوخيـــا فيه الثبـــات فانه لا يهضـــم
سيروا على قدم الثبات ولا تنوا واسعوا الى طلب الجلاء وأقدموا
لم يبلغ النصر المؤثل معشر وطدوا نفوسهم على أن يهزموا

وقال يحرض الأمة على طلب المجد ، ويستنهض همتها لتحقيق المطلب المنشـود :

يا أمة التـــاريخ هلا همـــة شـماء تدنى المطلب المنشودا
ألا يكن مجـــد فبئست عيشـــة تبكون فيها السؤدد المنشودا (٢)

★★★

ويقول « المصرى » يدعو فتية النيل الى الاقدام ويغريهم بالعلاء وطلب المجـــد : (٣)

يا فتية النيل جدوا السير تغتموا تلك العلا فهى تدعـو لكل مغتنم
المجد بالباب والمزلاج يمنعـــه فحطموه اذا استعصى فينحطم
ويدخل المجـد خطارا بموكبه يصافح النــاس فى أثواب مبتسم

★★★

ويبث « الغاياتى » روح الوطنية فى الشعب ، ويستحث الأمة على الجهاد لاستخلاص حقها المغتصب مهددا بالانتقام من ظالميها فيقول : (٤)

طال يــوم الظلم فى مصر ولم ندر بعـد اليـوم للعدل مقاما
هــل يرى المحتل أنا أمـــة مـذ عرفنا السلم لا ندرى الخصاما

---

(١) ديوان احمد نسيم : جـ ٢ ، ص ١٢ .
(٢) ديوان أحمد نسيم : جـ ٢ ، ص ١٧ .
(٣) ديوان المصرى : جـ ١ ، ص ١١٩ .
(٤) ديوان « وطنيتى » للغاياتى : ص ٤٥ .

أو يرى الظالم فينـا أننـا نحمـل الخسف ولا نبغي انتقاما
زعمـوا زورا فما من أمـة سامها العسف ظلوم ثم داما
كتب النصـر لشعب ناهض في سبيل المجد لا يخشى الحماما

ويقـول مخاطبا فتى النيـل مستنفرا حميته الوطنيـة للدفاع عن شرفه :

يا فتى النيل أدرك النيل انى ألمح الجبـن في قـلوب الحماة
ليس فيهم فتى يجيب دعـاء يـوم يدوى بمصر صوت الدعاة
جاهد اليـوم ما استطعت ولا تنس غـدا فهو مطمح النظـرات (١)

ويلفت « شوقى » أنظار المسلمين الى ما يدعو اليه الاسلام من الأخذ بأسباب القوة ، وابتغاء العزة والسيادة فيقول :

حب السـيادة من شمائل دينكم والمجـد روح منه والاقدام(٢)

ويقول من قصيدة له في « ذكرى المولد » يحث على الاقدام والجسارة اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم :

وعلمنـا بنـاء المجـد حتى أخذنا امرة الأرض اغتصـابا
وما نيـل المطـالب بالتمنى ولكن تؤخـذ الدنيـا غلابا
وما استعصى على قـول منـال اذا الاقدام كان لهم ركابا (٣)

★★★

والحرب ما دامت لحماية الدين والوطن فهي جهاد مشروع يحفظ نظام الأمم ، ويحمى حياة الشعوب . ولذلك دعا النبي الى الجهاد دفعا للعدوان وحماية للحق .

يقول « شوقى » مادحا رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيان مزايا دعوته ومنها الجهاد في سبيل الحق :

علمتهم كل شيء يجهلون به حتى القتال وما فيه من الذمم

---

(١) ديوان وطنيتي للغاياتي ، ص ٩٠ .
(٢) الشوقيات : ج ١ ، ص ١٨٤ .
(٣) الشوقيات : ج ١ ، ص ٦٢ .

دعوتهم لجهاد فيه سؤددهم والحرب أس نظام الكون والأمم
لولاه لم للدولات فى زمن ماطال من عمد أو قر من دعم (١)

ويقول فى « **الهمزية النبوية** » :

والحرب من شرف الشعوب فان بغوا فالمجد مما يدعون براء (٢)

وشوقى اذ يمدح النبى صلى الله عليه وسلم ، ويلوح بجهاده فى سبيل الحق ودفع الضيم انما يستثير حمية المسلمين للجهاد اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

على هذا النحو مضى شعراؤنا المحافظون يبثون فى الشعب روح الوطنية ويبعثونه للجهاد والمقاومة ، ويحفزونه لطلب الجلاء والاستقلال ٠

وبذلك شارك الشعر المحافظ فى صياغة الوجدان الوطنى للشعب، وفى تنبيه وعي الأمة الى أساليب الاحتلال ومؤامراته ٠

ولعلى لا أكون مبالغا اذا قلت : ان الشعر ـ بما له من خاصية الايقاع والنغم قد كان ألصق بوجدان الشعب وأبقى فى أذن الجمهور من خطب الساسة والزعماء ولذلك عاشت القصائد ـ أو على الأقل بعض أبياتها ترددها الجماهير وتتغنى بها فى اعجاب لم تحظ به خطب الزعماء مع صدق معانيها وقوة أفكارها ٠ وهذا يعنى أن الشعر فى حياة الشعوب ليس ترفا ، ولا تزجية فراغ وانما هو تعبير صادق عن النفس الانسانية فى أنبل عواطفها ٠

★★★

ومهما يكن من أمر ٠ فقد مضى الشعراء المحافظون فى طريق النضال الوطنى يندون بسياسة الانجليز ويصورون فظائعهم ، يريدون أن يثيروا حفائظ المصريين ضدهم بكشف سيئاتهم وفضح مؤامراتهم ٠ وفى هذا يقول « أحمد محرم » منددا بسياسة الانجليز ، ناعيا على الاحتلال بغيه وعدوانه ، ونقضه للعهود والمواثيق :

---

(١) **ديوان شوقى** : جـ ١ ، ص ٦٢٩ ٠ توثيق : د٠ أحمد الحوفى ٠

(٢) **الشوقيات** : جـ ١ ، ص ٢١ ٠

فى كل يوم شرعة ونظام   ما هكذا الأحكام والحكام
عشرون عاما والديار مريضة   تنتابها الأدواء والأسقام
كيف الشفاء لمصر من أدوائها   أم كيف يرجى عزها ويرام ؟

الى أن يقول مخاطبا بريطانيا :

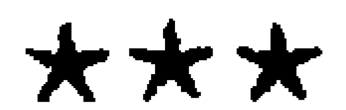
يا دولة رفعت على أوطاننا   علما تنكس تحته الأعلام
أين المواثيق التى أبرمتها   ان كان منك لموثق ابرام ؟
لم تحفلى بعهودنا فنقضتها   يا هذه ، نقض العهود حرام
عشرون عاما ما كفتك وهكذا   تأتى وتذهب بعدها الأعوام
طال المقام وأنت أنت ولم يكن   ليطول لولا الجهل منك مقام (١)

ويقول من قصيدة له سنة ١٩١٨ يندد بفظائع الانجليز فى مصر ابان الحرب العالمية الأولى : (٢)

ما ذكرنا لكم من الخير شيئا   ما رضينا لكم على الدهر حالا
نذكر الحكم ظالما ما رأينا   فيه عدلا ولا وجدنا اعتدالا
نذكر العهد سيئا ما عرفنا   فيه حرية ولا استقلالا
نذكر الشر والبلاء جميعا   فاذكروا عهدكم وشدوا الرحالا
طال عهد احتلالكم فحسبنا   أن يوم الحساب يدعى احتلالا

الى أن يقول منذرا الانجليز بسوء العاقبة :

هل من الله مهرب أو نجاة   حين يزجى جنوده والرعالا(٣)
يأخذ البر والبحار عليكم   ويريكم نزاله والدحالا(٤)
تلك عقبى الأذى فلا تنكروها   جاءكم يومكم فذوقوا الوبالا



---

(١) ديوان احمد محرم : جـ ١ ، ص ٨٥ .
(٢) عبد الرحمن الرافعى : شعراء الوطنية ، ص ٢٠٠ .
(٣) الرعال : جماعة الخيل .
(٤) الدحال : الامتناع .

وكانت فاجعة « دنشواى » صدمة أصابت الشعور الوطنى وأثارت حفائظ المصريين ضد الانجليز ، وقد استغلها الشعراء المحافظون فى التنديد بسياسة الانجليز ووحشيتهم ، وفى اثارة الرأى العام والضمير العالمى ضدهم .

فقال « حافظ ابراهيم » منددا بوحشية الانجليز فى سخرية واستنكار :

لا تقيدوا من أمة بقتيل — صادت الشمس نفسه حين صادا

جاء جهالنا بأمر وجئتهم — ضعف ضعفيه قسوة واشتدادا

أحسنوا القتل ان ضننتم بعفو — أقصاصا أردتم أم كيادا ؟

أحسنوا القتل ان ضننتم بعفو — أنفوسا أصبتم أم جمادا ؟

ليت شعرى أتلك محكمة التفتيش عادت أم عهد نيرون عادا ؟

كيف يحلو من القوى التشفى — من ضعيف ألقى اليه القيادا ؟

انها مثلة تشف عن الغيظ ولسنا لغيظكم أندادا (١)

ويقول من قصيدة له فى استقبال « اللورد كرومر » عند عودته من اجازته بعد حادثة دنشواى يصف فيها فظائع الاحتلال فى هذه الحادثة :

حسبوا النفوس من الحمام بديلة — فتسابقوا فى صيدهن وصوبوا

خليتهم والقاسطون بمرصد — وسياطهم وحبالهم تتأهب

جلدوا ولو منيتهم لتعلقوا — بحبال من شنقوا ولم يتهيبوا

شنقوا ولو منحوا الخيار لأهلوا — بلظى سياط الجالدين ورحبوا

يتحاسدون على الممات وكأسه — بين الشفاه وطعمه لا يعذب

موتان : هذا عاجل متنمر — يرنو وهذا آجل يترقب

والمستشار مكاثر برجاله — ومعاجز ، ومناجز ، ومخرب(٢)

يختال فى أنحائها متبسما — والدمع حول ركابه يتصبب

طاحوا بأربعة فأردوا خامسا — هو خير ما يرجو العميد ويطلب(٣)

---

(١) ديوان حافظ ابراهيم : ج ٢ ، ص ٢٤ .

(٢) المستشار : هو الكابتن (متشل) مستشار وزارة الداخلية ، وكان يشرف على تنفيذ الحكم . راجع عبد الرحمن الرافعى : **شعراء الوطنية** ، ص ١٠٤ .

(٣) ديوان حافظ ابراهيم : ج ٢ ، ص ٢٤ .

ويقول « شوقى » من قصيدة له فى « ذكرى دنشواى » يصف هذه المأساة البشعة التى تركت آثارها فى كل ناحية وكل محلة جزعا وكآبة :

يا دنشواى على رباك سلام ... ذهبت بأنس ربوعك الأيام
شهداء حكمك فى البلاد تفرقوا ... هيهات للشمل الشتيت نظام
مرت عليهم فى اللحود أهلة ... ومضى عليهم فى القيود العام
كيف الأرامل فيك بعد رجالها ... وبأى حال أصبح الأيتام
عشرون بيتا أقفرت وانتابها ... بعد البشاشة وحشة وظلام
يا ليت شعرى فى البروج حمائم ... أم فى البروج منية وحمام ؟
(نيرون) لو أدركت عهد (كرومر) ... لعرفت كيف تنفذ الأحكام !
نوحى حمائم دنشواى وروعى ... شعبا بوادى النيل ليس ينام
ان نامت الأحياء حالت بينه ... سحرا وبين فراشه الأحلام
متوجع يتمثل اليوم الذى ... ضجت لشدة هوله الأقدام
السوط يعمل والمشانق أربع ... متواحدات والجنود قيام
والمستشار الى الفظائع ناظر ... تدمى جلود حوله وعظام
فى كل ناحية وكل محلة ... جزعا من الملأ الأسيف زحام
وعلى وجوه الثاكلين كآبة ... وعلى وجوه الثاكلات رغام(١)

ولا شك أن حادثة دنشواى كانت مبعث اليقظة والحياة للحركة الوطنية المصرية . فقد جرأت الشعب على التصدى للاحتلال ومناوأته بسوء سياسته . والى ذلك يشير « حافظ ابراهيم » بقوله :

قتيل الشمس أورثنا حياة ... وأيقظ هاجع القوم الرقود
فليت (كرومرا) قد دام فينا ... يطوق بالسلاسل كل جيد
ويتحف « مصر » آنا بعد آن ... بمجلود ومقتول شهيد
لننزع هذه الأكفان عنا ... ونبعث فى العوالم من جديد (٢)

★ ★ ★

لقد كانت حادثة دنشواى ايذانا بانطلاق الروح الوطنية الكامنة فى صدور المصريين ، فانطلقوا يندون بسياسة الاحتلال ، ويدقون أبواب العدالة الانسانية ، ويهتفون بالضمير العالمى للوقوف الى جانب الحق المستباح .

---

(١) الشوقيات : ج ١ ص ٢٤٤ .
(٢) ديوان حافظ ابراهيم : ج ٢ ، ص

فيقول « نسيم » من قصيدة له يحمل فيها على الاحتلال ، ويفضح نكثه بعهوده ، ويستنهض الهمم للجهاد : (١)

يا ناشرين لواء العدل في الأمم ... الله في أمة أنت من الألم
مدوا الينا يدا بيضاء نشكرها ... عند التحدث شكر الروض للديم
انا منينا بأقوام جبابرة ... ما بين مغتصب منهم ومحتكم
جاءوا الينا وفي أيمانهم شرف ... يموهون به في العهد والقسم
قالوا لنا : انا جئنا بلادكم ... نبني لكم ركن مجد غير منهدم
حتى تخدرت الأعصاب وانسدلت ... على العقول سجوف البطل والوهم
فلا فهود لهم ترعى ولا ذمم ... كما استباحوا لدينا النكث في الذمم
هم أحرجونا بهذا الضيم من زمن ... فان هممنا بدفع الضيم لم نلم
يا قائمين بأمر النيل حسبكم ... ما أحرج القوم من ظلم ومن غشم (٢)

ويقول من قصيدة أخرى يعدد آثار الاحتلال ويفضح نياته :

هموا حكموا بأعنات كأنا ... حرام أن نكون من الشعوب
فمن أرث هم اغتصبوه منا ... ومن حق بلا حق سليب
وهم وأدوا الصحافة في صباها ... وقيدها العميد بلا ذنوب
وكم نشروا علينا من صنوف ... تجر الى الدمار ومن ضروب
يحبون الثناء على نكير ... ويبغون المديح على معيب (٣)

★★★

ويشكو « الغاياتي » من مساوىء الاحتلال ، ويئن من ظلم الانجليز واعناتهم للشعب فيقول :

طال ليل البلاد والشعب سار ... لا يرى غير هذه الظلمات
ظلمات من المظالم أودت ... بضياء الحياة بعد الحياة
يشتكي الشعب والقضاة خصوم ... فلمن يشتكي خصام القضاة

---

(١) عبد الرحمن الرافعي : شعراء الوطنية ، ص ٢٢٣ .
(٢) ديوان نسيم : ج ٢ ، ص ٧ .
(٣) ديوان نسيم : ج ٢ ، ص ٤٣ .

ثم يهدد بالانتقام من الطغاة فيقول :

أوشك القلب أن يطير انتقاما بيد أن الصدور ذات أناة
ليس للصبر موطن فى فؤاد أضرمته لواعج الزفرات (١)

ويقول منددا بمساوىء الاحتلال ونقضه للعهود :

دالت الأيام واحتل الحمى ظالم عن ظلمة لم ينم
لفظته أرضه من بعد ما أطمعته نفسه فى الأمم
ناكث الايمان فى أيمانه حانث لم يحتفظ بالذمم
باعث الجهل مميت للحجا خاذل الحق نصير البرم
لا رعاه الله من مغتصب أشأم اليوم نذير النقم (٢)

و « لعبد المطلب » قصيدة تنم عن شعور متقد وصراحة تامة فى كشف عورات الانجليز وسوءاتهم ، وسوء سيرتهم بمصر ، وما لاقت على أيديهم من الذلة والمهانة والجهل (٣) وقد نظمها قبيل الحرب العالمية يصف فيها ما عانته مصر فى ظل الاحتلال على مدى ثلاثين عاما :

ثلاثين عاما لا ترى مصر منهم سوى صلف المستكبر المتعزق(٣)
ثلاثين عاما لم تشم برق رائحة ولا طيب مخضر من العيش غيدق
ثلاثين عاما بين يأس وحسرة وهول زمان بالحوادث متأق(٤)
اذا ودعت عاما من الجور أبقعا تفىء الى عام من البؤس أبلق

ثم يقول عن أخلاق المحتل :

يرى نفسه فوق القوانين بيننا متى ما تذكره القوانين يحنق
يبيح غدا ما حرم اليوم بالهوى لغير الهوى فى حكمه لم يوفق
الآهة جبارة وامرة خاطل وتدبير أعمى فى الحكومة أحمق
يقرب خوانا ويرفع جاهلا ويسعد أشقاها ويشقى بى التقى

---

(١) ديوان : وطنيتى للغاياتى ، ص ٩١ .
(٢) ديوان وطنيتى ، ص ٩٠ .
(٣) راجع : عمر الدسوقى فى الأدب الحديث ، جـ ٢ ، ص ١٣٢ .
(٤) المتعزق : العسر الخلق .
(٥) متاق : أى مملوء .

ويقول عن أثر الاحتلال فى تعطيل الحركة العلمية فى مصر :

ثلاثين عاما يسكب النيل حسرة   على العلم دمع الواله المتشدق

ولولاه كانت مصر بالعلم روضة   تلألأ بالأنــوار للمتــأنق (١)

★★★

ويصم شوقى الاستعمار بالعدوان على الحق الطبعى للأمة أن تنتفع بخيراتها ، وهو حق لا تنكره الا شريعة الدنس والقذارة فيقول :

أحـــرام على بلابله الـــدوح   حــلال للطــير من كل جنس

كل دار أحـق بالأهـــل الا   فى خبيث من المذاهب رجس (٢)

★★★

وأيا ما كانت سطوة الاستعمار وضراوته فلقد كان هــذا التنديد المستمر ــ بسياسته نوعا من المقاومة الوطنية التى أفقدت المحتل ثقته فى امكان بقائه آمنا من غضــبة الشــعب الذى بدأ يتحفز للانتقــام من مستعمريه ، وكان لذلك أثره المباشر فى الجلاء عن أرض الوطن فيما بعد .

وكانت المطالبة بالدستور فى مواجهة الاستبداد وفساد الحكم موقفا وطنيا شارك فيه الشعراء المحافظون تأكيدا لحق الأمة فى الحرية والعدالة ، وضمانا لحماية مصالحها من الفساد والفوضى ، وتلك مهمة الدستور فى حياة الشعوب على نحو ما يقول « أحمد محرم » من قصيدة له يخاطب فيها « القانون العادل » : (٣)

انت فى الأرض امام الحاكمين   بك يمضى حـكمهم فى العالمين

انت للمظـــلوم حـــرز مانع   ونـــكال واقـــع بالظـــالمين

أنت مـوت للغـــواة الجاهلين   وحيـــاة للهـــداة العـــارفين

أنت ان شئت فخـوف الآمنين   وان شئت فأمـن الخـــائفين

تنصر الحـق بعـزم قاهـــر   حين لا يرجو غيــاث الناصرين

تحفظ القوم وتحمى حوضـــهم   يوم يعنى القوم فقد الحافظين

★★★

(١) عبد الرحمن الرافعى : شعراء الوطنية ، ص ٢٥٤ .

(٢) الشوقيات : جـ ١ ، ص ٥٤ .

(٣) ديوان احمد محرم : جـ ١ ، ص ٩٧ .

من أجل ذلك نشطت الدعوة الى الدستور ، والى الحياة النيابية وكان لصدور الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ أثره في تنشيط هذه الدعوة في مصر وفي بعث الأمل في الظفر بمثل ما ظفرت به تركيا .

وقد عبر « شوقي » عن أمل مصر في ذلك ، فقال من قصيدة له يحيي فيها شعب عثمان ويهنئه بالدستور .

يا شعب عثمان من ترك ومن عرب   حياك من يبعث الموتى ويحييها
ما بين آمالك اللاتي ظفرت بهـا   وبين مصر معان أنت تدريها (١)

★★★

ويهنىء « اسماعيل صبري » الخديو عباس بعيد الأضحى سنة ١٩٠٨ ، فلا يفوته أن يطالبه بالدستور ويستنجزه وعده به ، لأن الممالك كلها تنعم بالدستور بينما مصر محرومة منه مع أن الدستور يحمي الحاكم ويجعله راعيا لشعب قوي ، بينما الاستبداد يجعل منه راعيا لشعب ضعيف متخاذل لا يؤمن عليه من العدوان .. فيقول : (٢)

كل الممالك نالت ما ترتجـى   من أنعم الشورى وملكك مطلـق
مر بالذي صرحت قبل به وقـل   واصدق فمثلك من يقول ويصدق
سدد سهام الرأي بالشورى يحط   بك منه في ظلم الحوادث فيلـق
واسبق به ، واضرب به ، وافتح به   ما شئت من باب أمامك يغلـق
فاحكم بغير العنف واكسر سيفـه   فالحلم اجمل والمكارم اليـق
كن راعيا يرعى الأسود فمن رعـى   غنما يبيت يخشى الذئاب ويغرق

★★★

والدستور ليس منحة ولا هبة من أحد بل هو حق طبعي للشعوب وأمانة في أعناق حكامها تستردها الشعوب متى شاءت .

ومن ثم يرفع « المصري » (صوت الشعب) (٣) الى الخديو عباس سنة ١٩٠٨ ، يطالبه بالدستور ، ويحذره من معاداة الشعب ، وتجاهل مطالبه ، ويذكره بوعده باصدار الدستور فيقول على لسان الأمة المصرية :

---

(١) الشوقيات : جـ ١ ، ص ٣٦٢ .
(٢) ديوان اسماعيل صبري : ص ١٧١ .
(٣) ديوان المصري : جـ ١ ، ص ٨٥ .

رد الوديعة لا مالا ولا شانـــا لم نرج فى جانب الدستور احسانا

لولا ولاؤك لم نبسط اليك يـدا بين الرجاء ، ولم نسألك غفرانـا

الناس تخلق أحرارا فيكيف بنـا نرضى المقام بوادى النيل عبدانـا

هلا أدركت الوعود السالفات،وهل نسيت بالأمس ما أسمعته الطانا(١)

ويؤيد « حافظ ابراهيم » حركة المطالبة بالدستور ويستحث الشعب على التمسك بهذا الحق فيقول من قصيدة له فى تحية العام الهجرى سنة ١٩٠٩ : (٢)

ويا طالبى الدستور لا تسكنوا ولا تبيتوا على يأس ولا تتضجروا

أعدوا له صدر المكان فانني أراه على أبوابكم يتخطـر

فما ضاع حق لم ينم أهله ولا ناله فى العالمين مقصـر

لقد ظفر الأتراك عدلا بسؤلهم ونحن على الآثار لا شك نظفر

هم لهم العام القديم مقدر ونحن لنا العام الجديد مقدر

★★★

والدستور عند « حافظ ابراهيم » هو عماد الحياة السياسية وبغيره لن تقوم للنظام فى مصر قائمة . يقول « حافظ » : (٣)

وان لم يدرك الدستور (مصرا) فما لحيـاتها أبـدا قـوام

ويستحث « نسيم » الأمة على طلب الدستور وعلى الثبات والصبر فى سبيله حتى لا تضيع منهم فرصة الدستور فيعيشوا أذلاء مقهورين . فيقول :

---

(١) يشير الى الحديث الذى أدلى به عباس الى صحيفة (الطان) ووعد فيه باصدار الدستور .

(٢) ديوان حافظ ابراهيم : ج ٢ ، ص ٣٧ .

(٣) ديوان حافظ ابراهيم : ج ٢ ، ص ٥٧ .

فلا تفكوا عرى القربى ولو رجعت   عنكم شفار الظبا مخضوبة بدم

ولا تضيعوا من الدستور فرصته   فتقرعوا السن من ذل ومن ندم

ان تيأسوا فانتهاء اليأس مسكنة   أو تسأموا فاحتمال الذم فى السأم

خير لنا الموت من عيش نكابده   مع الهوان اذا كنتم ذوى شمم(١)

ويقول من قصيدة له يخوف الحكام من عاقبة الاستبداد والظلم :

ما كان ضر الظالمين لو انهم   صدقوا الاله مواقعا وعهودا

ان الملوك اذا استبدوا ، أصبحت   أيامهم رهن الحوادث سودا

ورأوا قلوب العالمين حقيبة   ملئت ضغائن نحوهم وحقودا

حتى اذا شهر المضيم حسامه   كانت له مهج الجناة غمودا (٢)

وفى نفس المعنى يقول عبد المطلب : (٤)

اذا الملك لم يعط الرعية حقها   فغير عجيب أن يهان ويخلعا

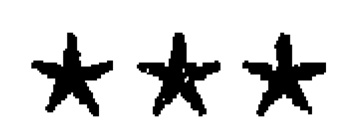
★★★

ويمدح « شوقى » رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيشيد بحكومته التى أقام نظامها على العدل والمساواة والشورى فكانت مثلا محتذى لخير المجتمعات فى كل عصر فيقول : (٢)

داء الجماعة من ارسطاليس لم   يوصف له حتى أتيت دواء

فرسمت بعدك للعباد حكومة   لا سوقة فيها ولا أمراء

الله فوق الخلق فيها وحده   والناس تحت لوائها أكفاء



(١) ديوان احمد نسيم ، ج ٢ ، ص ٩ .

(٢) ديوان احمد نسيم : ج ٢ ، ص ١٤ .

(٣) ديوان عبد المطلب : ص ١٤٢ .

(٤) ديوان شوقى : ج ١ ، ص ٣٨ .

وفى « العمرية » « لحافظ » تمجيد للشورى ، وايحاء بالحاجة اليها لما تعود به من خير على المجتمع ورفض للاستبداد وحكم الفرد ، لما يجره على الجماعة من شقاء وبلاء ٠٠ يقول حافظ :

يا رافعا راية الشورى وحارسها   جزاك ربك خيرا عن محبيها

ثم يقول مشيدا بسياسة سيدنا عمر رضى الله عنه :

وما استبد برأى فى حكومته   ان الحكومة تغرى مستبديها

رأى الجماعة لا تشقى البلاد به   رغم الخلاف ورأى الفرد يشقيها(١)

بهذا الحماس الوطني للدستور والدعوة الى تقرير العدالة وحق الشعب فى حياة نيابية سليمة تقوم على الشورى لا على الاستبداد وحكم الفرد ٠ شارك الشعر المحافظ فى دعم السيادة الوطنية مشاركة فعالة مستوحيا روح الاسلام فى الدعوة الى الشورى ، والأمر بالعدل ، والنهى عن الظلم والتسلط والاستبداد ٠

وكانت الوحدة الوطنية والالتحام بين عنصرى الأمة ضرورة يفرضها اعداد الشعب لمواجهة عدو مشترك يسعى لايقاد نار الفتنة بين جناحى الأمة : المسلمون والمسيحيون ــ ابتغاء السيادة عليهما دون تمييز فى العدوان عليهما بين مسلم ومسيحى ٠

ولقد طالما حاول المستعمر أن يبث بذور الشقاق والعداوة فى باطن الأمة ويستعدى أقباطها على مسلميها ولكن التربة الأصلية لهذه الأمة تلفظ دائما هذه البذور الخبيثة ، حتى كانت حادثة مقتل « بطرس غالى » سنة ١٩١٠ فاستغلها الاستعمار ، وراح ينفخ روح العداء والكراهية بين الأقباط والمسلمين ، مستعينا فى ذلك بجلاء الفريقين الذين كادوا بجهلهم الأعمى وتعصبهم المذموم يمزقون جسد الأمة ، ويلقون بأنفسهم تحت أقدام الاحتلال ، مما أفزع الوطنيين المخلصين والدعاة الراشدين فهبوا يستدركون بوعيهم خطأ الجاهلين ٠ وأخذوا يهدئون الثائرين من الفريقين ٠ وكان للشعراء المحافظين فى هذه القضية صوت مسموع ، فقد ارتفعت أصواتهم بالدعوة الى الوحدة والى التآخى ، والى السلام والوئام والحب والتسامح انطلاقا من دعوة الاسلام الى هذه المعانى ، واستنادا الى التاريخ المشترك الذى عاش فى ظله المسلمون والمسيحيون على كلمة سواء ٠

---

(١) ديوان حافظ : جـ ١ ص ٩١ ٠

وقد برز الاتجاه الاسلامى فى هذه الدعوة متمثلا فى الأفكار الاسلامية التى أقام عليها الشعراء المحافظون دعوتهم الى الوحدة الوطنية .

١ ـ أن الأديان كلها تدعو الى الاخاء والتسامح والمحبة ، وكل دعوة لا تقوم على البر والرحمة وحسن العلاقة بين المتدينين فليست من الدين فى شىء .. يقول شوقى :

الكتب والرسل والأديان قاطبة — خزائن الحكمة الكبرى لواعيها
محبة الله أصل فى مراشدها — وخشية الله اس فى مبانيها
وكل خير يلقى فى أوامرها — وكل شر يوقى فى نواهيها
تسامح النفس معنى من مروءتها — بل المروءة فى أسمى معانيها (١)

ويقول « اسماعيل صبرى » مذكرا بدعوة الاسلام والمسيحية كليهما الى الاخاء (٢)

دين عيسى فيكم ودين أخيه — أحمد يأمراننا بالاخاء

ثم يطلب الى المسيحيين ألا يطيعوا دعاة الفرقة والفتنة فيقول :

لا تطيعوا منا ومنكم أناسا — بذروا بيننا بذور الجفاء
ان دين المسيح يأمر بالعر — ف وينهى عن خطة الجهلاء
لا يكن بعضنا لبعض عدوا — لعن الله مستبيحى الدماء

★★★

٢ ـ أن الأديان انما نزلت لهداية البشر ، ومن فساد الرأى أن نجعلها بابا للشر أو سببا للعداء فان ذلك ظلم للدين ، وسوء فهم لحقيقته .

يقول « شوقى » من قصيدة له فى رثاء (جورجى زيدان) سنة ١٩١٤ (٣) :

---

(١) **الشوقيات** : ج ١ ص ٣٦١

(٢) **ديوان اسماعيل صبرى** : ص ١٨٠ .

(٣) **الشوقيات** : ج ٣ ، ص ١٢٥ .

لا تجعلوا الدين باب الشر بينكم ولا محل مباهاة وادلال

ويقول « محرم » ناعيا على مؤججى نار الفتنة من الجانبين ، ومبرئا ساحة الدين من هذا الفساد :

شرعوا العداوة بينهم لم يوصهم دين المسيح بها ولا الاسلام(١)

ويقول فى قصيدة أخرى :

لا تظلموا الدين ان الدين يأمرنا بما علمتم من الأخلاق والشيم(٢)

ويذم « حافظ » الخلاف بين المسلمين والمسيحيين ويصف مثيريه بعدم الفهم لحقيقة الأديان التى لا تقر هذا السلوك فيقول :

فهموا من الأديان ما لا يرتضى دين ولا يرضى به من يفهم (٣)

ويقول « الكاشف » :

شر الورى من يبغض القرآن لل انجيل والانجيل للقرآن (٤)

★★★

٣ ـ ان الدين كله لله بدءا وانتهاء • فالله تعالى هو الذى يؤتى كل نفس هداها • يقول الله تعالى : (٥) « •• ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها » ويقول جل شأنه : « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا »(٦) ويقول تعالى : « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة • ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » (٧) : واذن : الهدى هدى الله ، ولو شاء الله لهدى الناس جميعا • ولا يزالون مختلفين وهم مع اختلاف عقائدهم يتجهون بعبادتهم الى الله الذى اليه يرجعون وما دام الأمر كذلك : من الله الهداية واليه المرجع والمآب ـ فلا معنى للاختلاف

(١) د• بدوى طبانة : احمد محرم • فى « خمسة من شعراء الوطنية » ص ٣٧ •
(٢) ديوان احمد محرم : جـ ٢ ، ص ١١٤ •
(٣) ديوان حافظ ابراهيم : جـ ١ ، ص ٢٩١ •
(٤) ديوان الكاشف : جـ ٢ ، ص ٤٠ •
(٥) سورة السجدة : الآية (١٣) •
(٦) سورة يونس : الآية (٩٩) •
(٧) سواة المائدة : الآية (٤٨) •

حول الدين . أو لا ينبغي أن يكون اختلاف الدين سببا فى العداء وفى هذا يقول شوقى : (١)

الدين لله من شاء الاله هدى ... لكل نفس هوى فى الدين داعيها

ما كان مختلف الأديان داعية ... الى اختلاف البرايا أو تعاديها

ويقول من قصيدة أخرى : (٢)

الدين للديان جل جلاله ... لو شاء ربك وحد الأقواما

ويقول : (٣)

والى الله من مشى بصليب ... فى يديه ومن مشى بهلال

ويقول « محرم » : (٤)

الدين لله العلى وانما ... دين الحياة تودد ووئام

★★★

٤ ـ والمسلمون يؤمنون بالانجيل كما يؤمنون بالقرآن ، ويؤمنون « بعيسى » كما يؤمنون « بمحمد » عليهما الصلاة والسلام ، لأن أصل الدين واحد ، وهو اسلام الوجه لله تعالى . ومن ثم فلا ينبغى أن تفرقنا الأديان ، ولا أن يكون اختلافها سببا للعداء بين أتباعها . وفى هذا يقول « محرم » : (٥)

يا أمة الانجيل آمنا به ... ما بالنبى ولا يسوع جحود

الدين فى أمر ونهى واحد ... والله جل جلاله المعبود

★★★

٥ ـ وعلى هدى من نور الانجيل والقرآن وعلى أساس من آداب « عيسى » و « محمد » عليهما الصلاة والسلام . قامت حضارة هذه الأمة متميزة بخصائصها الروحية المستمدة من تعاليم السماء كما جاء بها الانجيل والقرآن :

---

(١) الشوقيات : جـ ١ ، ص ٣٦١ .
(٢) الشوقيات : جـ ٢ ، ص ١٥٥ .
(٣) الشوقيات : جـ ١ ، ص ٢٣٥ .
(٤) ديوان محرم : جـ ٢ ، ص ١١٩ .
(٥) ديوان محرم : جـ ٢ ، ص ١٢٠ .

يقول عبد المطلب : (١)

بنينا على آداب عيسى واحمد … منازل عز دونها يقع النسر
فنحن على الانجيل والذكر أمة … يؤيدها الانجيل بالحق والذكر

٦ ـ أن بين المسلمين والمسيحيين عهودا ومواثيق ، ربطت بين قلوبهم على امتداد التاريخ ، ويجب أن تصان ٠

يقول « أحمد محرم » : (٢)

يا أمــة القبط والأجيال شاهدة … بما لنـا ولكم من صادق الذمم
لا تظلموا الدين ٠ ان الدين يأمرنا … بما علمتم من الأخـلاق والشـيم
صـــونوا العهود وكونوا أمة عرفت … معنى الحياة فلم تعسف ولم تهم

ويقول من قصيدة له يذكر الأمة بما كان بين المسلمين والمسيحيين على عهد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من وشائج القربى وعلائق الود ، وينوه بهدية « المقوقس » الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم :

كذب الوشاة واخطـــأ اللوام … أنتم أولو عهد ونحن كـــرام
حب تجد الحادثات عهـــوده … وتــزيد فى حـــرماته الأيـــام
وصـــل المقوقس بالنبى حبـــاله … فاذا الحبـــال كأنهـــا أرحـــام
وجرى عليه خليفــة فخليفــة … وامــام عــدل بعــده فامــام (٣)

★★★

وأيا ما كان الأمر ٠ فتلك أهم الأفكار الاسلامية التى ارتكز عليها الشعراء فى دعوتهم الى الوحـــدة الوطنيـــة ، والى الاخاء الاجتمـــاعى بين المسلمين والمسيحيين ٠

---

(١) ديوان عبد المطلب ، ص ١٠٦ ٠
(٢) ديوان محرم : جـ ٢ ، ص ١١٤ ٠
(٣) ديوان احمد محرم : جـ ٢ ، ص ١١٩ ٠

وقد أدى الشعر المحافظ دوره فى هذه المحنة الوطنية فهدأ النفوس وطيب الخواطر ، وآخى بين المسلمين والأقباط ، وحبب اليهم الاتحاد والتسامح وكره اليهم الاختلاف والتعصب ، وذكرهم بأواصر القربى ، وروابط التاريخ ·

وبعد :

فثمة ملاحظات عامة حول موقف الشعراء المحافظين من قضية السيادة الوطنية المصرية ينبغى أن أشير اليها فى نهاية هذا الفصل :

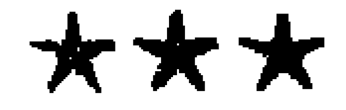
أولها : أن اتجاه الشعراء المحافظين نحو العمل على تحقيق السيادة الوطنية بالمشاركة فى قضايا الحرية والوحدة ، ومقاومة الاستعمار · هو اتجاه اسلامى عام :

بمعنى أن الاسلام ـ بصفة عامة ـ يكفل هذه الأهداف النبيلة للشعب ويسعى الى تحقيقها ·

ثانيها : ان ما ورد فى شعر المحافظين من أفكار تتصل بالاسلام فى معالجتهم للقضايا الوطنية هى أفكار صحيحة من الوجهة الاسلامية ·

ثالثها : أن الشعراء المحافظين لم يكن لهم خط اسلامى متميز يصدرون عنه فى تناولهم ـ للقضايا الوطنية ـ أو غيرها ـ وانما كانت لهم أفكار اسلامية عامة ، ربما كانت أقرب الى الثقافة منها الى العقيدة ومن ثم كانت هذه الأفكار الاسلامية تظهر أحيانا ، وتختفى أحيانا أخرى ، وقد تظهر أفكار لا صلة لها بالاسلام ، وفى شعرهم أمثلة لكل ذلك ·

رابعها : أن الشعر المحافظ فى مصر قد أدى دوره فى معركة النضال الوطنى من أجل الحرية والاستقلال · وكان للأداء الفنى الذى تميز به الشعر المحافظ أثره فى نفوس الجماهير التى استمعت اليه وانفعلت به ورددته فى مناسباتها الوطنية لأنه يعبر عنها ويحكى آمالها وأمانيها ·



الباب الثانى

الاتجاه الاجتماعى

● ويشتمل على فصلين

الفصل الأول :

الحياة الاجتماعية فى مصر
تصوير عام

الفصل الثانى :
الدعوة الى الاصلاح الاجتماعى

الفصل الأول

الحياة الاجتماعية فى مصر :
تصوير عام

عن عصر الثورة الفرنسية يقول « شارلز ديكنز » :

« انه كان أحسن الأزمان وكان أسوأ الأزمان ، وكان عهد اليقين والايمان ، وكان عهد الحيرة والشكوك . كان أوان النور ، وكان أوان الظلام » (١) .

وهذا الوصف لعصر الثورة الفرنسية يكاد يكون منطبقا على هذه الفترة التاريخية التى مرت بها مصر فيما بين نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين حين كان المجتمع المصرى يجتاز برزخا من المتناقضات والمفارقات بين ما هو قديم وما هو جديد ، بين ما وفدت به المدنية الغربية من أفكار وتقاليد وما احتفظ به الشرق العثمانى من عادات ومعتقدات .

وفى مفترق الطرق وقف المجتمع المصرى بين الوافد والموروث يستجيب تارة لهذا وتارة لذاك ، وقد يستجيب لهما معا : « فترى الرجل يلبس اللباس الشرقى من عمامة وقباء ، أو طربوش وجلباب ، ويتحدث فى التليفون المصنوع فى انجلترا ، ويحمل ساعة مصنوعة فى سويسرا ، وفى البيت سجادة عجمية وحصير بلدى ، وراديو أمريكى ، وفى المجلس الواحد حديث عن قوة السحر والتعاويذ ، وحديث عن نظرية « دارون »

---

(١) عبد الحى دياب : **عباس العقاد** ناقدا ، ص ٧١ .

فى النشوء والارتقاء ، ونظرية « أينشتين » فى النسبية وفى الناس من يمجد كل جديد ويكره كل قديم ، وهكذا وهكذا . والعنصران يعملان فى كل أمة شرقية وان اختلف مقدار كل عنصر فى طبقاتها المختلفة .. » (١) .

★★★

هكذا كانت الحيـاة المصرية فى هـذه الفترة تضطرب بين تيارين أساسيين : جديد طارىء ، وقديم موروث ...

أما الجديد الطارىء فقد عرفته منذ قوى اتصالها بالغرب عن طريق البعثات العلمية وغيرها من وسائل الاتصال التى كان الاحتلال البريطانى أوسع قنواتها ففى ظل هذا الاحتلال كثر اختلاط المصريين بالأجانب فانتقل الى الشعب كثير من أخلاق الاحتلال وعاداتهم وتقاليدهم ما يحمد منهـا وما لا يحمد ، وعملت الحالة النفسية عملها ، فانقاد المغلوب للغالب ، وتبع الضعيف صاحب السلطة ، واندفع المجتمع فى طريق التقليد لكل ما هو أجنبى ، مأخوذا بحضارة الغرب ، منبهرا بأضوائها ومادياتها ، وكان الأتراك هو أول من سلكوا مسلك الأوروبيين وحاكوهم ، ثم تبعهم المصريون فأخذوا عنهم حيـاة الترف ، فجلس الأغنيـاء الى الموائد ، واستعملوا الشوكة والسكين واستخدموا الأطبـاق والأكواب ، وأقداح القهوة (والفناجين) ، واتخذوا الأسرة المزينة ، ووضعوا عليها الكلات ، لتقيهم شر البعوض ، ولبسوا الجوارب والقفافيز ، وغير ذلك من أنواع الملابس والأنسجة وأدوات المنزل المختلفة (٢) .

وأخذ المترفون من الأغنياء يتهافتون على ما تخرج المصانع الأوروبية من وسائل الترف حتى غدت توافه الكماليات من ألزم الضروريات ، وأصبح قصارى ما يبلغه أحدهم من التمدن ، أن يتقن تقليد الأوروبيين فى استعمال أدوات المائدة الأوروبية ، وأن يحسن حفظ أساليبهم فى استعمال الملابس والتمييز بين ما ينبغى أن يستعمل منها فى مختلف المناسبات ، وأن يحسن استقبال النساء والتودد اليهن ، والتلطف فى معاملتهن ، وأن يعود من سفرته السنوية الى أوروبا حيث يقضى شهور الصيف ليتبجح فى ندوات الفارغين بمغامراته ويدير لسانه بألوان من الرطانات ثم يرسـل أبناءه وبناته إلى المعاهد الأجنبية مباهاة بقدرته على الانفاق ، واتماما لما يريد أن يسبغ على نفسه وعلى بيته من جو أوروبى خالص يظن أنه المقياس الحق للمدنية الصحيحة وللتقدم والرقى (٣) .

---

(١) أحمد أمين : زعماء الاصلاح فى العصر الحديث ، ص ٣٤٤ .

(٢) راجع : المنـار ، ج ٢ ، ص ٥٥٥ .

(٣) د. محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ، ج ٢ ص ١٨٧ .

وبذلك أصبح « المثل الأعلى للمصرى فى حياته المادية انما هو المثل الأعلى للأوروبى فى حياته المادية ، نتخذ من مرافق الحياة وأدواتها ما يتخذون ونتخذ من زينة الحياة ومظاهرها ما يتخذون . نفعل ذلك عن علم به وتعمد له ، أو نفعل ذلك عن غير علم وعلى غير عمد . ولكننا ماضون فيه على كل حال وليس فى الأرض قوة تستطيع أن تردنا عن أن نستمتع بالحياة على النحو الذى يستمتع به الأوروبيون .. مدت أوربا الطرق الحديدية وأسلاك (التلغراف والتليفون) فمددناها ، وجلست أوروبا الى الموائد ، واتخذت ما اتخذت من آنية الطعام وأدواته وألوانه فصنعنا صنيعها ، ثم تجاوزنا ذلك الى ما اصطنع الأوروبيون لأنفسهم من لباس ثم تجاوزنا ذلك الى جميع الأنحاء التى يحيا عليها الأوروبيون فاصطنعناها لأنفسنا غير متخيرين ولا محتاطين ، ولا مميزين ما يحسن منها وما لا يحسن وما يلائم منها وما لا يلائم .. ».(١)

★★★

الى هذا الحد اندفع المجتمع فى طريق التقليد للأجنبى ، واختلفت حدة الاندفاع ـ بطبيعة الحال ـ من طبقة الى أخرى تبعا للظروف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لهذه الطبقة أو تلك . المهم أن المجتمع قد سار فى طريق التقليد للحضارة المادية الأوروبية . ولمس آثارها النافعة وأفاد منها فى كثير من مناحى حياته وشئون معاشه ولذلك تقبلها فى سهولة ويسر .. ولكن الأهم من ذلك أن هذه الحضارة المادية النافعة لم تكن خيرا خالصا ، وانما كانت مزيجا من الخير والشر . فقد حملت هذه الحضارة المادية فى ركابها كثيرا من المباذل والمفاسد وألوان الانحراف ، وأصاب الناس من ضررها وخطر نتائجها أكثر مما أصابهم من خيرها ونفعها حتى لقد أثار ذلك اشفاق المصلحين فأخذوا ينبهون الأمة الى أثر هذه المفاسد فى قتل العواطف وأمانة الأحساس واستمراء الخطأ ، وانتشار الانحراف وضياع الأخلاق .

فيقول « عبد الله النديم » عن أثر الأوروبيين فى افساد أخلاق المصريين وتقاليدهم مما أدى الى إنحلال الشخصية وموت الكرامة :

« **قالت أوروبا : ان وقوفكم على عاداتكم وتخلقكم بأخلاق آبائكم بقاء على الهمجية والتوحش ، فلابد من مجاراتنا فى حركاتنا المدنية لتساوونا فى الرتبة ، وفتحت لنا البير ، والخمارات والمقامر ، وأباحت**

(١) د. طه حسين : مستقبل الثقافة فى مصر ، ص ٣٠/٣٢ .

الزنا والقمار ، ووسعت دائرة اللهو والخسران ، فغفل الشرقيون عما وراء ذلك من ضياع الدين والملك ، والمجد والشرف وانكب الأغنياء والمغفلون على الخمور فساءت أخلاقهم وضعفت عقولهم ، وفسدت عقائدهم وتحولوا الى المومسات ، فارتكبوا الاثم بارتكاب المحرم ، والعار باتخاذهم الوطنية آلة للفحش ، وجعلها عرضة للأجنبى بعـدم غيرتهم عليها فهم فى رتبة القواد (جمع قواد) بل هم هم ومال فريق الى القمار ، فباع الغيط والدار ، واضطر لبيع حلى زوجته برضاها أو بسرقته منها ، والكل عطف على المرابين يقترض ويصرف فى الملاهى ومتلفات العقل والجسم والملك » (١) ٠

ويقول « محمد طلعت حرب » (٢) عن أثر الاختلاط بالأجانب فى اشاعة الفجور وضياع الآداب :

« لما حصل الاختلاط بيننا وبين الأجانب بتداخلهم فى بلادنا بالتجارة والتغلب وباسفارنا فى بلادهم ٠ فسدت أخلاق الرجال والنساء بما دخل من مسمى المـدنية الغربية حيث دخل الشرق الكثير من نسائهم البغايا وفتحت المحلات جهـارا وتعرضن للشـبان والكهول فى الطرقات وتزين بأحسن ما يمكنهن وخرجن يعرضن أنفسهن على المارة فى الطرقات فاستلبق عقول الشباب ثم جذبن ضعفاء العقول ، وما زال الفساد يترقى من صورة الى أفظع منها حتى فسدت أخلاق كثير من النساء الشرقيات ، فأخذن نساء الشرق يتجرأن على الخروج من البيوت سرا ، ثم تظاهرن فخرجن جهرا ، ثم تمادين حتى صارت المرأة تترك زوجها ، وتفتح لها محلا فى بلده أو حارته ، وانتهى الأمر بشرب النساء الخمر فزاد التهتك ، وضاعت أعراض كثيرة ، وافتضحت مخدرات ، وذهب مجد بيوت عالية بخروج بعض نسائها لهذا الأمر الشنيع ، ثم ترقى الفجور الى أن صار النساء يحضرن مجالس اللهو ، ويذهبن الى التياترات ويشربن الخمـور وهن بحضرة رجالهن ، وصار الرجل لا يأمن أخاه على زوجته ، والجار لا يخاف الا من جاره ، ووقعت الشبهة على كل مار فى الطريق ، وأصبح أصحاب الأعراض النقية فى حروب شديدة بما يقاسونه من السعى خلف الصيانة والحفظ والخوف من الانحدار فى هذا التيار القبيح ، الذى جرف البيوت المقفلة على من فيها فهدم اسوار صيانتها ، وزلزل أركان عفتها ، وترك من كان فيها كالدر فى الصدف متبذلا بين الناس معرضا للفساد ٠٠ » (٣) ٠

★ ★ ★

(١) عبد الله النديم : مجلة الاستاذ ، عدد ١٧ يناير ١٨٩٣ ٠

(٢) محمد طلعت حرب : تربية المرأة والحجاب ، ص ٩٥/٩٦ ٠

(٣) محمد طلعت حرب : المرجع السابق ، ص ٩٦ ٠

وقد عمل الاستعمار على اشاعة ألوان الفجور بين المصريين قصدا لحل عروة الدين ، وازاحة القيم الاسلامية عن مكان الصدارة فى نفوس الشعب وابتغاء قتل العواطف الزاكية ، واماتة الأحاسيس النبيلة ، حتى تستمرىء النفوس المهانة فيمضى الدخلاء الى أهدافهم آمنين غيرة القيم وحمية الدين لأن الفحشاء تقتل العواطف وشيوعها يميت الاحساس . ومن ثم كانت « آلة الدخلاء التى يستعينون بها على نيل مقاصدهم من الأمة هى اعدام العواطف ، ونزع الحاسيات من القلوب ، وهذه الآلة من أقوى العوامل على حط الأمة من علوة مكانتها وغارب مجدها ، اذ بواسطتها يسرى فى القلوب والأرواح سم تسامح الحكومة فى انشاء معاهد الفساد ومدافن العواطف وقبور المستقبل كقهاوى الرقص والغناء وغيرها من الأماكن العمومية التى يحكم الطبع السليم بشناعة ما يمر فيها من الحوادث » (١).

وقد أظهرت التجارب للمستعمر أن أكثر الوسائط تأثيرا وفعلا هو ما كانت نتيجته الانحدار مع تيار الأخلاق الفاسدة والوقوع فى مهواة الجهل والخمول كالتهاون فى انشاء الأماكن العمومية التى تمثل فيها أدوار الفجور والفسق برقص العاهرات ، وحركاتهم الفاحشة التى تجفل من الاقبال على مشاهدتها الجبلات الطاهرة والنفوس الزكية » (٢) .

وكان جيل الشباب أكثر استجابة لمغريات الحضارة الأوروبية ، فاندفع فى تيارها مأخوذا ببريقها مفتونا بما تيسره له من ارضاء النزوات وارواء الغرائز وراح يحذو حذو الأجانب فى مجونهم واستهتارهم وترفهم وتأنقهم فى الملبس والزينة وتخنثهم وتأنثهم . وفى هذا يقول « محمد كرد على » (٣) يصف تخنث الشباب بدعوى التمدن : « شبابنا يتأنقون فى الزينة فيصففون شعورهم ويخففون خدودهم ، ويفتلون سبلاتهم ، وينغمون بأصواتهم ، وربما مزجوا كلامهم ببعض الألفاظ الأفرنجية ، ويختارون من الألبسة آخر زى : من صدرة ملونة محزمة صنعت من القطيفة المزركشة ، وسترة مشقوقة ، وسراويل ضيقة وخاتم ماس فى اليد ، وعصا عقافتها من الذهب ، وحذاء ملون ملمع ،وطربوش مقرون مكوى ، وبالجملة كل ما فيه ظاهر مموه .. وناهيك بأن من شبابنا من يصرفون ساعتين كل يوم فى التبرج كأنهن بعض النساء يتزين لبعولتهن ، وهذا مما يسجل علينا ضعف النظر فيما اقتبسناه من عادات الغربيين » .

★★★

---

(١) د. حلمى مرزوق : **تطور النقد والتفكير الأدبى الحديث فى مصر** ، ص ٣٧ ، نقلا عن : محمد مسعود : **لباب الآداب** ، ص ١٢٦ .

(٢) **المرجع السابق** : ص ١٢٤ .

(٣) محمد كرد على : « **القديم والحديث** » مقال : « التمدن الانثوى » ص ٢٨٣ .

ومضى الشباب ــ الا قليــلا منهم ــ يتبع الآثار السيئة لحضــارة الغرب الوافدة يدفعه الى ذلك جهله بدينه ، وحبــه للتقليد ، ومعاصرته للأجانب المنبثين فى أرجاء البلاد • فشرب الخمر حتى سكر ، ولعب القمار حتى افتقر فخربت بيوت كثيرين وأمسى غيرهم على شفا الافلاس وامتدت العدوى الى كل طبقات الناس (١) •

يقول صاحب كتاب « حاضر المصريين أو سر تأخرهم » : (٢)

« ومن الآفات العظيمة أيضا انصراف الأمة الى المسكر واندفاعها فى الشرب وتعاطى الخمور حتى أصبح السكر زينة الفتيان ، والحانات أعز مقاعد الشبان ، والمصرى بميله الى الافراط فى كل شىء سبق غيره فى ميدان الخمور فلم يبق مالا ولا ترك صحة ، وجهله لدينه وتقليده للأجنبى فيما يضر ولا ينفع أسباب مكنت فيه حب الميل الى الخمر •• ومعــاصرة الافرنج المبعوثين فى أطراف البلاد شرقا وغربا ساعد على انتشار الخمر بما لهم من طرق الخداع والحيل حتى اعتاد اغلب الفئة الوسطى من الأمة على شرب « المستكى » ظهرا ، و « البيرة » عصرا ، و « الكنياك » مساء فتراهم جماعات فى الحانات عاكفين على شربها لتمسكهم بأهداب مخازى التمدن والحضارة الغربية » •

تلك بعض الآثار السيئة للحضارة الوافدة وللأجانب الذين أخذوا فى ظل حماية الاحتلال يتصدرون المجتمع ويزاحمون طبقاته العليا حتى أصبحت لهم مكانتهم فى قمة التنظيم الاجتماعى ، وأخذوا منها يبثون قيمهم فيمن حولهم من المصريين (٣) •

★★★

وكان من أخطر آثار المدنية الوافدة أنها زعزعت ثقة الكثيرين من المصريين فى أنفسهم وفى قيمهم وعاداتهم وتقاليدهم • حتى لقد وقر فى النفوس أن كل ما يفعله الأوروبى حسن ، وأن كل ما ورثناه من عادات هو من بقايا الهمجية ومن مخلفات عصور البلادة والخمول ، وكان من مظاهر هذا الوهم الذى استبد بالناس وبلغ حد المرض أن أصبح جهل

---

(١) محمد سيد كيلانى : ترام القاهرة ، ص ٢٩ •

(٢) محمد عمر : حاضر المصريين أو سر تأخرهم ، ص ١٩٢/١٩٣ •

(٣) د• حلمى مرزوق : المرجع السبق ، ص ٢٨ •

الواحد منهم بما تواضع عليه الأوروبيون من آداب الاجتماع التى يسمونها (الاتيكيت) يعتبر ضربا من سـوء الأدب والانحطاط الذى يحرج صاحبه ويخجله بين الناس وأصبح الذين يجاهرون بالافطار فى رمضان ، والذين يشربون الخمر على قارعة الطريق ، والذين لا يستحون من جهلهم بقواعد دينهم وقواعد لغتهم وتاريخ وطنهم ، يتصبب وجه أحدهم عرقا لأنه أساء استعمال أدوات المائدة الأوروبية أو لأنه أخطأ فى اختيار الثوب الذى يوافق المناسبة حسب ما تواضع عليه الغربيون » (١) ·

ويبدو أن المجتمع المصرى فى هذه الفترة كان مهيئا من الناحيـة النفسية لتقبل ما يملى عليه من أفكار وعادات دون نظر أو روية · ذلك لأن ما توالى عليه من عهود الاستبداد وألوان التسلط قد أورثه قبول الذل وطبع حياته بطابع الخضوع فألف الواقع ، وأخلد الى الراحة والاستسلام والتواكل ، وشاعت بين طبقات الشعب تعبيرات تعارفوا عليها لتسويغ كسلهم وتواكلهم ، وفشلهم فيما يقومون به من أعمال من مثل قولهم : « ماذا أصنع ؟ » ·· « ما باليد حيلة » ·· لعل ·· لو (٢) كذلك افتقد المصريون كثيرا من شجاعتهم الأدبية ، وقيمهم الخلقية ، فشاع بينهم الجبن والصغار ، والرياء والنفاق حتى غـــدا النجـاح لدى الكثيرين مرهونا « باجادتهم للملق والدهان ، والرياء والنفاق ، والضعة ·· والمكر والتطفل، وارتقاب الفرص الوضيعة ، واتخاذ كل وسيلة مهما كانت دنيئة لاكتساب ثقة الناس واظهار الحاجة اليهم ، والتذلل لهم ، والتهافت عليهم واخفاء مقابحهم مهما عظمت ، أو اظهارها فى مظاهر المحامد والفضائل » (٣) وفى ظل هذا الصغار والضعف تنمرا لأجنبى وتطاول واستعلى بما ملكت يداه من مظاهر الحضــارة والمـدنية مطمئنا الى سلطة الاحتـلال ، وامتيازات الأجانب من ناحية والى بلادة الرأى العام واستخذائه من ناحية أخرى ·

★★★

ومهما يكن من أمر · فقد شكلت هذه المفاسد الخلقية مع غيرها من مخازى المدنية وآثارها السيئة جزءا كبيرا من سلوك المجتمع المصرى فى هذه الفترة ·

وقد صور الشعر المحافظ فى مصر جانبا من هذه المفاسد الخلقية والآفات الاجتماعية التى زحفت الينا فى ركاب الغرب أو بوحى منه وتحت

---

(١) د· محمد محمد حسين : **المرجع السابق** ، جـ ، ص ١٩١ ·

(٢) عباس العقاد : **خلاصة اليومية** ·· ص ٦٤ ·

(٣) عبد الحى دياب : **عباس العقاد ناقدا** ص ٦٩ · نقلا عن : اعترافات شـكرى ص ٤٢ ·

تأثيره وانتقدها في سخرية لاذعة ومن هذه الآفات الاجتماعية التى صورها الشعر المحافظ : آفة التخنث التى اجتاحت الشباب فى مصر فأفسدت أخلاقهم وشوهت طبيعتهم . وقد أثارت هـذه الآفة غضب « الرافعى » فأنحى باللائمة على التمدن الأنثوى ونعى على الشباب تدللهم ، ومجونهم ، وانغماسهم فى اللهو والزينة واخلادهم الى الراحة والكسل ، وانصرافهم عن ماجد الأعمـــال ، وســوء فهمهم لحقيقة التمدن ، وانخداعهم ببريق الحضارة الزائف ، واصطناعهم لمظاهر النبل الكاذب . فقال :

أرى فئـــة كالغانيـات تدللا … تميـــل مع الأهـواء كل مميل

تخال الفتى منهم على ظلمة النهى … لألوان ثوبية ســـماء أصـــيل

ملول كما شـاء الهوى واقتداؤه … بمن حــــوله من خـلة وخليل

وما مجـد الأعمـال يومـا وانما … ليستحسنوا فيـه دلال ملول

وظن الفتى أن التمـدن أنثوى … فتابع فيـه كل ذات حليل

تماجن فى أشكالها من مصبغ … الى كل مجلو وكل صــــقيل

الى اللفظ حتى ما تكاد شفاهه … تبين بلفظ منـــه غير نحيـل

الى اللحظ حتى ما تكاد جفونه … تطارح لحظا منه غـــير عليل

دلال جميـل بالجمـال مهنـــا … فآه عليــه من دلال جميـــل

أولئـك هـم شبابنا لو عرفتهم … وهـم كل من فى مصر غير قليل

مظاهر نبل نافقوا فى اصطناعها … الا قبحت من صنعة لنبيـل(١)

ويقول من قصيدة له تحت عنوان (شبان اليوم) يصف الشباب بالتطرى والخلاعة والتشبه بالنساء :

فيـــا للـــه أى فتـى أراه … كما انعطفت بشاربها الخمور

كأن قـوامه أغصـــــان بان … تفتح فـوق عــروته الزهور

كأن ثيـــابه شـــدت عليه … كما لبست من الريش الطيــور

فتحسب قده فيهن خصــــرا … وتحسن فى المشـدات الخصــور

كأن الحـلى يبـرق فى يديه … لتكمـــد فى تلألئـه النحـــور

ألا ابقوا الحجاب على الغوانى … قد اشتبه الحمائم والصـقور (٢)

---

(١) المؤيد سنة ١٩٠٨ . وراجع : محمد كرد على : القديم والحديث ص ٢٨٣ ، مقال « التمدن الانثوى » .

(٢) ديوان الرافعى : جـ ٢ ، ص ٣٩ .

ويقول فى أخرى يتعجب من تشبه الرجال بالنساء فى هذا العصر : (١)

تساووا فهذا بينهم مثل هذه   وسيان معنى يافع وكعاب
وما عجبى أن النساء ترجلت   ولكن تأنيث الرجال عجاب
رجال غير أن لهم وجوها   أحق بها لعمرهم النقاب

★★★

ويبكى « النشار » فساد الزمان وانصراف الناس الى حياة اللهو تحت شعار التمدن فيقول :

فسد الزمان وأهله   يا رب نسألك السلامه
هذا تمدين معشر   جعلوا الفجور له علامه
من كل مياس القوا   م له على الخدين شامة
يهتز أعجابا كما   هزت معاطفها الحمامه
يأتى الصباح ولم يدع   فى غير زينته اهتمامه
ويطل فى المرآة هل   فى الحسن قد وفى نظامه
ويظل ينظر خلفه   حينا وآونة أمامه (٢)

★★★

ومن المفاسد الخلقية التى صورها الشعر فى هذه الفترة : تبرج النساء ، وابداء زينتهن بما لا يتفق وخلق الوقار ، وأدب الشريعة ٠ على نحو ما يقول « عبد المطلب » يصف تبذل المرأة واستهتارها وتبرجها :

ما لابنة الخدر المصو   ن وربة المجد الاثيل
أودى شفيف نقابها   بكرامة الام البتول
وانجاب جيب قميصها   عن وصمة الشيخ البجيل
وعلا رنين حجولها   أسفا على الذيل الطويل

---

(١) ديوان الرافعى : جـ ٢ ص ٤٦ ٠
(٢) ديوان النشار : جـ ٣ ، ص ٣٤ ٠
(★) البيتان الأولان من بحر الطويل ، والثالث من بحر الوافر ٠

فإذا مشت هتك النقـا ب محاسن الوجه الجميل
وجلا المقـود تحتـه رخصا من الصدر الصقيل
تهتـز عجبـا يا للقـوا م اللدن والخصـر النحيـل
فى خـيلع خـلع الوقـا ر فبـان عن زند فتيل(١)
ولقـد ينـم عبـيرها فتحسـه من نحـو ميـل
يسـرى فتعتـرك الصـبا سبقا اليـه مع الشمول (٢)
ترتاد خائنـة العيـو ن بلحظ فاتنـة قتـول (٣)

★★★

ويصف الشيخ « حسن الغاياتى » تبرج النساء وقد خرجن الى الأسواق والأماكن العامة سافرات متبرجات يبدين زينتهن للعيون فيقول من قصيدة له :

فداؤك يا (احسان) كل دميمة تروح بخد بالطلاء دهـين
وينهـد منها كلما هبت الصبا رزين من الأكفال غـير رزين
وتهـدى جميـع الناس نظرة وامق أكل بنى حواء شـخص مكين
لها حاجب لم يبدع الحسن نونه فجادت عليه الصابغات بنون
ووجه هو المرآة غطى بياضه على أسـود خلف البياض كنين
ثنى قبحها عنها العيون فنبهت بوسـواس حـلى فوقها ورنين
جفـا اللين عطفيها فحاكت تكسرا تلوى مجـلود الجنـوب مهـين
شرت حسنها زورا وراحت غبينـة ولا ينثنى بالزور غـير غبـين

ثم يتجه بالنصيحة الى أبناء مصر فيحذرهم مغبة هذا السلوك المهين فيقول :

بنى مصر أوليكم نصيحة مخلص أمين من النصـاح غـير خؤون
حـذار حـذار أن تصاد ظباؤكم فيرتد ذاك الحسن غير مصـون
أما ساءكم أن تبصروا خصر عاتق نسيبه قـوم فى ذراع هجين
غدت لا غدت والعرض كالماء طاهر ثمين وراحت وهو غـير ثمين

(١) الخليع : قميص لا كمى له .
(٢) الشمول : ريح الشمال .
(٣) ديوان عبد المطلب : ص ١٨٤ .

الى أن يقول :

جدير بكم أن تتبعوا الدين انه   قمين بمسح الداء أى قمين (١)

★★★

كذلك صور الشعر المحافظ آفة القمار التى انتشرت بين المصريين فخربت بيوتهم وأورثتهم حياة البؤس والمهانة وفى ذلك يقول شوقى :

ضربت بالمضـاربين الطبـــول   حيث كل بأمـــره مشـــغول
كل يـــوم يمضى غنى وجيـه   وعـلى اثره ســـرى جليـــل
ويبيع الأثاث من ليس بالمث   رى ولكن حدا به التطفيـــل
كان مـن ثـروة قليـــل   بعـد عـام يزول ذاك القليل
ذهب النقـد والعقـار جميعا   يا سراة البـلاد أين العقول ؟
ليس بين الغنى والفقـر الا   قـوله الشؤم من وسيط يقول (٢)

★★★

ويلتفت « حافظ ابراهيم » الى هذه العادة السيئة وقد استشرت بين الكثيرين من أفراد المجتمع فيهيب بالشعب أن يبتعد عنها لانها وبال على أصحابها الذين يلهيهم المكسب كمـا يتصـورون ، ولكنهم لا يقبضـون الا الوهم (٣) فيقول :

مضـــاربات هـى المنـــايا   ورسـلها أحـرف البــروق
صـبوح أصـحابها الرزايـا   ومالهم دونهـا غبـــوق
قـد أتلفـت أنفس البرايـا   بأسـهم الغـدر والعقـــوق

---

(١) ديوان حسن الغاياتى : ج ١ ، ص ٥ .

(٣) محمد سيد كيلانى : ترام القاهرة ، ص ٢٩ .

(٢) د. محمد عويس محمد : الواقع الاجتماعى فى شعر حافظ وشوقى . مقـال بمجلة فصول المجلد الثالث ص ٢٥٤ سنة ١٩٨٢ .

كـم بالة سـببت وبـالا واشبهت لامـع السـرابا
وبـذرة أنبتـت خبـالا وأثمـرت عاجـل الخـراب
وكـم غنـى أضـاع مـالا وشـاب من موقف الحساب

★★★

فليتعظ منـكم البعيـد وليتـق اللـه ذو الثـراء
فذلك التـاجر الشـهيد قـد عاف من أجلهـا البقاء (١)

★★★

ويقول « المصرى » يصف لعب القمار والميسر ، وما يجره على صاحبه من حزن وندامة ومايؤدى اليه من فقر قد تهون تحت وطأته الأعراض : (٢)

ميـدان أحزان وجنـد ندامة وجيـاد خسران تغيب وتحضر
ما زال يبتذل اللهى (٣) وبنفسه لـو أنهـا ردت اليه فيقتر
حتى اذا صفرت يداه وجيبـه رهنت حـلاه وداره والمئزر
ورأوه لم يملك من الدنيا سوى عرض اذا هو باعه لم يشتروا
والعرض تجعـله البطون تجارة تشـرى فتربح أو تباع فتخسر

ثم يصف حال صبيته وقد بكوا من شدة الجوع ، وألحوا فى طلب الطعام ، وأنحوا باللائمة على أبيهم الذى جنى عليهم بما فعل فيقول :

وجرت حواليـه مدامع صـبية لا الصبر يشبعها ولا هى تصبر
الجـوع يخفت صوتها ان أوشكت تدعو : أبى · أمى · ألا من يعذر ؟
قوما أطـرقا باب التسول واجلدا سبحان جبـار يعـز ويقهـر
(هـذا جنـاه أبى على) وقلمـا يجنى الكبير على الصغير ويكبر

---

(١) ديوان حافظ ابراهيم : جـ ١ ، ص ٢١٤ ـ ٢١٥ ·
(٢) ديوان المصرى : جـ ٢ ، ص ١١ ·
(٣) اللهية : الحفنة من المال أو الألف من الدنانير أو الدراهم ·

ثم يتوجه باللوم الى المقامر فيقول :

أغرقت فى استغفار ربك فاذكر عصـيان ربك أيهـا المستغفر
واضـعت دين الله اصغارا له فأضاعك الدين الذى لا يصغر
فانزل بقبـر الفقـر غير مودع فالفقر مقبـرة بنـاها الميسر (١)

★★★

ويحكى « النشار » قصة « قتيل الميسر » (٢) الذى انتهت حيـاته بالانتحار بعد أن يئس من العيش ، وضاقت به أسباب الحيـاة التى ضيعها بين الكأس والميسر ، فنفد ماله ، وانفض عنه أهله وذووه . فلما أدركه الندم ، رأى نفسه جديرا بالعدم . فيقول بعد أبيات يصف فيها رفاق السوء وقد زينوا له الفساد حتى أوغل فيه :

خسر الآلاف من بعـد المئـات وأبادت ماله أيدى الشـتات
فصحا المخمور من طول السبات مدبرا فى اثـر حظ أمـدبر

★★★

كل يـوم فى خسار وتبـاب عيشـه المـر عـذاب فى عـذاب
قامر المسكين حتى بالثيـاب وبدا نضـوا زرى المنظـر

★★★

صد عنه الأهل واستغنى الرفاق انمـا الدنيـا نفـاق فى نفـاق
والفتى ان عاش عيشا لا يطاق فهـو فيـه ميت لم يقبـر

★★★

قال لما ان رأى الأمر احتـدم وتولاه ما يغنـى النـدم
أنا واللـه جـدير بالعـدم وعـرته جنـة المنتحـر

★★★

رن صـوت الطلق فى سمع النيام وانتقى عنهم به صفو المنـام
وتنـادوا تحت أذيال الظلام أنظروا : هـذا قتيـل الميسر

★★★

---

(١) ديوان المصرى : جـ ٢ ، ص ١١ .

(٢) ديوان النشار : جـ ٣ ، ص ١٦ .

وكانت الخمور والمسكرات بعض ما شاع فى هذا العصر من المفاسد التى رأى فيها بعض ضعاف العقول والدين مظهرا من مظاهر المدنية • فعكفوا عليهـــا حتى امتــلأت بهم الحـــانات وفاضت بهم أماكن الســكر والتسكع •

وقد وقف الشعر المحافظ من هــذه الآفة موقف الذم والانكار • فقبحها وعدد مساوئها • يريد صرف الناس عنها لما لها من آثار سيئة ونتائج خطيرة ومن ذلك ما يقوله « الرافعى » يذم الخمر ، ويبين ســوء أثرها على العقل والارادة والصحة والمال :

بين الكؤوس وبين الأعين النجل ... سوق لبيع الهوى والموت والعلل

نقودها قبل،ان شئت من ذهب الكا ... سات فى الفم أو من فضــة الغزل

أما ترون فلا عقل ولا جـــلد ... صوت الجفون رنين الكاسات والقبل

اليوم تنعق فى الاطلال منذرة ... بالشؤم • والخمر فيهم بومة الأجل

والخمر من حيل الفقر المذل فهل ... أذل ممن يريد الفقر بالحيل (١)

★★★

ويعدد « النشار » مساوىء الخمر فى قصيدة له بعنوان « أريقى الكأس » (٢) فيقول مخاطبا امرأة تغريه بكأس من الخمر :

أريقى الــكأس لا تدنيه منى ... فلست أظنـــــه الا حمـــــاما

أأرضى جنـــــة • فأبيـــع عقلى ... لأشــترى الطـــلا جاما فجاما ؟

وأبـذل درهمى ونفيس مـــالى ... لأكتســـب المـــذلة والمـــلاما

وأمشى فى الطـــريق ومن ورائى ... أرى الصبيان تزدحـــم ازدحاما

فيضـــحك حين يبصرنى عدوى ... ويذرف ذو الوفا ، دمعا سجاما

★★★

ولم تكن هذه الآفات الاجتماعية هى كل ما شاع فى المجتمع المصرى بتأثير الأجانب وتحت رعاية الاحتلال • بل كانت هناك آفات اجتماعية أخرى ، كأن الاحتلال عاملا فيها ، ومن هذه الآفات : آفة التواكل والكسل، واختــلاف الآراء وتشعب الأهواء والأنانية ، وتقديم المنــافع الشخصية والمصالح الذوية على مصالح الآخرين •

---

(١) ديوان الرافعى : ج ٣ ، ص ٢٣ •

(٢) ديوان النشار : ج ٣ ، ص ٧٥ •

ذلك الى جانب الكذب والادعاء والنفاق وغير ذلك من أخلاق الاحتلال وآثار الاستبداد والتسلط التى أورثت المجتمع كثيرا من ألوان الصغار والضعة ، والتى حاول المصلحون جاهدين ازالة آثارها . وكان للشعر المحافظ دوره الايجابى فى استئصال كثير من هذه الآفات الخلقية عن طريق النقد الاجتماعى ومواجهة الفساد فى علانية تكشف زيفه وتشل فاعليته وانتشاره .

استمع الى « الرافعى » يحذر من آفة الكسل والتواكل ، ويسخر من جهل الكسالى والمتواكلين :

هدم الشعوب صوامع الكسل عمرت وما برحوا من النساك
متواكلين وكل أمرهم أن الأ مر بين الله والأملاك (١)

ثم استمع الى « حافظ ابراهيم » ينعى على الشعب تواكله حتى زاحمه الأجانب فى رزقه لأنهم وجدوا فى رحاب كسله وتواكله مكانا للعمل وللرزق فضاقت الحياة بالشعب :

أرى شعبا بمدرجة العوادى تمخخ عظمه داء عقام
اذا ما مر بالبأساء عام أطل عليه بالبأساء عام
سرى داء التواكل فيه حتى تخطف رزقه ذاك الزحام (٢)

أما عن تمزق المجتمع وتشعب أهوائه فتلك صورته كما يرسمها « حافظ » اذ يقول :

وشعب يفر من الصالحات فرار السليم من الأجرب
وصحف تطن طنين الذباب وأخرى تشن على الأقرب
وهذا يلوذ بقصر السفير ويطنب فى ورده الأعذب
وهذا يصيح من الصائحين على غير قصد ولا مأرب (٣)

---

(١) ديوان الرافعى : ج ٣ ، ص ٢٠ .

(٢) ديوان حافظ ابراهيم : ج ٢ ، ص ٥٥ .

(٣) ديوان حافظ ابراهيم : ج ١ ، ص ٢٥٧ .

وتلك صورة أخرى يرسمها « أحمد محرم » للمجتمع المصرى فى ذلك العهد وقد تمكنت منه الأنانية وشاع بين أفراده حب الذات ، وكثرت فيه المساوىء .

فيقـول :

أكل امرىء فى مصر يسعى لنفسه ... ويطلب أسباب الحيـاة لذاته
طروب الأمانى ما يبالى بشعبه ... وان ملأ الدنيـا ضجيج نعاته
يرى نفسه فوق الملائك عفـة ... وقد ضجت الجنان من فتكاته
اذا نال ما يرجوه لم يعنه امرؤ ... سواه ولم يحفل بطول شكاته
يظل كأن الحق يتبع خطـوه ... اذا سار يبغى الغنم فوق رفاته
سواء عليه منزل السخط والرضا ... اذا نال ما يرضـيه من شـــهواته
يرى الدين والدنيا ثراء يصيبه ... وقصرا تذل العين عن شرفاته
يفوق الصلاب الصم ان سيم نائلا ... ويعتـــد لج البحر من حسـناته
ويجهل ما يدرى الصبى ، ويدعى ... من العلم ما ينسيك ذكر ثقـــافته
ويأتيك بالأخبـار يزعم أنهـــا ... بقيـــة وحى . وهى من نزعـــاته
ويحلف ما داجى ولا خان صـاحبا ... وقد عب سيل الغـدر فى لحظاته
لعمرى لقـد مارست دهرى وأهله ... فأربت مســاويهم على نكبـاته (١)

★★★

ويعرض « حافظ ابراهيم » لبعض مظاهر الفساد الاجتماعى التى شاعت فى مصر فى هذه الفترة فيقول :

كم عالم مـــد العـــلوم حبائلا ... لوقيعـــة وقطيعـــة وفـراق
وفقيــه قــوم ظل يرصـــد فقهه ... لمكيـدة أو مســتحل طــــلاق
يمشى وقد نصبت عليه عمامة ... كالبرج لـكن فـوق تل نفاق
وطبيب قــوم قــد أحل لطبه ... ما لا تحـــل شريعة الخــــلاق
قتل الاجنــة فى البطون وتارة ... جمـع الدوانق من دم مهراق
أغلى وأثمن من تجارب علمه ... يـوم الفخـــار تجـارب الحلاق

---

(١) ديوان محرم : جـ ٢ ، ص ٧٦ ـ ٧٧ .

ومهندس للنيل بات بكفه مفتاح رزق العامل المطراق
تندى وتيبس للخلائق كفه بالماء طوع الأصفر البراق
لا شيء يلوى من هواه فحده فى السلب حد الخائن السراق
وأديب قوم تستحق يمينه قطع الأنامل أو لظى الاحراق
يلهو ويلعب بالعقول بيانه فكأنه فى السحر رقية راق
فى كفه قلم يمج لعابه سما وينفثه على الأوراق
يرد الحقائق وهى بيض نصع قدسية علوية الاشراق
فيردها سودا على جنباتها من ظلمة التمويه ألف نطاق
عريت عن الحق المطهر نفسه فحياته ثقل على الأعناق (١)

★★★

الى هذا الحد ساءت أخلاق كثير من المصريين وفسدت طباعهم وشاعت بينهم الرذائل والبلايا ، فانصرفوا الى اللهو واللعب والى طلب الألقاب أو الرتب غير مبالين بما يقع على الوطن من بلاء • على نحو ما يقول « حافظ ابراهيم » :

أمة قدفت فى ساعدها بغضها الأهل وحب الغربا
تعشق الألقاب فى غير العلا وتفدى بالنفوس الرتبا
وهى والأحداث تستهدفها تعشق اللهو وتهوى الطربا
لا تبالى لعب القوم بها أم بها صرف الليالى لعبا (٢)

★★★

واذن : فلم تكن الحضارة الغربية خيرا خالصا وانما كانت مزيجا من الخير والشر •• ثم ان الجهل ، والاحتلال ، والشعور بالنقص من

---

(١) ديوان حافظ ابراهيم : ص ١ ، ص ٢٨٠ ، ٢٨١ •
(٢) ديوان حافظ ابراهيم : ج ٢ ، ص ٧ •

جانب المصريين ٠٠ كل ذلك قد عمل عمله فى تنمية عناصر الشر والفساد فى هذه الحضـارة ٠ وكان لذلك أثره فى تشـكيل السلوك الاجتمـاعى للمصريين فى هذه الفترة ٠

وبينما كانت الحياة المصرية تموج بتيار الحضارة الأوروبية وتتأثر المفاسد أو المزايا بما فى هذه الحضارة من ماديات ومعنويات ، كانت بقايا الجهل والجمود والتخلف الفكرى لا تزال تخيـم على عقـول كثـير من المصريين ، وترسم جزءا من ملامح الصورة العامة للمجتمع المصرى فى هذه الفترة ٠ فقد شاعت البدع وانتشرت الخرافات وظهر الدجالون يحملون فى أعناقهم التمائم والتعاويذ ، والسبحات ، ويوهمون الناس بالباطل والشبهات ويزينون لهم التمسح بالأضرحة والمزارات والتوسل بأصحابها ، والاعتقاد فى قدرتهم على قضاء الحاجات ، ويخـدعون السذج بالأحجبة وأنواعها ، والاحراز لدفع العين على اختلاف أشكالها ، والتعاويذ لشفاء الأمـراض ، وجلب الأزواج . وبث العـداء واسترضاء النافر ، وتحنين القلوب ، ويضللونهم بالسحر والطوالع والتنجيم (١) وغير ذلك من صور الجهل كالاعتقاد فى مشايخ الطرق والسجادة والخوف من السد والاستشفاء بالزار ، والاعتقاد فى ساعات النحس وساعات الوفق ، والاحتجاج بالقدر ، واتخاذه مثبطا للعزائم ٠٠

كانت هذه الأباطيل تأخذ مكانها فى السلوك الاجتماعى ، وتشكل جانبا من تقاليد المجتمع المصرى ومعتقداته الشائعة فى هذه الفترة ٠

وكانت ازاحة هذه الأباطيل جزءا من رسالة الاصلاح الاجتماعى التى اضطلع بها زعماء النهضة الاسلامية فى العصر الحديث ٠

وقد تناول الشعراء المحافظون بعض هذه الأباطيل بأسلوب ساخر ، ونقد لاذع واستنكار صريح ٠ مشاركين بذلك فى تنقية الاسلام مما ليس منه ، ومؤكدين رسالة الشعر فى الدعوة الى الاصلاح الدينى والاجتماعى ٠

فيقول « حافظ ابراهيم » فى قصيدة له « الى الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده » (٢) مشيرا الى انغماس الناس فى ضلالات الخرافات ٠ داعيا « الامام » الى محاربتها :

أمـام الهدى انى أرى القوم أبدعوا　　　لهم بدعا عنها الشريعة تعزف

---

(١) راجع أحمد أمين : فيض الخاطر ، ج ٣ ، ص ٧١ ، مقال (التخريف) ٠

(٢) ديوان حافظ ابراهيم : ج ١ ، ص ٢٢ ٠

رأوا فى قبور الميتين حياتهم فقاموا الى تلك القبور وطوفوا
وباتوا عليها جاثمين كأنهم « على صنم للجاهلية عكف »
فأشرق على تلك النفوس لعلها ترق اذا أشرقت فيها وتلطف

★★★

وفى سخرية لاذعة يغبط حافظ الأموات النائمين فى الحفر الذين يجرى حولهم بحر النذور بينما الأحياء لا يجدون ما ينفقون ، ولا يرزقون كما يرزق الأموات فيقول :

أحياؤنا لا يرزقون بدرهم وبألف ألف ترزق الأموات
من لى بحظ النائمين بحفرة قامت على أحجارها الصلوات
يسعى الانام لها ، ويجرى حولها بحر النذور ، وتقرأ الآيات
ويقال : هذا القطب باب المصطفى ووسيلة تقضى بها الحاجات(١)

ويشرح « حافظ » هذا المعنى السابق فيقول :

« .. وأسعد من هذا الحى ميت يسخر له الله من يبنى على قبره قبة عالية ثم يدعو الناس الى التبرك بتلك العظام البالية فتجىء سعادته فى مماته على قدر شقائه فى حياته ، وتطير بذكر كراماته الأنباء ، وتحسده على تلك النعمة الأحياء » (٢) .

★★★

ويندد « الغاياتى » بأولئك الذين يتخذون من أضرحة الأوليات مزارات لهم يحجون اليها ، ويتبركون بها ، ويتذللون فى طلب قضاء حوائجهم من ساكنيها اعتقادا منهم فى سلطان الأوليات وقدرتهم على قضاء الحاجات ، وغير ذلك مما ليس من الاسلام فى شىء فيقول :

يا قوم ان أولئك العلماء قد جعلوا الشريعة سلما للمطمع(٣)

---

(١) ديوان حافظ ابراهيم : جـ ١ ، ص ٣١٨ .
(٢) حافظ ابراهيم : ليالى سطيح ، ص ٤٢ .
(٣) ديوان وطنيتى : للغاياتى ، ص ١٣٩ .

ويصور « الكاشف » استغلال مشايخ الطرق لجهل الناس الذين يظنون بهم القدرة على كل شيء فيقول : (١) ٠

ومريد لشيخه ناذر عجـ ـلا سمينا به اليه تقرب
كلما قدم الطعام له كبـ ـر مستبشرا به وتأدب
وسطا اللص في الدجى فتلقا ه ابنه فانثنى وما نال مأرب
ودرى الوالد الجهول بما كا ن فأثنى على الولي وأطنب
قائلا : اني رأيت مغيثي في منامي على جواد أشهب
حارسا منزلي يرد مغيرا بالحسام المنصور في كل مضرب
فأهان ابنه بنسبته الفضـ ـل الى شيخه البعيد وأغضب
فنأى عنه تاركا بل مبيحا داره بعده لمن يتوثب
وأتى اللص ثانيا ومضى بالـ عجل لا يتقي خفيرا ويرهب
ثم هب المريد لا يجد العجـ ـل وعاد ابنه اليه وأنب
فدعا أهله وقال لهم ما أخذ العجل غير شيخي المحبب
فلقد خاف أن يفاجئنا اللـ ص فلم يرض أن نهان ونسلب
وأرانيه وهو يأكل في مر عاه في صادق المنام ويشرب

★★★

ويقول في تصوير نفاق الذين يدعون الولاية من المشعوذين : (٢)

هاجه الوجد فما لا يذكر الله تعالى
مرغيا كالجمل المصـ ـعب اذ حل عقالا
قلت هل تبغي بهذا الـ رقص بالله اتصالا
قال هذا خير ما ارتا ض به الراجي كمالا
تترك النفس به للـ جسم أغلالا ثقالا
فهوى ديناره منـ ـه وقد تاه اختيالا
ورآه أحد القو م فأخفاه احتيالا

---

(١) ديوان الكاشف : ج ١ ، ص ٨٠ ٠
(٢) ديوان الكاشف : ج ١ ص ٨١ ٠

وأحس الشيخ بالحا دث فاعتل اعتلالا
ودعا بالغوث حتى أتعب القلب ابتهالا
قلت يا هذا أيبكى زاهد مثلك مالا ؟
فتجرد من دعاو مكنت منك الخبالا
انما نفسك من جسمك لا ترضى انتقالا

★★★

وليس من شك فى أن رفض الشعراء المحافظين لهذه البدع والخرافات واعلان الثورة عليها ، وتبرئة ساحة الدين منها . ورمى أصحابها بالجهل والنفاق واستغلال العامة ... انما كان صدى للقظة الفكرية التى أحدثتها دعوات الاصلاح فى العالم الاسلامى . كدعوة الامام محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ ــ ١٧٩١) فى شبه الجزيرة العربية فيما بين عامى ١٧٤٠ ــ ١٧٩١ . تلك الدعوة التى كانت حربا على كل ما ابتدع بعد الاسلام الأول من عادات وتقاليد . فلا توسل ولا استشفاع ولا احتفاء بزيارة قبور ، ولا تقديس للأولياء ، ولا اجتماع لقراءة مولد ولا شىء مما يدعيه أهل البدع والخرافات مما ليس من الاسلام (١) . وقد سرت هذه الدعوة الى مصر فنبهت الأذهان الى خطأ هذه المعتقدات .

وكذلك كانت دعوة السيدين : جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ــ بعد ذلك ــ تجديدا للدعوة الوهابية فى ضرورة العودة بالاسلام الى نقاوته الأولى ، ومحاربة البدع والخرافات وما دخل على العقيدة الاسلامية من فساد باشراك الأولياء والقبور والأضرحة مع الله تعالى (٢) .

وقد كان لهذه الدعوات أثرها فى تنبيه الوعى الاسلامى وايقاظ العقلية الاسلامية التى بدأت تأخذ طريقها بحثا عن أصول الاسلام الأولى وكان استنكار هذه البدع ثمرة لهذه اليقظة الاسلامية » .

وكان السحر والزار والأسياد وتحضير الأرواح من بين ما شاع فى المجتمع من بدع وخرافات حكت عصور الجهل ، وعكست صور التخلف الفكرى الذى خيم على المجتمع فى هذه الفترة . وكان للشعر المحافظ فى

---

(١) راجع : أحمد أمين : **زعماء الاصلاح فى العصر الحديث** ، ص ١٣ ــ ١٤ .
(٢) راجع أحمد أمين : **المرجع السابق** ، ص ٢٣ .

نقد هذه البدع صوت مسموع ارتفع بالنكير والاستهجان لهذا السلوك الاجتماعي الفاسد . فيقول « الرافعى » مصورا تمكن الجهل من المرأة المصرية وما جره عليها من وخيم العواقب ونكد العيش :

أقام في رأسك الجهل الذى سلفت ... به الليالى وفى اضلاعك الحسد
وما يحلان بيتا كان في رغد ... الا وهاجر منه ذلك الرغد
فالسحر والزار والأسياد جملتها ... لأهلها نكد ما مثله نكد(١)

وقال يذم مغربيا يستحضر الأرواح :

يستحضر الأرواح تأمر بالفسا ... د وانما هى روحه تستحضر
روح كأخبث ما يكون تصاعدت ... من قلبه ولفتنها تتبختر
اياك لا يغررك نور جبينه ... وصلاحه وانظر الى ما يضمر
فالهر ذو خبث ولكنا نرى ... عينيه في وقت الظلام تنور (٢)

★★★

ويصور « النشار » احتيال « عجوز الزار » (٣) على الساذجات من النساء والفتيات ، وجذبهن الى حلقة الزار ، واستلاب أموالهن وحليهن وايهامهن بالشفاء على يد شيخ الزار وما هو : الا الخرافة التى توارثتها الأجيال فيقول :

عجوز الزار يا أم البلايا ... كفاك كفاك همهمة وقيلا
جزاك الله عن ابليس شرا ... فقد أشبهته الا قليلا
وما أدرى أكنت امام سوء ... لديه أم الخليفة والوكيلا
ففى بالغادة الحسنا وردى ... عليها ذلك المال الجزيلا
غصبت حليها فى الزار لما ... تخذت الكبش يلبسه بديلا

(١) ديوان الرافعى : جـ ٢ ، ص ٤٤ .
(٢) ديوان الرافعى : جـ ٣ ، ص ١٤٣ .
(٣) ديوان النشار : جـ ٣ ، ص ٦١ .

أكنت الفقر خلف الناس يسعى . فيترك العزيز بـــه ذليـــلا
أبا لخلخـــال تلتمســـين طبـــا ليبرأ جسمها المضنى النحيـــلا
(حديث خرافة يا أم عمرو) توارثه المـلا جيـــلا فجيـــلا
فشيخك ليس يؤتيها شفـــاء وسحرك ليس يغنيهـــا فتيـــلا
وكيف تؤمل الحسنـــاء خـــيرا اذا كان الغـــراب لها دليلا

★★★

وعن بدعة الزار وانتشارها فى هذا العصر وعمومها وخطرها يقول صاحب كتاب « حاضر المصريين أو سر تأخرهم » :

« بدعة الزار الذى هو عبارة عن جمعية نسائية تشترك الجـارية والسيدة فيها ثم يأخذن بدق الطبول دقات مزعجة ويتبادلن فيه الرقص ، والتمايل والبكاء الهائل والركوع والسـجود وضرب الخـدود ، وحـل الشعور ، وقرع الصـدور فى وسط تتلى فيه الأكاذيب على الله ورجاله الصالحين . فكم من ولى بعد حياته وصـلاحه اتهم بالكفر والشيطنة ، ونسبت اليه كرامات لا يرضـاها ومعجزات يأباها من قوم يدعـون بأن الشياطين يركبونهم متخذين هيئة ملك أو سلطان ، أو جوارى وغلمان ، مجرد حيل وترهات دونها حيل ابليس لقضاء شهوات رديئة لا يمكنهم نوالها الا بهذا الكذب والافتراء . حتى أن الزار أودى بالعائلات الى حضيض المسكنة والهوان . والزار مع أنه عام بين المصريين كافة الا أنه يكاد يكون خاصا بالمسلمين ، وأسبابه الحقيقية عدم التربية وتهذيب الأخلاق بفهم الدين » (١) .

ويقول « حافظ ابراهيم » فى « ليالى سطيح » :

« السعيدة من النساء من سهلت لها الأقدار فأصبحت تدعى شيخة الزار . فهى تملأ يديها ذهبا وبيتها نشبا ، وترفل فى الحرائر من هبات الحرائر ، ورأس مالها فى تلك التجارة رقيـــة بأسماء بعض العفاريت الطيارة تدخل على المقصورات في القصور ، والمخدرات فى الخدور ، فتفتق بطبلها آذانهن ، وتهز بأسماء الجن نواعم أبدانهن ، وتعمى بدخان البخور نجل أعينهن حتى اذا ما امتلكت منهن الوجدان ، وصار لها عليهن أى سلطان حكمت فيهن حكم المنوم البارع على النائم الخاضع » (٢) .

---

(١) محمد عمر : حاضر المصريين أو سر تأخرهم ، ص ٢٧٥ .
(٢) حافظ ابراهيم : ليالى سطيح ، ص ٤٢ .

هكذا كان المجتمع المصرى يموج بالبدع والخرافات والمعتقدات الخاطئة نتيجة للجهل والتخلف ، وسوء الحياة الاقتصادية والثقافية ، ذلك الى جانب ما انحدر الينا من أخلاق المدنية الأوروبية وعاداتها المستكرهة مما ينافى الدين والأخلاق ٠

ولقد كان ذلك كله : ما انحدر الينا من مفاسد الغرب وما ترسب فى أعماق مجتمعنا من آفات الجهل ومظاهر التخلف — من بواعث الاصلاح ودواعيه فى هذه الفترة وكان من دواعى الاصلاح — أيضا — ما طرأ على المجتمع من مشكلات تعددت فيها وجهات النظر ، واختلفت حولها الآراء ، وظهرت الحاجة الى فكر المصلحين الذين انقسموا بدورهم الى مجددين ومحافظين ، أو مجددين على الطريقة الأوروبية ومجددين على الطريقة الاسلامية ٠

وكانت مشكلة المرأة من بين المشكلات الاجتماعية التى تجسد فيها الصراع بين القديم والجديد ، بين ما نشأت عليه المرأة المصرية من حياء وتصون يتأيان بها عن مخالطة الرجال ، ومزاحمتهم فى الأعمال ، وبين ما تمتعت به المرأة الأوربية من تحرر وانطلاق وتربية وتعليم ٠

وفى ظل هذا الصراع بين الوافد المتحرر ، والموروث المحافظ برزت مشكلة المرأة تدعو الى الإصلاح ٠ فظهر « قاسم أمين » يدعو الى حرية المرأة وتربيتها وتهذيبها واعدادها لتحمل مسئولية المشاركة الاجتماعية على قدم المساواة مع الرجل وكان كتاباه : « تحرير المرأة » ثم « المرأة الجديدة » بيانا لهذه الدعوة التى شغلت الرأى العام فى مصر خلال هذه الفترة ٠ ثم كان رد فعل لهذه الدعوة الجريئة تعميقا للحوار حول قضية المرأة ٠

***

كذلك كانت المشكلة الاقتصادية فى حاجة الى الاصلاح بعد أن ساءت أحوال البلاد بسبب سياسة الاستعمار الاقتصادية ٠ فعم البؤس وانتشر الفقر ،وضاقت أبواب الرزق ، وعجز السواد الأعظم عن تحصيل ضروريات المعيشة ، واتسعت الفوارق بين الطبقات وانقطعت علائق الود بين الأغنياء والفقراء ، وتعرضت الطبقات الفقيرة لضنك الحياة وشظفها ٠ « وقد كانت الحال تجرى هادئة مطمئنة يوم كان الفلاح الفقير والعامل البسيط يستسلم للقدر، ويوم كان يلطف من الفقر احسان المحسنين ويوم كانت مطالب الحياة قليلة ، وأسعار السلع رخيصة ولكن تعقدت الحياة وكثرت مطالبها ، وعد كثير من الأشياء ضروريا بعد أن كان يعد كماليا ، وانتقلت أخبار

الصناع والعمال في أوربة وما يعمل لرفاهيتهم الى الشرق · فدب في فلاحه وصانعه الوعي بأنه يجب أن يعيش عيشة معقولة مقبولة ، فتألم وزاد في وعيه ما يواجه من غلاء الأسعار الذى لا يتفق ودخله فنشأ عن هذا كله ضرب من القلق والتذمر » (١) ·

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى زادت الضائقة وعمت الفـــاقة وضاقت أبواب الرزق وباتت الألوف تؤم الحواضر والمدن ابتغاء وسائل المعيشة حتى اكتظت المدن بساكنيها وارتفعت أجـور المساكن ، وزادت تكاليف المعيشة زيادة أعجزت الناس عن احتمالها « فنشأت عن هذه الحالة العامة ، البلوى الشادة للخناق ، المستحكمة عرى الضيق مظاهر فساد الأخلاق كشرب الخمر ، وانتشار الفجور ، وارتكاب الاجرام والجنايات وقامت دلائل عديدة على نشوء القلق الاجتماعي ، والاضطرابات الثورية والهياج الفكرى (٢) ·

وزاد من هذا القلق الاجتماعي أن الطبقة الفقيرة نفسها بدأت تشعر بأن لها في الحياة الكريمة حقا لا سبيل الى تجاهله · ولا سيما بعد أن بدأ الحديث عن الاشتراكية يدور على الألسنة عقب الثورة الروسية التى قامت على أكتاف طبقة العمال وكانت تذيع في ذلك الوقت أن هدفها الغاء الفوارق الطبقية والاطاحة بالرأسمالية والاقطاعية (٣) ·

ومن ثم كان على دعاة الاصلاح أن يواجهوا المشكلة الاقتصادية قبل أن ينفجر بركان الغضب في نفوس المكدودين من عامة الشعب ·

★★★

واذا كان الشباب هم سواعد الأمة في بناء المستقبل ، وأملها في تحقيق طموحها الحضارى فان رعاية هذا الشباب وحمايته ضد عوامل الانحراف ، وموجات الانحلال ومذاهب الالحاد تصبح ضرورة اجتماعية تتطلب جهود المصلحين ·

---

(١) أحمد أمين : **زعماء الاصلاح في العصر الحديث** ، ص ٣٤٧ ·

(٢) لوثروب سودارد : **حاضر العالم الاسلامى** · جـ ٢ ، ص ٢٨٦ ·

(٣) د· ماهر حسن فهمى : **حركة البعث في الشعر العربى الحديث** ، ص ١٢٩ ·

ومن هنا كانت قضية الشباب في مصر واحدة من قضايا الاصلاح الاجتماعى الذى توجهت اليه جهود المصلحين .

وفي ضوء ما تقدم يتضح لنا : أن المجتمع المصرى – في هذه الفترة – قد كان في حاجة الى الاصلاح والنهضة ، بعد أن صدعته الأحداث ، وتوالت عليه المحن فغدا هزيل البنيان في وقت مثلت فيه المجتمعات الأوروبية أكفأ أشكال التجمع السياسى والاجتماعى ، وكان ذلك مما يزيد النفوس ايلاما ، والشباب نفورا والأمل في الاصلاح بعدا .

بيد أن عزائم المصلحين لا تعرف اليأس . ولذلك مضوا في طريق الاصلاح جاهدين في سبيل النهضة مخلصين في أداء رسالتهم الوطنية وكان الشعراء المحافظون شركاء في شرف النضال الحضارى الذى قاده دعاة الاصلاح في مصر حين تصدوا لقضايا المجتمع ومشكلاته ، وفي الفصل التالى سوف يكون لنا عود الى هذا الحديث .



الفصل الثانى

الدعوة الى الاصلاح الاجتماعى

اقتنع المفكرون من دعاة النهضة فى مصر بضرورة الاصلاح الاجتماعى ، بعد أن بدا كل شىء فى حاجة الى الاصلاح ومسايرة العصر ، واللحاق بركب المدنية الغربية التى غزت المجتمع المصرى فبهرته بأضوائها وشغلته بأساليبها ومستحدثاتها وأظهرت عجزه وتخلفه ، وبعد ما بينه وبين المدنية الغربية فى ميدان الحياة الاجتماعية — وفى شتى الميادين من مسافات ٠

وكان هذا الاحساس دافعا قويا للسير فى طريق النهضة والبحث عن أقوم السبل للخروج بالمجتمع الى دنيا الحضارة والمدنية ، والى آفاق الحرية والكرامة الانسانية بيد أن المصلحين رغم اتفاقهم على ضرورة الاصلاح والنهضة قد اختلفوا حول الوسائل التى يمكن من خلالها الوصول بالمجتمع الى مستوى الحضارة والمدنية ٠ فدعا فريق من المصلحين الى اتباع أساليب الحضارة الغربية ، ودعا آخرون الى اتباع النهج الاسلامى فى بناء النهضة المرتجاه ٠

وكان طبيعيا أن يحتدم الصراع بين أولئك وهؤلاء من دعاة الاصلاح احتداما له أثره فى تجلية الحق وكشف الزيف وانتفاع المجتمع بآراء المصلحين بعد انصهارها فى بوتقة الحوار الفكرى وتخليصها من شوائب الأغراض الشخصية والأهواء الذاتية ٠

على أنى لا أريد فى هذا الفصل أن أعرض لحركة الصراع بين دعاة الحضارة الاسلامية أو النهضة على أساس الدين ، ودعاة التغريب أو النهضة على أساس الحضارة الغربية فان لذلك مكانة فى «الباب الثالث» : « الاتجـاه الحضـارى » ٠

ولكنى أريد هنا : أن أعرض لأهم القضايا الاجتماعية التى واجهت المصلحين مبينا موقف الشعر الاسلامى المحافظ من هذه القضايا .

وقد كانت قضية المرأة من أهم القضايا الاجتماعية التى شغلت الرأى العام وشارك فيها الكتاب والشعراء . وظهرت فيها اتجاهات المصلحين على اختلاف نزعاتهم فى الاصلاح .

وكان موضوع « الحجاب والسفور » هو أبرز موضوعات المرأة ، وأحفلها بالجدل بين المحافظين ممن يدعون الى الاصلاح والنهضة على مبادىء الاسلام والمجددين ممن يبتغون النهضة على أساس المدنية الأوروبية .

وزاد من حدة الجدل حول هذا الموضوع أن مشكلة « الحجاب والسفور » مشكلة ذات مساس بالدين . وللدين — يومئذ — فى نفوس السواد الأعظم من الشعب سلطانه الذى لا يقاوم . ولا عجب . فقد كانت النزعة الدينية غالبة على النفوس فى هذا العصر . وكان لعلماء الدين — باسم الدين — مكانة فى المجتمع كما كان للأزهر — حصن الدين واللغة ومعقل المقاومة ضد أساليب الغزو الفكرى — مكانته الجليلة فى قلوب الجماهير المسلمة فى مصر وفى غير مصر !

ومن هنا ، اتسع نطاق الحوار فى هذه القضية ، فكتبت المقالات وألفت الكتب وأنشئت القصائد ، وكثر الحديث حول المرأة ، وترددت آيات القرآن الكريم وأحاديث النبى — صلى الله عليه وسلم — وأقوال الفقهاء فى هذا المجال .

وكان كتاب « تحرير المرأة » لقاسم أمين سنة ١٨٩٩ م هو فاتحة الحوار الفكرى حول هذه القضية التى لم يحسمها النقاش بقدر ما حسمتها المرأة حين أسلمت نفسها لتيار التحرر ومضت معه الى آخر الشوط بحيث لو عاد محرر المرأة بدعوته من جديد ، وفى اطار ما كان يدعو اليه لأنكرته المرأة ولحسبته مقيدا لحريتها ! وتلك سنة التطور التى كان يخشاها المحافظون حين تصدوا لدعوة « قاسم أمين » .

على أن الانصاف يقتضينا أن نشير فى ايجاز الى أهم ما جاء فى كتاب « تحرير المرأة » من حيث انه كان الشرارة الأولى التى فجرت قضية المرأة فى هذه الفترة .

وعلى الرغم من أن « قاسم أمين » لم يكن أول داعية الى تحرير المرأة بل سبقه الى ذلك « رفاعة الطهطاوى » ، و « على مبارك » و « محمد عبده » فدعوا الى تعليم المرأة وحقها فى الحياة الكريمة . كان لدعوة « قاسم أمين » من الآثار الأدبية والاجتماعية ما لا يزال حديث الناس الى يومنا هذا .

وأيا ما كان الأمر . فقد جاء كتاب « تحرير المرأة » ـ بعد التمهيد ـ مشتملا على جملة من المسائل هى : تربية المرأة ، وحجاب النساء ، والمرأة والأمة ، والمرأة والعائلة . وفى التمهيد : حاول المؤلف أن يتتبع الجذور التاريخيـة للحالة السيئة التى آلت اليهـا المرأة المسلمة دون أن يكون للاسلام دخل فى ذلك .

وفى موضوع التربيـة : طالب المؤلف بتعليم المرأة كل ما يتعلمه الرجل من التعليم الابتدائى على الأقل حتى يكون لها المام بمبادىء العلوم يسمح لها بعد ذلك باختيار ما يوافق ذوقها . فاذا تعلمت المرأة القراءة والكتابة واطلعت على أصول الحقائق العلمية وعرفت مواقع البلاد ، وأجالت النظر فى تاريخ الأمم ، ووقفت على شىء من علم الهيئة والعلوم الطبيعية، وكانت حياة ذلك كله فى نفسها عرفانها العقائد والآداب الدينية . استعد عقلها لقبول الآراء السليمة وطرح الخرافات والأباطيل التى تفتك الآن بعقول النساء . وعلى من يتولى تربية المرأة أن يبادرها من بداية صباها بتعويدها على حب الفضائل التى تكمل بها النفس الانسانية فى ذاتها ، والفضائل التى لها أثر فى معاملة الأهل وحفظ نظام القرابة والفضائل التى يظهر أثرها فى نظام الأمة حتى تكون تلك الفضائل جميعها ملكات راسخة فى نفسها . هذه هى التربية التى أتمنى أن تحصل عليها المرأة المصرية (١) .

ثم انتقل المؤلف الى موضوع « الحجاب » فعده أصـلا من أصـول الأدب التى يلزم التمسك بها « ولكنه طالب بأن » يكون منطبقا على ما جاء فى الشريعة الاسلامية وهو على ما فى تلك الشريعة يخـالف ما تعارفه الناس عندنا ـ لما عرض عليهم من حب المغـالاة فى الاحتياط والمبالغة فيما يظنونه عملا بالأحكام حتى تجاوزوا حدود الشريعة ، وأضروا بمنافع الأمـة » (٢) .

ويذهب المؤلف الى :

« أن الشريعة ليس فيها نص يوجب الحجاب وانما هى ـ فى زعمه ـ عادة عرضـت لهم من مخالطة بعض الأمم فاستحسنوها واخـذوا بها ، والبسوها لباس الدين ، والدين منها براء » (٣) .

---

(١) قاسم أمين : تحرير المرأة ، ص ١٨ ـ ١٦ .

(٢) قاسم أمين : تحرير المرأة ، ص ٥٣ .

(٣) المرجع السابق : ص ٥٩ .

ثم يقول بعد أن يورد قوله تعالى :

« قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ان الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن ، أو أبنائهن ، أو أبناء بعولتهن ، أو اخوانهن أو بنى اخوانهن أو بنى اخواتهن ، أو نسائهن ٠ أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ٠٠ » (١) ٠

يقول المؤلف بعد أن يسوق هذه الآية :

« أباحت الشريعة فى هذه الآية للمرأة أن تظهر بعض أعضاء من جسمها أمام الأجنبى عنها ٠ غير أنها لم تسم تلك المواضع ٠ وقد قال العلماء : انها وكلت فهمها وتعيينها الى ما كان معروفا فى العادة وقت الخطاب ٠ واتفق الأئمة على أن الوجه والكفين مما شمله الاستثناء فى الآية ٠ ووقع الخلاف بينهم فى أعضاء أخرى كالذراعين والقدمين (٢) ٠

ثم مضى المؤلف ينقل نصوصا كثيرة للفقهاء تؤكد هذا الرأى حتى اذا خلص منه راح يسوق من الحجج المستخلصة من واقع حياتنا ما يثبت به ضرورة الاقتصار على الحجاب الشرعى الذى يسمح بظهور الوجه والكفين عند بعض الفقهاء ٠

هذا بالنسبة لحجاب الوجه والكفين ٠ أما الحجاب بمعنى قصر المرأة فى بيتها وحظر مخالطتها للرجال : فقط ذهب الى أن الحجاب بهذا المعنى هو تشريع خاص بنساء النبى صلى الله عليه وسلم ٠ ويستشهد على ذلك بقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى الا أن يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين اناه ولكن اذا دعيتم فادخلوا فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم والله لا تستحيى من الحق واذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ان ذلكم كان عند الله عظيما » وقوله تعالى : « يا نساء

---

(١) **سورة النور : الآية : (٣٠) ، (٣١) ٠**

(٢) قاسم أمين : **تحرير المرأة** ، ص ٥٧ ٠

النبى لستن كأحد من النساء ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى .. » .

ثم يقول معقبا على هاتين الآيتين .. ولا يوجد اختلاف فى جميع كتب الفقه فى أى مذهب كانت . ولا فى كتب التفاسير . فى ان هذه النصوص الشريفة هى خاصة بنساء النبى صلى الله عليه وسلم . أمرهن الله سبحانه وتعالى بالتحجب وبين لنا سبب هذا الحكم وهو أنهن لسن كأحد من النساء ، ولما كان الخطاب خاصا بنساء الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكانت أحد أسباب التنزيل خاصة بهن لا تنطبق على غيرهن ، فهذا الحجاب ليس بفرض ولا بواجب على أحد من نساء المسلمين (١) . أما نساء المسلمين عامة فهن منهيات - فقط - عن الخلوة بالأجنبى ، ويستشهد على ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يخلون رجل بامرأة الا مع ذى محرم » (٢) .

★★★

أما عن وضع المرأة فى الأمة أو اشتغالها بالشئون العامة : فان المؤلف يسوق أمثلة من التاريخ تؤكد أنه « قد وجد فى مبدأ الاسلام عدد غير قليل من النساء كان لهن أثر فى مصالح المسلمين العامة » (٣) .

كما يشير الى تدخل عائشة رضى الله عنها فى مسألة الخلافة العظمى والى غزو أم عطية رضى الله عنها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات كانت تخلف المحاربين فى رحالهم وتصنع لهم الطعام وتداوى الجرحى ، وتقوم على المرضى .

ثم يخلص من ذلك الى القول بأن الاسلام : قد خول للمرأة حقوقا عظيمة فى كل الأعمال المدنية ومنها أهليتها لأن تكون وصية على رجل (٤) . ثم ينتقل الى الحديث عن « المرأة والعائلة » فيتناول : الزواج ، وتعدد الزوجات والطلاق . مؤكدا ان الاسلام قد أنصف المرأة فى كل ذلك مستشهدا بآيات من القرآن الكريم فيما ذهب اليه من آراء » .

★★★

---

(١) قاسم أمين : تحرير المرأة ، ص ٦٥ .
(٢) المرجع السابق : ص ٦٦ .
(٣) المرجع السابق : ص ١١١ .
(٤) قاسم أمين : المرجع السابق ، ص ١١٢ .

ذلك بعض ما جاء فى كتاب « تحرير المرأة » الذى فتح باب الحوار على مصراعيه حول قضية المرأة بعامة ، والحجاب والسفور بخاصة ، وآثار معركة فكرية بين أصحاب الأقلام ورجال الفكر الذين انقسموا ازاء هذه القضية : قضية « تحرير المرأة » أو سفورها الى مؤيدين ومعارضين ٠ الى مؤيدين لا يرون فى تحرير المرأة خروجا على ما قرره الاسلام للمرأة من حقوق ، ولا اهدارا لقيمة من القيم الدينية التى صان بها الاسلام عفافها فضلا عما فى هذه الدعوة من خير محقق يعود نفعه على المجتمع ٠٠ والى معارضين يرون فى هذه الدعوة خطرا على المرأة وفسادا للأخلاق ، وتعطيلا لأحكام الدين ، وتقليدا لأعداء الاسلام ٠

وربما جر الناس الى هذا الانقسام فى الرأى حول دعوة « قاسم أمين » اختلاف المفسرين والفقهاء حول حد السفور الجائز شرعا ومتى يجوز فى ضوء فهمهم لقوله تعالى : « ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها » على ما بينته كتب الفقه والتفسير من آراء يكاد يخلص منها الباحث بأكثر من جواز الكشف عن الوجه والكفين عند أمن الفتنة أو عند الضرورة ٠

وكان هذا الاختلاف حول تفسير آية الحجاب فى قوله تعالى : « ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها » هو الذى فتح الباب ـ فيما يبدو لى ـ أمام الاجتهادات الشخصية حتى ظن كل فريق أن الحق معه ٠ ومن هنا كان « قاسم أمين » يظن أنه ينصف الحق حين يبحث مسألة الحجاب ٠ وفى هذا يقول : « لو أن فى الشريعة الاسلامية نصوصا تقضى بالحجاب على ما هو معروف الآن عند بعض المسلمين لوجب على اجتناب البحث فيه ، ولما كتبت حرفا يخالف تلك النصوص مهما كانت مضرة فى ظاهر الأمر لأن الأوامر الالهية يجب الاذعان لها بدون بحث ولا مناقشة لكننا لا نجد نصا فى الشريعة يوجب الحجاب على هذه الطريقة المعهودة ٠٠ ولذلك لا نرى مانعا من البحث فيها بل نرى من الواجب أن نلم بها ونبين حكم الشريعة فى شأنها وحاجة الناس الى تغييرها » (١) ٠٠

وهكذا كان يظن كل فريق أن الحق معه ٠ وهذه ملاحظة عامة لا ينبغى اغفالها عند البحث فى هذه القضية لما لها من أثر فى تخفيف حدة التعصب ونبذ الاتهام والتجريح بين الجانبين ٠

وأيا كان الأمر ٠ فقد أثار هذا الكتاب ضجة كبيرة وأحدث ردود فعل كثيرة برزت آثارها فى صحف ذلك العهد ، التى راحت تنشر على القراء

---

(١) قاسم أمين : **المرجع السابق** ، ص ٥٦ ٠

آراء الفريقين وكانت « المنار » — التى كان يصدرها الشيخ « محمد رشيد رضا » تلميذ الامام « محمد عبده » — أول صحيفة بادرت الى تأييد « قاسم أمين » (١) ٠ وكان الامام « محمد عبده » من مؤيدى « قاسم أمين » ٠ بل أن ما جاء فى كتاب تحرير المرأة خاصا بحجاب المرأة والطلاق هو من كلام الامام محمد عبده (٢) ٠

وكانت صحيفتا « المؤيد » و « اللواء » تعارضان دعوة « قاسم أمين » وتنشران ردود المعارضين (٣) ٠

كذلك ظهرت — فى هذه الآونة — بعض الكتب التى تولت الرد على دعوة « قاسم أمين » ومن أهمها كتاب « تربية المرأة والحجاب » ل « محمد طلعت حرب » سنة ١٨٩٩ الذى فند أدلة « قاسم أمين » وكشف عن رأى الاسلام فى قضية « الحجاب والسفور » يقول المؤلف :

« ان فى الشريعة نصوصا تقضى بالحجاب الشرعى ٠ ونعنى به ستر البدن بأكمله وملازمة المرأة خدرها الا لضرورة » ثم يقول معلقا على الآية الكريمة : « قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم ٠٠ » الى قوله تعالى : « ليعلم ما يخفين من زينتهن » ٠ يقول : « هذه آية جمعت فأوعت اذ أمرت الرجل والمرأة معا بغض النظر وحفظ العرض وأمرت النساء زيادة على ذلك بأن لا يبدين زينتهن الا ما ظهر من الزينة وليس كما قال صاحب « تحرير المرأة » : « ان الشريعة أباحت فى هذه الآية للمرأة أن تظهر بعض أعضاء من جسمها أمام الأجنبى ٠٠ » ٠

والمعنى ظاهر لا يحتاج لهذا التعسف ٠٠ وقد سئلت السيدة عائشة رضى الله عنها عن الزينة الظاهرة فقالت : « هى الكحل والخضاب » (٤) ولم يختلف أحد من الصحابة فى أن المراد من قوله تعالى : « الا ما ظهر منها » ليس هو الا الزينة — لا المرأة — بدليل أنهم لم يسألوا عائشة الا عن الزينة الظاهرة (٥) ٠

ثم يورد المؤلف — فى سياق الاستدلال على ما ذهب اليه — نص ما قاله الشيخ « الالوسى » — رحمه الله — فى تفسير قول الله تعالى :

---

(١) راجع : المنار — عدد ١٨٩٩/٧/١٥ و ١٨٩٩/٨/٢٦ ٠

(٢) راجع : د٠ محمد عمارة : **الأعمال الكاملة للامام محمد عبده** ، ج ٢ ، من ص ١٠٧ الى ١٣٢ ٠

(٣) راجع : **المؤيد** فى ١٨٩٩/٩/٣٠ و ١٩٠١/٢/١٩ — **واللواء** — فى ١٩٠١/٢/٣١ و — ٢/٢٤ و — ٢/٢٧ و — ٤/١٦ من السنة نفسها ٠

(٤) محمد طلعت حرب : **تربية المرأة والحجاب** ، ص ٦٧/٦٨ ٠

(٥) **المرجع السابق** : ص ٧٠ ٠

« ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها » اذ يقول : « أى الا ما جرت العادة والجبلة على ظهوره والأصل فيه الظهور كالخاتم والفتخة (١) والكحل والخضاب فلا مؤاخذة فى ابدائه للأجانب ، وانما المؤاخذة فى ابداء ما خفى كالسوار والدملج والقلادة والخلخال والاكليل والوشاح والقرط ، وذكر الزينة دون مواقعها للمبالغة فى الأمر بالستر لأن هذه الزينة واقعة على مواضـــع من الجســـد لا يحل النظـــر اليها الا لمن استثنى فى الآية بعـــد ٠٠ » (٢) ٠

ثم انتقل المؤلف بعد ذلك الى الحديث عن الحجاب بمعنى : قصر المرأة فى بيتها وحظر مخالطتها للرجال ٠ فأورد آية « يا نساء النبى لستن كأحد من النساء ٠٠٠ الآية » ثم قال : « انها وان كان المخاطب بها نساء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكن المقصود منها بلا شك ان نساء المؤمنين كلهن بهذا الحكم تبع لهن لأنها انما تأمر بآداب والأدب مطلوب للجميع ٠ ثم يستشهد بقول ابن كثير فى تفسير هذه الآيات : « هذه آداب أمر الله بها نساء النبى صلى الله عليه وسلم ٠ ونساء الأمة تبع لهن فى ذلك « فهى من باب الخصوص الذى يقصد منه العموم » (٣) ٠

ثم يخلص المؤلف من ذلك كله الى القول بأن قول الله تعالى : « يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما » ٠ قد أزال كل التباس ان كان هناك وجه للالتباس وجاء متمما للحكم بستر المرأة جميع بدنهـا وتعميم هـذا الحكم عـلى جميع النســاء فى جميع الأوقـات ليلا ونهارا » (٤) ٠

★★★

وهكذا كانت قضية « الحجاب والسفور » مثار جدل وملتقى حوار بين دعاة النهضـة على أسلوب الحضـارة الغربية ودعاتها على مبـادىء الاســلام ٠

وكان الشعراء المحافظون على مقربة من هذا الحوار بين الفريقين لانهم كانوا يقرأون ما ينشر حول هذا الموضوع وكانوا يتأثرون بما يقرأون وكان من نتيجة قراءتهم وتأثرهم انهم لم يتفقوا على رأى واحد حول هذه

---

(١) الفتخة : حلقة من فضة كالخاتم ٠
(٢) محمد طلعت حرب : المرجع السابق ، ص ٧٠ ٠
(٣) محمد طلعت حرب : المرجع السابق ، ص ٧٤ ٠
(٤) محمد طلعت حرب : تربية المرأة والحجاب ، ص ٧٧

القضية . بل مال بعضهم الى رأى « قاسم أمين » اعتقادا من هذا البعض أن الحق معه ، كما ذهب الى ذلك « شوقى » فى قصيدته التى رثا بها «قاسم أمين» فأشار الى رأيه فى الحجاب بأسلوب يوحى بتأييده « قاسما» فيما ذهب اليه اذ يقول شوقى : (١)

ماذا رأيت من الحجاب وعسره فدعوتنا لترفق ويسار ؟
رأى بدا لك لم تجده مخالفا ما فى الكتاب وسنة المختار

ثم يعلن رأيه فى الحجاب فيميل فيه الى التيسير والسماحة ، وينكر التشدد فيه والجنوح به عن حد الاعتدال والحكمة فيقول :

ان الحجاب سماحة ويسارة لولا وحوش فى الرجال ضوارى
جهلوا حقيقته وحكمة حكمه فتجاوزه الى أذى وضرار

★★★

فشوقى اذ يميل الى التسامح والتيسير فى أمر الحجاب انما يذهب مذهب « قاسم أمين » فى دعوته الى أن يكون الحجاب منطبقا على ما جاء فى الشريعة الاسلامية ، وفى حدود أحكامها التى تجاوزها الناس حتى أضروا بمنافع الأمة (٢) .

★★★

ومن الشعراء المحافظين من عارض « قاسم أمين » فى دعوته واتهمه بالخروج على ما سنه الاسلام للمرأة من آداب ينبغى أن نتمسك بها . كما ذهب الى ذلك « أحمد محرم » فى قصيدته « الحجاب » التى انتقد فيها « قاسما » وأعلن أن كتاب الله قد حسم هذه القضية . وفى هذا يقول :

أغرك يا أسماء ما ظن قاسم أقيمى وراء الخدر فالمرء واهم
سلام على الاسلام فى الشرق كله اذا ما استبيحت فى الخدور الكرائم

---

(١) الشوقيات : ج ٣ ص ٧٨ .
(٢) راجع : قاسم أمين : تحرير المرأة ، ص ٥٣ .

أقاسم : لا تقذف بجيشك تبتغي ... بقومك والاسلام ما الله عالم
أسائل نفسي : اذ دلفت تريدها ... أأنت من البانين أم أنت هادم ؟
ولولا اللواتي أنت تبكي مصابها ... لما قام للأخلاق في مصر قائم
نبذت الينا بالكتاب كأنما ... صحائفه مما حملن ملاحم (١)
ففي كل سطر منه حتف مفاجىء ... وفي كل حرف منه جيش مهاجم
لنا في كتاب الله مجد مؤثل ... وملك على الحدثان والدهر دائم

وفيها يقول مبينا خطر السفور :

هممنا بربات الحجال نريدها ... أقاطيع ترعى العيش وهي سوائم
وان امرءا يلقي بليل نعاجه ... الى حيث تستن الذئاب لظالم
وكل حياة تثلم العرض سبة ... ولا كحياة جللتها المآتم

الى أن يقول :

عفا الله عن قوم تمادت ظنونهم ... فلا النهج مأمون ولا الرأي حازم
الا ان بالاسلام داء مخامرا ... وان كتاب الله للداء حاسم

★★★

وكان « حافظ ابراهيم » من المعتدلين في موقفهم من قضية الحجاب والسفور ، فهو لا يميل الى سفور المرأة ، واختلاطها بالرجال ولا يميل – في نفس الوقت – الى الاسراف في الحجاب والتضييق على المرأة ، ولكنه يدعو الى الانصاف والتوسط فيقول (٢) :

أنا لا أقول دعوا النساء سوافرا ... بين الرجال يجلن في الأسواق
يدرجن حيث أردن لا من وازع ... يحذرن رقبته ولا من واقي
يفعلن أفعال الرجال لواهيا ... عن واجبات نواعس الاحداق
في دورهن شئونهن كثيرة ... كشئون رب السيف والمزراق

---

(١) ديوان احمد محرم : جـ ٢ ، ص ٦٣ .
(٢) يشير الى كتاب : « تحرير المرأة » .

كلا ولا أدعوكم أن تسـرفوا في الحجب والتضييق والارهاق
ليست نساؤكم حلي وجواهرا خوف الضياع تصان في الأحداق
ليست نساؤكم آثاثا يقتنى في الدور بين مخادع وطباق
فتوسطوا في الحالتين وأنصفوا فالشر في التضييق والارهاق (١)

★★★

والقصد في كل الأمور خلق اسلامى عام ولكنه هنا نوع من التردد في الرأى والحيرة في الحكم على القضية التى كانت لا تزال موضع أخذ ورد . حتى لقد رأينا حافظا يقف منها في قصيدة أخرى موقف المنتظر لما سوف تحكم به الأيام فيقول في رثائه « لقاسم أمين » :

ان رأيت رأيا في الحجاب ولم تعصم فتلك مراتب الرسـل
الحـكم للأيـام مرجعـه فيما رأيت فنـم ولا تسـل
وكذا طهـاة الرأى تتـركه للدهر ينضـجه علـى مهـل
فاذا أصـبت فأنت خـير فتى وضـع الدواء مواضـع العلل
أو لا فحسبك ما شرفت بـه وتركت في دنياك من عمل (٢)

★★★

ويذهب الشيخ « محمد عبد المطلب » مذهب المؤيدين للحجاب فيرى أنه خير ما يصون المرأة ويزينها وأنه لا يمنعها حقا من حقوقها ولا يصدها عن موارد العلم والمعرفة . فيقول مزينا الحجاب للنساء :

زعموا هن بالحجاب عن العلم ونـور العـرفان محتجبـات
بنت مصر كالشمس يحجبها اللي ـل وراء الآفـاق والظلمـات
وهى في أفقهـا ضـياء ونور ساطع في بدورها النـيرات
أو هى المسك ينفذ العرف عنه من وراء الأستار والحجرات (٣)

---

(١) ديوان حافظ ابراهيم : جـ ١ ، ص ٢٧٠ .
(٢) المرجع السابق : جـ ٢ ، ص ١٥٦ .
(٣) ديوان عبد المطلب : ص ٣٣ .

ويقول من قصيدة أخرى ينكر على المرأة المسلمة تبرجها وسفورها ويدعوها الى الحجاب الذى فرضه الاسلام صونا للمرأة وحماية لها :

ما هـــذه الحبـرات تهفـــو في الخمـــائل والحقـــول
نـــكر العفـــاف ذيولهـــا ومن الخنـــا قصر الذيـــول
أهي التى فـــرض الحجـــا ب لصـــونها شرع الرســـول
جعـــل الحجـــاب معـــاذها مـــن ذلـــك الداء الوبيـــل
يـــا منـــزل القـــران نـــو را للبصـــائر والعقـــول
عميت بصـــائر أهـــل وا دى النيل عن وضح السبيل (١)

وفى هذه القصيدة نلمح تعريضا « بقاسم أمين » الذى فتح الباب لسفور المرأة فكان ما كان من أمر النساء فى عصرنا الحاضر ، يقول :

يا هـــل درى (ذاك) الغيـــو ر بما جرى ؟ ويح الجهـــول

★★★

بيد أننا ــ انصافا للحق ــ نقرر : أن « قاســم أمين » لم يدع الى شىء من هذا التبذل الذى صارت اليه المرأة المعاصرة ٠ وانما كان يدعو الى السفور الشرعى الذى لا يزيد عن اظهـار الوجـه واليدين والقدمين ولا يتجاوز الى اظهار العورات والى اختلاط المرأة بالرجل بالشكل الحاصل الآن (٢) ٠

ولم يدع قاسم أمين الى أن تتجاوز المرأة كشف النقاب الى الكشف عن الأذرع والسوق والصدور والظهور ، ولم يدع قط الى اتخاذ الملابس الضـيقة التى لا تخفى عورات الجسـم الا لتبرز مواضـع الفتنة والاغراء بهـا (٣) ٠

★★★

(١) **المرجع السابق** : ص ١٨٤ ٠

(٢) د٠ ماهر حسن فهمى : **قاسم أمين** ، ص ١٥٤ ٠

(٣) د٠ محمد محمد حسين : **الاتجاهات الوطنية** ، جـ ٢ ، ص ٢٣ ٠

وكان « الرافعى » يؤيد الحجاب ويرى أن كل أدلة أعداء الحجاب التى يحتجون بها باطل فى باطل وضلال فى ضلال (١) ٠

وكان يرى فى مخالطة النساء للرجال صورة من صور الفساد التى ينبغى أن تعافها المرأة الشريفة فيقول :

دعى عنك قوما زاحمتهم نساؤهم ... فكانوا كما حف الشراب ذباب(٢)

★★★

كذلك كان الشيخ « حسن القاياتى » يرفض السفور والاختلاط ويميل الى الحجاب والتصون ويدعو الى التمسك بآداب الدين ٠ فيقول من قصيدة له : (٣)

الا فاخزنوا الدر البدير يسركم ... فلم أر قط الدر غير خزين

ولا تكلوا تلك الغصون الى الهوى ... فيضرب لينا فى الغصون بلين

جدير بكم أن تبتغوا الدين انه ... قمين يمسح الداء ، أى قمين

لكم دين نصح قد مددت به يدا ... قضيت بهذا النصح كل ديونى

★★★

ويبدو أن كفة المعارضين لسفور المرأة قد رجحت كفة المؤيدين فانقلب ميزان المعركة على رأس المرأة وتحول الصراع بين المؤيدين والمعارضين الى صراع بين المرأة والمرأة أو الى ملام عنيف بين الأمهات والبنات ٠ فالأمهات يلقين الملام على البنات ٠ ويتبرأن من سفورهن وتبرجهن ، والبنات يلقين الملام على الأمهات ويستبرئن من تبعة ما صرن اليه من تبرج وسفور وانحلال ٠

وكان « أحمد نسيم » ممن انتصر للبنات على الأمهات فقال :

أرى الأمهات يلمن العذارى ... الى أن جلبن عليهن عارا

وهذى البنات على ما لهن ... احق من الأمهات انتصارا

---

(١) انظر : ديوان الرافعى ، جـ ٢ ، ص ٤٧ ٠

(٢) المرجع السابق : ص ٤٦ ٠

(٣) ديوان : حسن القاياتى : جـ ١ ، ص ٥ ٠

فتربية الطفل من لعبة ... تبين وتصدر عنه اضطرارا
هى الأم تحنو على بنتها ... الى أن تعد الحنو افتخارا
هل البنت تعرف من نفسها ... اذا أزينت أن تطيل الأزارا
وتحسن فى وجهها صبغة ... تزيد بها وجنتيها احمرارا
ومن علم البنت وقت الشراب ... أن تخلع البنت فيه العذارا
تنادم هذا وتسكر ذاك ... وتشرب نخبا على القوم دارا
وتعجب طورا فتظهر قرطا ... وتفخر حينا فتبدى سوارا
وتخطر لابسة حليها ... فآنا لجينا وآنا نضارا
وتزهى بأصناف تلك الحلى ... ولو قدرت جعلتها نثارا
ألم تكن الأم أصل البلاء ... وبئس بلاء يكون اختيارا
فيا أمهات كفاكن لوما ... فغضب الملامة أمضى شفارا
ويا آنسات كفاكن زهوا ... وأصلحن حالا تجر البوارا

★★★

ولكن احدى الأمهات ردت على الشاعر تلقى الملام على البنات فقالت :

نسيم وأنت الذى لا يجارى ... علام يشعرك تطوى العذارى
أراك انتصرت لهن ولو ... علمت لكنا أحق انتصارا
تقول هى الأم أصل البلاء ... وأى بلاء يكون اختيارا
ولكن هى البنت لا ترعوى ... الى اذا رمت منها الوقارا
وكم هددتنى بقول صريح ... بامر يجر الى الشفارا
اذا لم أتمم لها مقصدا ... غدت وهى تضمر فى النفس عارا
وما خوف أم على بنتها ... سوى أن تعف عليها الأزارا
ومثلك يفهم مغزى كلامى ... فأنت الأريب الذى لا يبارى
وكم لطمتنى بكف عيانا ... وكم قذفتنى بهجر جهارا
تتوق الى الزهو امرىء ... نبته الديار فتاق الديارا

هى البنت تعجب آنا بقرط ... وتغضب حينا فتبكى سوارا

وأية بنت عليها خمار ... فقالت لها الأم ألق الخمارا

وأية أم أباحت لها ... من الكأس نخبا على القوم دارا

هى البنت ترنو الى غيرها ... فتأخذ عنها التحلى افتخارا

وتعرف من مثلها صبغة ... تزيد بها وجنتيها احمرارا

نسيم كفاك انتصارا لهن ... فلو كنت تدرى لعفت العذارى

★★★

ومهما يكن من أمر فان محاولة التبرؤ من اثم السفور انما تدل على انكار الرأى الاسلامى العام فى مصر للسفور وتأييده للحجاب .

أما على من تقع التبعة فى هذا الاثم فان تبعته تقع على كل مسئول عن وقوعه وعلى كل قادر على رفعه ، فهى مسئولية مشتركة يبوء باثمها كل ضالع فيها .

★★★

هذا فيما يتعلق بموضوع الحجاب والسفور وموقف الشعر المحافظ منه .

أما فيما يتعلق بثقافة المرأة وتربيتها واعدادها للمشاركة الفعالة فى حياة الأمة ــ وذلك جزء لا يتجزأ من دعوة « قاسم أمين » لتحرير المرأة ــ فان الشعر المحافظ قد أيد هذا الجانب من دعوة « قاسم أمين » انطلاقا من دعوة الاسلام الى طلب العلم واعتباره فريضة على كل مسلم ومسلمة . فقال « حافظ ابراهيم » يحث على تربية النساء واعدادهن لما فى ذلك من خير يعود على نفعة الأمة معاء :

من لى بتربية النساء فانها ... فى الشرق علة ذلك الاخفاق

الأم مدرسة اذا أعددتها ... أعددت شعبا طيب الاعراق

الأم روض أن تعهده الحيا ... بالرى أورق أيما ايراق

الأم أستاذ الأساتذة الألى ... شغلت مآثرهم مدى الآفاق

الى أن يقول :

ربوا البنـات على الفضيلة انها ... فى الموقفين لهن خـير وثاق
وعليـكم أن تستبين نسـاؤكم ... نور الهدى وعلى الحياء الباقى (١)

★★★

ويهيب محرم بالشعب أن يحرص على اعداد الأم اعدادا صالحا ، لأنها الأساس الذى يقوم عليه الاصلاح ، فالأم النافعة رحمة وهدى لقومها ، والأم الجاهلة نكبة قوية وما دامت الأم ذات خلق عال ورأى سديد فسينشأ الشعب على قوة الأخلاق وصدق العزيمة (٢) · يقول محرم :

لا تيأسوا ، وأعدوا الأم صـالحة ... فهى السبيل الى اصـلاح ما فسد
الأم للشعب اما رحمـة وهدى ... أو نكبة ما لها من دافع أبدا
لا يذهب الشعب فى أخلاقه صببا ... والأم تذهب فى أخـلاقها صعدا
لن ينفع العلم والأخـلاق فاسدة ... والنفس جامحة لا تتبع الرشدا
وجاهل ظن أن العلم مفسدة ... للبنت فانتقص التعليم وانتقدا
مهـلا ، فرب فتـاة أهلكت أسرا ... بجهلها وعجـو أفسـدت بلدا
اعملت رأيى فى معنى الحياة لمن ... يبنى الحيـاة فكان البيت والولدا
هـذا يصان بتدبير ومعـرفة ... وذا يعد لاصلاح البلاد غدا (٣)

ويقول من قصيدة له فى « الأمهات » يتمنى تعليم البنات :

رأيـت الأمهـات لـكل شيء ... يكون لدى الممـالك محـدثات
دعـاة الشر والاصـلاح منها ... ورسـل الموت فيهـا والحيـاة
فهـن يـكن امـا بانيـات ... اذا نهضـت ، وأمـا هادمـات
لذلك كان من خـير الأمانى ... لدى القـوم تعليم البنات (٤)

---

(١) ديوان : حافظ ابراهيم : ج ١ ، ص ٢٨٣ ·
(٢) محمد ابراهيم الجيوشى : شاعر العروبة والاسلام احمد محرم ، ص ١٧٦ ·
(٣) ديوان احمد محرم : ج ٢ ، ص ١٥٠ ·
(٤) المرجع السابق : ج ٢ ، ص ١٤٥ ــ ١٤٦ ·

ويقـول فى أخرى يدعـو الى تعليم البنات لأن الأم المتعلمة تدفع أبناءها الى السؤدد والمجد :

اتعرف شعبا لـم تلده عليمة مهــذبة ، فاستن سنة سؤدد ؟ (١)
اذا نحن علمنا البنات سمت بنـا الى سورة من المجد من يفترعها يمجد

ويؤكد « المصرى » على دور المرأة فى الحياة ويهيب باعدادها وتعليمها لبناء مجتمع قوى فيقول :

نصف الحياة على النسـاء وانما ضـل الرجال وأخطأ الحـكماء
والأمهات اذا تعلمت اهتـدت أبنــاؤها وارتاحت الآباء
فابنين للشرق الرجــال فانهم أسـواره وحصـونه الشـماء (٢)

وكان بعض دعاة « السفور » يرى فى « الحجاب » عائقا عن تحصيل العلم وهذا زعم باطل يكذبه تاريخ المسلمات اللاتى علمن فى خدرهن بل خضن « لجج العلوم الزاخرات » (٣) وقد أشار « عبد المطلب » الى هذا الزعم الكاذب بقوله :

ظلموا النيل يوم عدوا بنات النيل جهــلا فى زمرة الجـاهلات
زعمو هن بالحجـاب عـن العلـ ـم ونور العرفان محتجبـات (٤)

ويرد « المصرى » على من يظن أن الحجاب مانع من تحصيل العلم بأن فى مقدور المرأة أن تتعلم فى خدرها ولا يمنعها ما للحجاب من تحصيل العـــلم :

جعلوا الحجاب على الجهالة عـذرها أكذا الحجاب على الذكاء بلاء
ما ضرها لو علمت فى خدرها كـم فى الخدور مواهب وذكاء (٥)

★★★

---

(١) المرجع السابق : جـ ٢ ، ص ١٠٢ .
(٢) ديوان المصرى : جـ ٣ ، ص ٢١ .
(٣) راجع : قصيدة « شوقى » (مصر تجدد مجدها) الشوقيات : جـ ١ ، ص ١٠٢ .
(٤) ديوان : عبد المطلب ، ص ٣٣ .
(٥) ديوان المصرى : جـ ٣ ، ص ٢١ .

ونخلص مما تقدم فى موضوع المرأة ما يلى :

١ ـ أن مسألة السفور والحجاب كانت حلقة من سلسلة الصراع بين القديم والجديد أو كانت ثمرة من ثمرات الاتصال بالحياة الأوروبية فى تقاليدها الاجتماعية ٠

٢ ـ أن الشعر المحافظ قد وقف من دعوة « قاسم أمين » الى « تحرير المرأة » من « الحجاب » على « الطريقة المعهود » ـ أى المعروفة فى مصر آنذاك ـ وهى الحجاب الكامل الذى يستر جميع أعضاء المرأة بما فى ذلك الوجه والكفين ـ بين مؤيد لهذه الدعوة يرى أنها ـ فى حدود ما دعا اليه « قاسم أمين » من ضرورة أن يكون الحجاب منطبقا على ما جاء فى الشريعة الاسلامية ـ لا تتنافى مع الاسلام ٠ ومعارض لها يرى فيها خروجا على الاسلام الذى وضع حدودا لآداب المرأة ينبغى ألا تخرج عنها ، فكلا الفريقين ـ اذن ـ كان يصدر فى موقفه من دعوة « قاسم أمين » عن شعور دينى ٠

والذى جر الشعراء الى هذا التناقض الظاهرى ـ فيما أعتقد ـ انما هو اختلاف الأئمة حول تفسير النصوص الدينية التى وردت فى هذه المسألة ٠

٣ ـ أن الشعر المحافظ قد أيد الدعوة الى تربية المرأة وتعليمها واعدادها اعدادا صالحا لتكون لبنة طيبة فى بناء مجتمع قوى ٠ وهذا هو موقف الشعر المحافظ من الشطر الثانى من دعوة قاسم أمين الى تحرير المرأة ٠

واذن فقد كانت دعوة قاسم أمين الى تحرير المرأة ذات شقين :

أولهما : السفور ٠ وفيه اختلف موقف الشعراء باختلاف فهمهم للنصوص الدينية الواردة فى موضوع الحجاب ٠

وثانيهما : تربية المرأة وتعليمها وفيه اتفق الشعراء على ضرورة ذلك انطلاقا من الايمان بأهمية دور الأم فى حياة المجتمع ٠ واستنادا الى دعوة الاسلام لكل مسلم ومسلمة الى طلب العلم ٠

ذاك موقف الشعر المحافظ من قضية المرأة فماذا كان موقفه من « مشكلة الفقر » التى عانى منها المجتمع المصرى فى هذه الفترة ؟

وللاجابة على ذلك ينبغى أن نلقى بعض الضوء على أوضاع مصر الاقتصادية فى هذه الفترة ٠

ففى هذه الفترة كان الاحتلال البريطاني يقبض على زمام السلطة الفعلية في البلاد ، ويرسم بنفسه سياستها الاقتصادية بالقدر الذى يحقق مطامعه الشخصية وفى سبيل ذلك أحكم الاستعمار الانجليزى سيطرته على الاقتصاد المصرى فألغى المراقبة الثنائية ، وعين مستشارا انجليزيا للمالية ، وأرهق الخزانة المصرية بتعويضات الأجانب عما نالهم من ضرر مزعوم وخسائر وهمية بلغت قيمتها نحو أربعة ملايين جنيه تحملتها الخزانة المصرية كما تحملت تكاليف جيش الاحتلال وأجور الموظفين الانجليز وتكاليف حرب المهدى فى السودان (١) ٠

وكان من نتيجة ذلك أن أرهق الاقتصاد الوطنى فساءت أحوال البلاد ٠ وانخفض مستوى معيشة السواد الأعظم من الشعب وبخاصة الفلاحون والعمال ٠

أما الفلاحون فكانوا : « يعيشون بالشيء التافه الذى يبقى الحى من الموت جوعا » (٢) يقضى أحدهم حياته مثقلا بالدين لا يزيد كسبه على الضرائب المفروضة عليه ، وأرباح الديون المطلوبة منه ، وهو لكى يسد حاجات زراعته فى مواعيدها مضطر دائما الى الاستدانة بالربا الفاحش ٠ فلهذا العسر من جهة ، ولخلوه من المال من جهة أخرى ، ولكثرة من يعولهم من جهة ثالثة قد بقى غريقا فى بحار الضنك لا يعرف لنفسه منها مخلصا (٣) ٠

وقد أدت هذه الفاقة فى حياة الفلاح الى اهمال الزراعة ثم الى تركها يأسا من جدواها فى تحسين حالته المعيشية وبحثا عن حياة أفضل فى ظل حرفة أخرى ، فكان أن نزح كثير من الفلاحين الى المدن التى ما لبثت — بدورها — أن ضاقت بحياة سكانها وقلة مواردهم ٠

وأما العمال فقد بدأ كثير منهم يعرف البطالة بعد أن حارب الاستعمار الصناعة الوطنية وعمل على تخزينها تارة بالاقلال من زراعة المواد الخام اللازمة لها وتارة بغرض رسم جمركى كبير على الفحم المستورد (٤) ٠

وفى الوقت الذى قضى فيه الاستعمار على الصناعة الوطنية — أو كاد — جعل من مصر سوقا لبيع بضاعته وتصريف منتجاته فراجت تجارته

---

(١) راجع : عبد الرحمن امرافعى : **مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال** ، ص ٩ و ص ٦٤ ٠

(٢) قاسم أمين : **أسباب ونتائج واخلاق ومواعظ** ، ص ٤ ٠

(٣) تيودور تشتين : « **تاريخ المسالة المصرية** » ترجمة : العبادى وبدران ، ص ٢٩٩٠

(٤) **المرجع السابق** ، ص ٣٠٨ ٠

وعظمت ثروته ودارت عجلة مصانعه ، وعدمت البطالة فى بلاده وكان ذلك كله على حساب الشعب المصرى الذى كان يعانى سواده من البؤس ما يعانى حتى ضاقت الحياة بالناس .

ثم ان الاستعمار قد سعى ـ بنفوذه ـ فى خلق طبقة خاصة تبادل معها المنافع على نحو ما . وكان لهذه الطبقة الخاصة من الوجاهة واليسار وقوة النفوذ ما ليس لعامة الشعب . فظهر التناقض فى حياة المجتمع واتسعت الفوارق بين الطبقات « فبينما ترى قصورا وثراء ، وحبورا وسراء ، وخراج قرية أو قريتين يذهب فى لهو ليلة أو ليلتين . نجد أرملة صناعا ، وأيتاما جياعا ، وشيخا يعمل فى أرزل العمر ، يقعده العجز ، ويقيمه الفقر . أو عذراء تبيع عرضها للاحتياج ، أو مريضا عاجزا عن العلاج ، وبينما ترى وذاحا فى جيدها عقد كأنه فرود حضار ، وفى أخمصها نعل من نضار . ترى بائسة فى عنقها عقد من دموع ، وفى بيتها فقر وجوع ، حال تطرف العيون وتثير الشجون .. » (١) .

★★★

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى زادت الضائقة وعمت الفاقة ، وضاقت أبواب الرزق ولا عجب ، فقد توقفت حركة الصادرات والواردات، وهبطت ايرادات الحكومة من الجمارك هبوطا فاحشا ، وظهر العجز فى الميزانية ، فأوقفت الحكومة جميع مشروعاتها وأخذت تفصل الموظفين المؤقتين الذين كانوا يعملون بأجر يومى ، وحذت الشركات والمصارف والمحال التجارية حذو الحكومة فى فصل الموظفين والعمال وتوقفت أعمال البناء ، وتعطلت المصانع .. ووجد الألوف من العمال والموظفين أنفسهم وقد فقدوا مورد رزقهم فجأة وأصبحوا عرضة للموت جوعا .. وأخذ التجار يخبئون ما عندهم من البضائع فارتفعت أسعار المآكل والملبس ومواد الوقود كالفحم والبترول والكحول كما ارتفعت أسعار التبغ والأحذية والشاى وكثر الغش فى كل شىء فى الكيل والوزن والصنف (٢) .

★★★

واذ عمت الضائقة المالية ، وارتفعت أسعار السلع وتعذرت أسباب المعيشة على الطبقات الفقيرة . أخذ الناس يجأرون بالشكوى ، وتعالت

---

(١) محمد توفيق البكرى : **صهاريج اللؤلؤ** ، ص ١٥٦ ز

(٢) محمد سيد كيلانى : « **السلطان حسين كامل . فترة مظلمة فى تاريخ مصر** » ص ١٨١ / ١٨٢ .

أصوات الشعب تستصرخ المصلحين أن يفعلوا شيئا يفرجون به كرب الناس وكان الشعر المحافظ هو صوت الأمة في هذه المحنة ، يصدع قلوب أغنيائها بأنين فقرائها ، ويشكو الى المصلحين سوء أحوالها ، وضنك عيشها ٠

فيقول « حافظ ابراهيم » :

أيها المصلحون ضاق بنا العيش ولم تحسنوا عليه القياما
عزت السلعة الذليلة حتى بات مسح الحذاء خطبا جساما
وغدا القوت في يد الناس كاليا قوت حتى نوى الفقير الصياما
يقطع اليوم طاويا ولديه دون ريح القتار ريح الخزامى(١)
ويخال الرغيف في البعد بدرا ويظن اللحوم صيدا حراما
ان أصاب الرغيف من بعد كد صاح : من لي بأن أصيب الاداما
أيها المصلحون أصلحتم الأرض وبتم عن النفوس نياما
أصلحوا أنفسا أضر بها الفقر وأحيا بموتها الآثاما
أيها المصلحون رفقا بقوم قيد العجز شيخهم والغلاما
وأغيثوا من الغلاء نفوسا قد تمنت مع الغلاء الحماما
أوشكت تأكل الهبيد من الفقر وكادت تذود عنه النعاما(٢)
ضاق في مصر قسمنا فاعذرونا ان حسدنا على الجلاء الشآما
قد شقينا ـ ونحن كرمنا الله ـ بعصر يكرم الأنعاما (٣)

★★★

ويقول « عبد المطلب » يصف ما أصاب موظفي الحكومة من ضيق وبؤس بسبب الغلاء وقلة الدخل :

---

(١) ريح القتار : ريح الشواء ، الخزامى : نوع من الرياحين ٠

(٢) الهبيد : حب الحنظل ٠

(٣) ديوان : حافظ ابراهيم ، ج ١ ، ص ٣١٦ ٠

فوارحمتا لابن الحكومة قوسه   قلوع وهل يرجى سداد قلوع
ومن حوله غرثى عيال ونسوة   طواها الردى فى ذلة وخضوع
تقلب فى جوع وعرى يؤودها   وحسبك من عرى يؤدد وجوع
غلا كل شيء من مرافق عيشها   على ربها من مسلم ومبيع

★★★

فاذا كان هذا هو حال الموظفين الذين يمثلون فى الهيئة الاجتماعية الطبقة المتوسطة فكيف كانت ــ اذن ــ حياة الطبقة الفقيرة من الشعب ؟ يقول أحمد محرم :

رأيت الهول ينبعث ارتجالا   فتنصدع القلوب له بديها
رأيت البؤس يركض فى جلود   يجانبها النعيم ويحتويها
رأيت بيوت ساغبة تلوى   كأمثال الأراقم ملء فيها
تريد طعامها والبيت مقو   فتوشك أن تميل على بنيها
أنيلونا الديات ولا تكونوا   كمن يردى النفوس ولا يديها(١)

★★★

ويجأر « شوقى » الى الله بالدعاء أن يخفف عن الفقراء ما يجدون من ضنك الحياة وبؤس المعاش وأن يرقق لهم قلوب الأغنياء والتجار فيقول : (٢)

عبادك رب قد جاعوا بمصر   أنيلا سقت فيهم أم سرابا
حنانك واهد للحسنى تجارا   بها ملكوا المرافق والرقابا
ورقق للفقير بها قلوبا   محجرة وأكبادا صلابا
أمن أكل اليتيم له عقاب   ومن أكل الفقير فلا عقابا

---

(١) عمر الدسوقى : فى الأدب الحديث جـ ٢ ص ١٩٤ .
(٢) الشوقيات : جـ ٢ ، ص ٥٤ .

أصيب من التجـــار بكل ضار　　أشـد من الزمـان عليه نابا
يـكاد اذا غـــذاه أو كســـاه　　ينــازعه الحشاشة والاهـــابا

★★★

ويأسى الشيخ « حسن القاياتى » للعمال العاطلين فيقول من قصيدة له بعنوان « وارحمتاه للعمال العاطلين » : (١)

كم تحت جنحك يا دجى من موجع　　قال الأسى لعيـونه لا ترقدى
أسـوان ينظر فى النجوم كأنهـا　　جمر تصعد من حشـاة الموقد
واهاله من عاطل لو ساعفت　　أيـامه أزرى بـكل مقـلد
لله عينـــا مـن أحس وليدة　　قد ريع كاسـبها بخطب أنكد
باتت تنظـر والدا هتفت به　　اذ راح يبغى عيشها ، لا تبعد
وارحمتـــاه بطفلة لا تقتنى　　حولا ولا عاذت بفضـــل تجلد

★★★

وازاء هذه الظروف الخانقة والحياة التعيسة التى كان الفقراء ــ وهم سواد الشعب ــ يتقاسمون عذابها ٠ نادى المصلحون بحق الفقراء على الأغنياء ودعوا الى ما يأمر به الدين من حق الزكاة ٠

فكتب الامام « محمد عبده » عن الزكاة يستحث أغنياء المسلمين على أدائها سدا لحاجة الفقراء ٠ فيقول مبينا حكمة الاسـلام فى الزكاة : « فرض الاسلام للفقراء فى أموال الأغنياء حقا معلوما يفيض به الآخرون على الأولين سدا لحاجة المعدم ، وتفريجا لكربة الغارم ، وتحريرا لرقاب المستعبدين وتسييرا لأبناء السبيل ، ولم يحث على شىء حثه على الانفاق من الأموال فى سبيل الخير ٠ وكثيرا ما جعله عنوان الايمان ، ودليـل الاهتداء الى الصراط المستقيم ، فاستل بذلك ضغائن أهل الفاقة ، ومحص صدورهم من الأحقاد على من فضلهم الله عليهم فى الرزق ، وأشعر قلوب أولئك محبة هؤلاء ، وساق الرحمة فى نفوس هؤلاء على أولئك البائسين فاستقرت بذلك الطمأنينة فى نفوس الناس أجمعين ٠ وأى دواء لأمراض الاجتماع أنجع من هذا ٠٠ ؟ » (٢) ٠

---

(١) نشرت بالأهالى : فى ١٩١٥/٣/٢٦ ٠

(٢) د٠ محمد عمارة : الأعمال الكاملة للامام محمد عبده ، جـ ٣ ، ص ٤٥٦ ٠ وانظر : رسالة التوحيد ، ص ٩٧ ٠

ويستندى « محمد كرد على » أكف الأغنياء من المسلمين لدفع غائلة الفقر عن الفقراء ويبين أثر الزكاة فى سد حاجة المحتاجين فيقول : « لو عمل المسلم بشريعته فأخرج الزكاة مثلا لما رأيت اليوم فقيرا ولا جائعا ولا عريانا .. » . ثم يقول : « البشر اليوم فى ضائقة لم ينلهم بعضها من عهد حفظة التاريخ . أمن المروءة أن ينعم بعض أفراده ويسرفوا على حين تكفى فضلات طعامهم والزوائد من رفاهيتهم ومظاهرهم لأن تعول كثيرين من المحاويج » (١) .

وقد حملت الصحف الوطنية في هذه الفترة لواء الدعوة الى الاحسان والعمل على تخفيف أعباء الحياة عن الفقراء . فأخذت ترسم صور البؤس التى يعيشها الفقراء ، وتهز من خلالها ضمائر الأغنياء . ومن ذلك ما كتبته صحيفة « وادي النيل » تحت عنوان « أحسنوا ولا تنهروا » تقول : « .. كثرت الآلام وتعددت المصائب ، وليس بيننا من يرحم أو يعمل فى سبيل الرحمة . نرى الفقراء يتسكعون فى الشوارع والأزقة ، ونسمع أنينهم وشكواهم ومع ذلك فنحن نسير فى طريقنا كأننا لم نر ولم نسمع قلوب جمدت حتى تحجرت ، وعيون تغاضت حتى عميت وأيد غلت حتى شلت .. جردت قلوبنا من الرحمة وانتزع من ضمائرنا الميل الى الخير وسرنا فى طريق لم يسر عليه آباؤنا ولا أجدادنا ولم تنص عليه شرائعنا ولا مدنيتنا » (٢) .

ثم بدأت الأفكار الاشتراكية تشق طريقها الى الأذهان وسط دياجير الفاقة والبؤس . فألف « عبد الرحمن الرافعى » أول كتاب عن نقابات التعاون الزراعيـة سنة ١٩١٤ بحث فيه الحالة المالية للفلاح المصرى ، والتسليف الزراعى التعاونى (٣) ، كما ألف « حسين المنصورى » أول كتاب عن الاشتراكية ونشره أوائل سنة ١٩١٥ بعنوان « تاريخ المذاهب الاشتراكية » وتحدث فيه عن الاشتراكية فى مصر . وطالب فيه بتعميم المجالس المحلية ، وبنـاء المساكن الصحية التى تؤجر بأجور معتدلة ، وتعيين الحد الأدنى لأجور المزارعين وتوزيع موات الأرض على فقراء المزارعين. كما حض الأهالى على انشاء نقابات زراعية وصناعية وامدادهم بالمال من خزينة الحكومة (٤) .

★★★

(١) محمد كرد على : **القديم والحديث** ، ص ٢٨٠ .
(٢) نشرت فى « **وادى النيل** » : فى ١٩١٥/٣/٢٦ .
(٣) محمد سيد كيلانى : **السلطان حسين كامل** . ص ١٨٣ .
(٤) **المرجع السابق** : ص ١٨٥ .

وهكذا دفعت الظروف الاقتصادية القاسية بالمصلحين الى البحث عن أفضل الحلول للخروج من هذه الأزمة الخانقة ·

وكان الحل الاسلامى فى مقدمة هذه الحلول التى شارك فيها الشعر المحافظ بفكر موصول بالاسلام وبدعوته الى البر والاحسان ·

وفى هذا المجال اتجه الشعراء المحافظون وجهات متعددة · فتارة نسمعهم يستعطفون الأغنياء ويناشدونهم البر بالفقراء الذين هدهم الجوع وأذلهم الفقر · وحينا نجدهم يحثون على انشاء الجمعيات الخيرية لرعاية الفقراء والأيتام والأطفال المشردين وذوى العاهات · وآنا نراهم يذمون البخل ويمتدحون البر ويذكرون الأغنياء بحقوق الفقراء ، وقد يخوفونهم ثورة الفقراء عليهم · الى غير ذلك من مذاهب القول فى الدعوة الى الاحسان والتعاون على البر فيقول « أحمد محرم » يناشد الأغنياء أن يغيثوا البلاد مما تعانى وأن يمدوا أيديهم الى الفقراء الذين قهر الذل نفوسهم حتى باعوا بناتهم فى سوق المهانة بيع الرقيق : (١)

يبيع البنين ويشرى الرغيف	فيـا للرجـال ويـا للعجب
جنـود من الفقر تغزو النفوس	وأنتـم أسـنتها والقضـب
سراة البـلاد ألا من يذود ؟	سراة البـلاد ألا من يذب ؟
سراة البـلاد ألا من يجود ؟	سراة البـلاد ألا من يهب ؟
ألا مـن يرق ؟ ألا من يلين ؟	ألا من يواسى ؟ ألا من يطب ؟
أما فيـكم منعـم يرتجى ؟	أما بينـكم ماجـد ينتخب ؟

★★★

ويستثير « الرافعى » مشـاعر المحسنين كى تلين قلوبهم لدعـوة الاحسان فيصور حال الفقراء وما لاقوه من بؤس وشقاء من خلال أسرة معدمة يجلس فيها الأب وقد التف حوله أطفاله يبكون من شدة الجوع ، « ويتناعون لوعة كفراخ الطير » وينظرون اليه بعيون دامعة تمزق سهامها الحانية نياط قلبه حيث لا يقدر على دفع الأذى عنهم ، وجلب الخير لهم بينما هم يعتقدون ــ على عادة الأطفال فى قدرة أبيهم على جلب الطعام

(١) نشرت فى « وادى النيل » : فى ١٩١٥/٤/٤ ·

اليهم ، ولكن ما حيلة الأب وقد « غلت الخطوب يديه من الأسى والهوان » فيقول « الرافعى » تحت عنوان « العمال العاطلون » : (١)

كم أب حوله البنون صغارا يتعانون من شدة ويعانى
غاية العز عندهم طلعة الخبز وكل الأفراح فى الأفران
عضه الجوع عضة ضغمته فتلوى تلوى الثعبان
وتباكوا من حوله بدموع هى فى قلبه سهام الحنان
ثائر ، غيظه وغيظ بنيه شعل فوق ذلك البركان
صبية كاللآلئ الغر فى السلك ، ودمع الندى على الريحان
يتناغون لوعة كفراخ الطير حين انتفض للطيران
جوع يأملون فى طلب الخبز أباهم وما أبوهم بوان
غير أن الخطوب غلت يديه بقيود من الأسى والهوان
ولو اسطاع ضرم الشمس نارا وأعد النجوم مثل الجفان
ولو اسطاع لاشترى قمر الليل رغيفا لهم من الرغفان

ثم يتجه الى المحسنين فيدعوهم الى الاحسان الى هؤلاء الفقراء حتى يحفظوا عليهم كرامتهم وعفافهم . والا فان الفقر سوف يدفعهم الى ارتكاب الجرائم :

أيها المحسنون هذى ثمار بلغت نضجها لغير أوان
فتح الناس بينهم باب شر فافتحوا بابكم من الاحسان
واحفظوا للفقير فضل عفاف تركته بقية الايمان

ثم يختم قصيدته بمناشدة الأغنياء باسم الدين والعلم والمدنية أن يبقوا على حياة اخوانهم البائسين :

أيها المحسنون للدين رفقا بأخ فى محبة الأوطان
أيها المحسنون للعلم رفقا بأخ فى التضامن العمرانى
رجع الناس للتوحش فابقوا أنتموا للتمدن الانسانى

(١) نشرت فى « المقطم » : فى ١٩١٤/١١/٢٤ .

ويتجه « النشار » في قصيدته « الى الأغنياء » (١) ذوى الخزائن العامرة والكنوز المستفيضة والقصور الشاهقة ، والمركبات الفارهة ، فيسألهم الرحمة بالمعدمين من العباد ويعتب عليهم تقصيرهم فى حق الفقراء البائسين فيقول :

أذوى الخزائن والكنو ز المستفيضة والسواد
والشاهقات من القصو ر علون كالسحب الغوادى
والغانيات الناعما ت الحاكمات على الفؤاد
والمركبات تجرهن ن الصافنات من الجياد
والعاليات من الآرا ئك والأسرة والمهاد
ماذا فعلتم رحمة بالمعدمين من العباد
البائسين الهائمي ن على الوجوه بكل واد
العاجزين عن ادخا ر القوت من ماء وزاد
هملا يطوفون الأزقـ ـة يستميحون الأيادى
والشمس تلفحهم كفعـ ـل النار من تحت الرماد
حتى اذا جن الدجى وأمضهم طول السهاد
ناموا على وجه الترا ب وقد نعمتم بالرقاد
أوصدتم أبوابكم من دونهم بيد العناد
فاذا هم بالرغم قد لجأوا الى باب الفساد

***

ويقول « حافظ ابراهيم » يدعو الأغنياء الى التسابق فى الخيرات ويحبب اليهم الصالحات من الأعمال ، ويغريهم بما أعده الله للمحسنين يوم الحساب من عظيم الثواب :

لا تهملوا فى الصالحات فانكم لا تجهلون عواقب الاهمال
فتسابقوا الخيرات فهى أمامكم ميدان سبق للجواد النال

---

(١) ديوان النشار : جـ ٣ ، ص ٧٨/ ٧٩ .

والمحسنون لهم على احسانهم يوم الاثابة عشرة الأمثال
وجزاء رب المحسنين يجل عن عد وعن وزن وعن مكيال (١)

★★★

ويقول يستحث القادرين على التعاون فى سبيل ماينفع الناس فيقترح عليهم بعض المشروعات النافعة التى تهيىء فرص الحياة الكريمة للمجتمع:

يا رجال الجد هذا وقته آن أن يعمل كل ما يرى
ملجأ أو مصرفا أو مصنعا او نقابات لزراع القرى
انا لا اعذر منكم من ونى وهو ذو مقدار ، أو قصرا (٢)

ثم يقول مناشدا أهل الثراء أن يبدأوا بملجأ يكفلون فيه الأيتام :

فابدوا بالملجأ الحر الذى جئت للأيدى به مستمطرا
واكفلوا الأيتام فيه واعلموا ان كل الصيد فى جوف الفرا(٣)
أيها المثرى الا تكفل من بات محروما يتيما معسرا

ثم يشوق أهل الخير الى ما أعده الله من حسن الثواب لكافل اليتيم فيقول :

كل من احيا يتيما ضائعا حسبه من ربه أن يؤجرا
انما تحمد عقبى أمره من لأخراه بدنياه اشترى (٤)

★★★

ومما يجدر ذكره فى هذا المقام أن « حافظ ابراهيم » كان رائد الشعراء المحافظين فى الدعوة الى الاحسان ورعاية الفقراء ، وكفالة الأيتام، ومد يد المعونة الى المحتاجين ٠

---

(١) ديوان حافظ : ج ١ ، ص ٧٥ ٠
(٢) ديوان حافظ : ج ١ ، ص ٣١٠ ٠
(٣) أى : ان معونة اليتيم تحمل فى ثناياها جميع الأعمال الصالحة ٠
(٤) ديوان حافظ ابراهيم ج ١ ص ٣١٠ ٠

ويبدو أنه قد كان لما كابده فى حياته من بؤس أثر فى احساسه بالبؤساء ولذلك يقول مستعطفا قلوب الأغنياء على الفقراء :

ذقت طعم الأسى وكابدت عيشا دون شربى قذاه شرب الحمام

فتقلبت فى الشقاء زمانا وتنقلت فى الخطوب الجسام

ومشى الهم ثاقبا فى فؤادى ومشى الحزن ناخرا فى عظامى

فلهذا وقفت أستعطف النا س على البائسين فى كل عام (١)

وفى ديوان « حافظ » كثير من القصائد التى أنشأها فى الدعوة الى البر والاحسان ورعاية الطفل ، واعانة العميان . ومساعدة الجمعية الخيرية الاسلامية وملجأ الحرية وغير ذلك من أبواب الخير التى طرقها « حافظ ابراهيم » بقصائده يستمطر المعروف ويستعطف أهل الخير ويغريهم بما أعده الله للمحسنين من جزيل الثواب .

كذلك كان « عبد المطلب » يستثير نوازع الخير فى قلوب الأغنياء بتصوير أحوال الفقراء وما يلاقون من بؤس وحرمان . ومن ذلك ما يقوله على لسان فقير كثير العيال له جار غنى يتقلب فى ألوان العز واليسار ولكنه لاه بنعمة اليسار عن حق الجوار :

فهل درى جارنا عيالا غرثى الى كسرة قفار

تفت أيدى الغلاء فيهم قد حرموا رحمة التجار

ويلاه مالى وسمت نفسى بميسم الهون والصغار

دعوت من لم يجب دعائى رجوت من لم يقل عثارى

ذهلت لما بكى عيالى عن شيمة السيد الوقار

يا رب أنت الرجاء فيهم يا رازق الوحش فى القفار (٢)

ولا شك أن مثل هذه الصورة الحية المنتزعة من الواقع الأليم الذى كان يعيشه الفقراء فى هذه الفترة من شأنه أن يثير العواطف الجامدة ، ويوقظ المشاعر الغافية ، ويهتف بأهل الخير أن يدركوا البؤساء .

---

(١) ديوان حافظ ابراهيم جـ ١ ص ٢٨٨ .

(٢) ديوان عبد المطلب : ص ٩٢ .

ومن القصائد البليغة التى أثار بها « عبد المطلب » عاطفة الأغنياء بتصوير أحوال الفقراء وما يكابدون من شظف الحياة قصيدته فى « جمعية المواساة الاسلامية التى يقول فيها :

أسالت باكيـــة الدياجي مالهـــا ... أرقت فأرقت النجـــوم حيالها

باتت تكفكف بالوقار مدامعـــا ... غلب الأسى عبراتهـــا فأسالها

ثم يقول مستعطفا قلوب المحسنين :

من ذا يجيـــر على الليـــالى أسرة ... خطف المنـــون غياثها وثمالها

أو من يمد يدا لنصر مصونة ... بذل الزمان قناعها فأذالها (١)

واذا كانت الجمعيات الخيرية ، وملاجىء الأيتام والمشردين ودور رعاية الأطفال والعميان وغيرهم من ذوى العاهة والحاجة ـ تؤدى دورا انسانيا لعدد غير قليل من أفراد المجتمع فان مؤازرة هذه الجمعيـات ومساندتها بالمال وبكل ما يدعم رسالتها ويعينها على أداء دورها الاجتماعى يعد لونا من ألوان الشعر الاجتماعى ذى الصبغة الانسانية الدينية .

ومن ثم حرص الشعراء المحافظون على دعم هذه الجمعيات الخيرية بالدعوة اليها وبيان رسالتها ، والاشادة بما تؤديه من خدمات انســانية وكان « حافظ ابراهيــم » فى مقدمة الداعين الى انشاء هذه الجمعيــات والملاجىء الخيرية .

★★★

وكان ذم البخل والاشادة بالبر ، والتأكيد على حق الفقير فى مال الغنى ، والحث على أداء الزكاة المفروضة وبيان أثرها فى تحقيق التكافل الاجتماعى والقضاء على أسباب الصراع الطبقى .. كان ذلك جزءا من رسالة الشعر الاسلامى المحافظ فى اصلاح الأوضاع الاقتصادية فى مصر الاسلامية .

فيقول « شوقى » يذم البخلاء الذين يصمون آذانهم عن دعوة الخير ويكتمون حق الله فى أموالهم حبا للمال :

---

(١) المرجع السابق : ص ١٧٩ .

ولم أر مثل جمع المال داء ولا مثل البخيل به مصابا
عجيب لمعشر صلوا وصاموا ظواهر خشية وتقى كذابا
وتلفيهم حيال المال صما اذا داعى الزكاة بهم اهابا
لقد كتموا نصيب الله منه كأن الله لم يحص النصابا
ومن يعدل بحب الله شيئا كحب المال ضل هوى وخابا
ولولا البخل لم يهلك فريق على الأقدار تلقاهم غضابا (١)

ويقول :

أرى الكريم بوجدان وعاطفة ولا أرى لبخيل القوم وجدانا (٢)

ويقول « محرم » يذم البخيل ويدعو الى الانفاق سبيلا الى خيرى الدنيا والآخرة :

ولقد تبينت الرجال فلم اجد فى الناس آلام من غنى باخل
ما عذر من رزق الغنى فى قومه ألا يكون اخالهن وفواضل
لبوا بنى مصر دعائى واعلموا أن المفاخر للكريم الباذل
وخلوا نصيبا من ثناء عاجل وثقوا بآخر من ثواب آجل (٣)

ويقول من قصيدة له ينعى على الأغنياء ضنهم على الفقير بالعطاء وحرصهم على المال حرص الشحيح :

ومن للفقير عناه الطوى فبات وامعاؤه تصطخب
ضننتم عليه بنزر العطاء ولم تعرفوا حقه اذ وجب
وقلتم له رازق لا يضن ورزق يطالبه من كثب
مقالة من لا يخاف الوعيد ولا يتقى الله فيما وهب

---

(١) الشوقيات : جـ ١ ، ص ٦٩ .
(٢) الشوقيات : جـ ٢ ، ص ٨١ .
(٣) ديوان أحمد محرم : جـ ١ ، ص ٧٧ .

حرصتم على المال حرص الشحيح فهـلا وأموالـكم تنتهب (١)

★★★

ومن أدب الاسلام فى الاحسان ألا يتبعه من ولا أذى ولا يرتجى فاعله الجزاء من آخذه . وفى هذا يقول الكاشف :

لا أرتجى الاحسان من موسر يمتن بالفضـل على مرتجيه
لا يكتفى أجـرا على صـنعه بريحـه الشكر ولا يرتضيه (٢)

★★★

ويدخل « شوقى » الى النفوس من مداخل الايمان حين يشيد بالبر ويعلى من مكانته بين شعب الايمان اغراء للقادرين بالبر فيقول :

البر من شعب الايمان أفضلها لا يقبل الله دون البـر ايمـانا (٣)

ويمدح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالبر فيقول :

والبر عنـدك ذمة وفريضـة لا منـة ممنـونة وجبـاء (٤)

ويؤكد « شوقى » فى قصيدة أخرى على فضل البر فيقول :

وأن البر خـير فى حيـاة وأبقى بعـد صـاحبه ثوابا (٥)

★★★

والزكاة ركن من أركان الاسلام تحدث عنها القرآن الكريم فى أكثر من آية تنويها بفضلها وأثرها فى حياة الأمة . فلو أننا أدينا زكاة أموالنا كما فرض الله لقضينا على مظاهر البؤس ولنزعنا ما فى صدور الفقراء من غل ، ولأمنا ساحة المجتمع من شرور الفقراء وجرائم البائسين .

---

(١) نشرت فى « وادى النيل » فى ١٩١٥/٤/٤ م .
(٢) ديوان الكاشف : ج ١ ، ص ١٢٨ .
(٣) الشوقيات : ج ٢ ، ٨١ .
(٤) الشوقيات : ج ١ ، ص ٣٨ .
(٥) الشوقيات : ج ١ ، ص ٦٩ .

وقد أثار الشعراء المحافظون هذه المعانى عندما تحدثوا عن الزكاة فى معرض الحث على انفاق المال وتخفيف المعاناة عن الفقراء الكادحين فيقول « حافظ ابراهيم » :

وعلمنا أن الزكاة سبيل الله قبل الصلاة قبل الصيام

خصها الله فى الكتاب بذكر فهى ركن الأركان فى الاسلام

بدأت مبدأ اليقين وظلت لحياة الشعوب خير قوام

لو وفى الزكاة من جمع الدنيا واهوى على اقتناء الحطام

ما شكا الجوع معدم أو تصدى لركوب الشرور والآثام

راكبا رأسه طريدا شريدا لا يبالى بشرعة أو ذمام

سائلا عن وصية الله فيه آخذا قوته بحد الحسام (١)

★★★

ويحذر « الرافعى » من ثورة الفقراء على الأغنياء اذا منع الآخرون حق الأولين فيقول :

يظن الأغنياء الفقر ضعفا وكم من حية تحت التراب

ولا يخشون ممن جاع بأسا وليس أضر من جوع الذئاب

الم تكن السفينة من حديد فما للماء يخرقها بثاب

اذا شمخت على الأمواج تعلو فما بعد العلو سوى انقلاب (٢)

ويقول فى المعنى نفسه من قصيدة أخرى : (٣)

واحفظوا للفقير فضل عفاف تركته بقية الايمان

ان هذا الضعيف مفترس الطبا ع متى ثار جوعه الحيوانى

شرس يضرب الفضيلة فى الجذ ع فتهوى بالجذع والأغصان

★★★

(١) ديوان حافظ ابراهيم : جـ ١ ، ص ٢٨٧

(٢) ديوان الرافعى : جـ ٢ ، ص ٢٦ .

(٣) نشرت « بالمقطم » فى ١٩١٤/١١/٢٤ .

واذا كانت الزكاة كما يقول شوقي : « هي مال الفقير خلستموه ، ورزق المحروم حبستموه وحق العاجز في الحياة بخستموه ، وحكم الله الذي أغناكم قد دستموه » (١) ٠

فان الفقير متى يسترد حقه بالقوة لا يكون معتديا !!

وقد أشار « القاياتي » الى هذا المعنى فقال يخاطب الأغنياء :

في مالكم للمعتفين فريضـــة ... من هب يسلبها فليس بمعتدى (٢)

★★★

ولقـد كان لظهور الدعـوات الاشتراكية والدعاية لها بشـكل أثار آمال الفقراء في غد أفضـل في ظل المذاهب الاقتصادية الجديدة ٠٠ كان لذلك أثره في التفات الشـعراء المحافظين نحو النظام المالي في الاسـلام فأخذوا يشـيدون بنظام الاسـلام في التكافل الاجتماعي وحل مشـكلة الفقراء على نحو لم يعرفه الاشتراكيون الى يومنا هذا ٠ وذلك عن طريق الزكاة التي قررها الاسلام حقا للفقير في مال الغني ٠

وفي هذا يقول «شوقي » يمدح رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ويشيد بنظام الاسلام في المال (٣) :

الاشتراكيون أنت امامهـــم ... لولا دعـاوى القـوم والغلـــواء
داويت متئـدا وداووا طفـرة ... واخف من بعض الدواء الداء
والبر عنـدك ذمـة وفريضـــة ... لا منـــة ممنـونة وجبـــاء
جاءت فوحـدت الزكاة سبيله ... حتى التقى الكرماء والبخـلاء
انصفت أهل الفقر من أهل الغنى ... فالكل في حق الحياة سواء

وقال من قصيدة أخرى : (٤)

أراد الله بالفقـراء بـــرا ... وبالأيتـــام حبـــا وارتيـابا

---

(١) أحمد شوقي : أسواق الذهب ، ص ٩ ٠
(٢) نشرت بالأهالي : في ١٩١٥/٣/٢٦ ــ تحت عنوان (وارحمتاه للعمال العاطلين)٠
(٣) الشوقيات : جـ ١ ، ص ٣٨ ٠
(٤) المرجع السابق : ص ٧٠ ٠

يريد الخـــالق الرزق اشتراكا   وان يك خص أقواما وحابى(١)
فما حـــرم المجد جنى يديه   ولا نسي الشــقى ولا المصابة

★★★

وهكذا أقام الاسلام نظاما اقتصاديا متوازيا يعيش فى ظله الفقير الى جانب الغنى شريكا له فى حـدود الحق المعلوم المفروض له فى مال الغنى ٠ ثم تكون لكل منهما ـ بعد ذلك ـ ثمرة جهده ونتيجة عمله بقدر ما يملك من امكانات وهذا هو العدل الاجتماعى القائم على احترام الحق الطبعى للانســان ٠ وهو ما لم تهتد اليه المـذاهب الاقتصــادية الى الآن ٠

وقد نجح الشعر الاسلامى المحافظ فى لفت الأنظار الى الحل الاسلامى لمشكلة الفقر التى عانى منها الشعب المصرى أسوأ المعاناة ٠ وسوف أعود الى الحديث عن سياسة المال فى الاسلام بشىء من التفصيل عند الكلام عن « الاتجاه الحضارى » فى « الباب الثالث » ٠

★★★

فاذا جزنا هذه المشكلة الاقتصادية الى مشــكلة اجتماعية أخرى ٠ ألفينا قضية التعليم تأخذ مكانهــا بين القضــايا الاجتماعية المهمة التى استلفتت أنظار المصلحين وكان للشعر المحافظ فيها دور بارز وفكر موصول بالاسلام وبدعوته الى العلم ٠

وكانت مشكلة التعليم فى مصر قد تضاعفت فى ظل سياسة الانجليز الذين وضعوا الخطط للحد من ازدياد التعليم حتى تتوقف عجلة التطور الاجتماعى فى مصر وكان القائمون على أمر التعليم من الانجليز فى هذه الفترة « يعتقدون أن تعليم القراءة والكتابة فيه الكفاية بالنسبة لسواد الشــعب ، وأن بعض الموظفين الكتابيين يكفون لســد حـاجة المصــالح الحكومية » (٢) ٠

---

(١) يريد : ميزهم بقدر جهدهم ٠ ولكن التوفيق جانبه فى اختيار اللفظ المعبر ويبدو أن القافية قد اضطرته الى ذلك اللفظ ٠

(٢) د٠ حسن الفقى : **التاريخ الثقافى للتعليم فى مصر** ، ص ١٠٧ ٠

وقد جاء في تقرير « كرومر » سنة ١٨٩٩ عن التعليم أن الحكومة ترمى الى غرض ذى شقين فأما الشق الأول فهو فى أن تنشر على أوسع نطاق ممكن لونا بسيطا من التعليم ينحصر فى الالمام بمبادىء اللغة العربية والحساب ، وأما الشق الثانى فهو الرغبة فى اعداد طبقة متعلمة تعليما راقيا يفى بمطالب الخدمة فى الحكومة (١) .

ولا شك فى أن هذه السياسة التعليمية التى استهدفت تخريج آلات صم للعمل فى مكاتب الحكومة . قد أفقدت التعليم روحه المعنوية مما آثار انتقاد الانجليز أنفسهم . يقول (السير فالنتين تشيرول) فى كتابه « المسألة المصرية » : « لقد كانت سياستنا التعليمية تفتقر الى الروح المعنوية والالهام القوى لأننا تركناها فى يد مستشار وزارة المعارف مستر « دانلوب » وكان « دانلوب » حسن النية دءوبا على الجد والعمل غير أن آراءه في التربية لم تتعدد ما كانت توحى به تلك الدروس التربوية التى تلقاها في حداثته » (٢) .

ويقول مستر (بويد كاربنتر) : « على المستر « دانلوب » تقع تبعة فساد التعليم المصرى والرجوع به القهقرى واخراج موظفين جل اعتمادهم فى أثناء دراستهم على الاستظهار والحفظ لا على القوى العقلية السامية الأخرى من التعقل والموازنة والابتكار والاستنباط (٣) .

وكان من نتيجة هذه السياسة التعليمية أن ساءت حالة التعليم فى مصر كما وكيفا أما فى الكم فيكفى للدلالة عليه أن نسبة المتعلمين فى مصر قد تضاءلت الى النصف فى عهد « كرومر » على الرغم من جهوده فى نشر التعليم ومحو الأمية حيث ابتداء عهده فى سنة ١٨٨٣ ونسبة المتعلمين من الذكور بمصر ١٦٪ ورحل عن مصر سنة ١٩٠٧ ونسبة المتعلمين لا تزيد عن ٨٪ (٤) .

كما أن نسبة الأمية قد بلغت فى سنة ١٩١٧ (٣ر٩١٪) (٥) .

هذا من ناحية الكم . أما من ناحية الكيف فحسبنا ما يذكره الامام (محمد عبده) عن فساد التعليم فى المدارس الحكومية والأهلية حيث يقول :

---

(١) المرجع السابق : الصفحة نفسها .
(٢) عمر الدسوقى : فى الأدب الحديث ، ج ٢ ، ص ١٧ .
(٣) المرجع السابق : ص ٢٢ .
(٤) المرجع السابق ، ص ١٨ .
(٥) د. حسن الفقى : التاريخ الثقافى للتعليم فى مصر ، ص ٩٠ .

« وأما مدارس الحكومة والمدارس الأهلية فليس فيها الا تعليم تقليدى صورى فى شكله وموضوعه للمدارس الأوربية ، وغايته تخريج موظفين للحكومة فى جميع وزاراتها ومصالحها يكونون كالآلات الميكانيكية لادارة هذا العمل الكبير . وليس فيها شىء مما فى المدارس الأوربية من تخريج رجال مستقلين فى العلوم والفنون يرفعون قدر الأمة بما يكشفون من أسرار الكون ، وما يرقون من الصناعات فيها ، كما أنه ليس فيها أدنى فكرة فى تهذيب الأخلاق ورفع شأن الفضيلة بالتربية الدينية وقد صار أمرها الى الانجليز وكان المسيطر عليها أحد قسوس البروتستانت فكان جل همه محو كل أثر اسلامى » (١) .

ولذلك دعا الامام « محمد عبده » الى اصلاح التعليم والعناية بالتربية الاسلامية الصحيحة ايمانا منه بأن الأمة لا تتكون وتكون أمة واحدة فى شعورها بحياتها المالية ، ومصالحها العامة ، وبحاجتها الى التعاون على منافعها والدفاع عن حقيقتها فى جميع طبقاتها . الا اذا كانت التربية والتعليم للاحداث موجهين الى اصلاح الأنفس بالعقائد الصحيحة والأخلاق الكريمة ، والآداب الحسنة ، والقيام بحقوق الله ، وحقوق الوالدين والأقربين والجيران فسائر الأمة (٢) .

وفى سبيل اصلاح التعليم تقدم الامام « محمد عبده » بمشروع تضمن مناهج للدراسات الاسلامية تتمشى وما يحتاج اليه الخاصة والعامة من الأمور المهمة والضرورية لغذاء أرواحهم وتكوين الوعى الاسلامى بينهم أجمعين (٣) .

وفى سبيل نشر التعليم فى مصر دعا الامام « محمد عبده » الأغنياء الى الاسهام فى تعليم الأمة عن طريق التبرع . وبذل الأموال فى سبيل افتتاح المدارس والمكاتب فقال : « على الأغنياء منا الذين يخافون من تغلب الغير عليهم ، وتطاول الأيدى الظالمة اليهم أكثر من الفقراء أن يتآلفوا ويتحدوا ويبذلوا من أموالهم فى سبيل افتتاح المدارس والمكاتب واتساع دوائر التعليم حتى تعم التربية ، وتثبت فى البلاد جراثيم العقل والادراك وتنمو روح الحق والصلاح ، وتتهذب النفوس ويشتد الاحساس بالمنافع والمضار فيوجد من أبناء البلاد من يضارع بنى غيرها من الأمم فنكون عند ذلك معهم فى رتب المساواة ، لهم ما لنا وعليهم ما علينا » (٤) .

---

(١) تاريخ الامام محمد عبده : جـ ١ ، ص ٧٥٠
(٢) المرجع السابق : ونفس الصفحة .
(٣) تاريخ الامام محمد عبده : جـ ٢ ، ص ٥٠٥ / ٥٥٣ .
(٤) تاريخ الامام محمد عبده : جـ ١ ، ص ١٥٠ .

وكان زعماء الحركة الوطنية فى مصر حريصين على نشر التعليم بين طوائف الشعب ايمانا منهم بجدوى العلم وأثره فى نهضة الأمة ، وكانوا على وعى بسياسة الاحتلال فى اخماد جذوة العلم فى مصر • ومن ثم اقترن الكفاح الوطنى فى هذه الفترة بالدعوة الى التعليم فكان زعماء الحركة الوطنية يقاومون الاحتلال ويدعون فى نفس الوقت الى انشاء المدارس وانتشار التعليم فدعا « محمد فريد » الى انشاء مدارس الشعب الليلية لتعليم العمال الفقراء مجانا ، كما دعا الى انشاء مدرسة ثانوية بعاصمة كل مديرية أو محافظة على الأقل (١) ، ودعا ـ كذلك ـ الى الاهتمام بالتعليم العالى ليتمكن خريجو المدارس العليا من خدمة بلادهم فى ميادين الطب والهندسة والاقتصاد والثقافة (٢) •

★★★

وفى هذه الحقبة شهدت البلاد ميلاد الجامعة الأهلية التى افتتحت سنة ١٩٠٨ بفضل جهود المخلصين من أبناء الوطن الذين تحدوا ارادة الاحتلال فى ابطال فكرة الجامعة بدعوى ان البلاد فى حاجة الى الكتاتيب أكثر منها الى الجامعة ولكن الجهود الوطنية المخلصة قد تضافرت حول فكرة الجامعة واشتدت حركة الاكتتاب لها ، وزاد اقبال الجماهير على تأييدها حتى برزت الجامعة الى حيز الوجود سنة ١٩٠٨ •

وفى كل مراحل العمل الجماعى من أجل النهوض بالتعليم فى مصر كان الشعر المحافظ شريكا فى حركة الاصلاح الاجتماعى والدعوة الى نشر التعليم ، وبذل المال فى سبيله وبيان فضل العلم وأثره والحث على طلبه •

يقول « حافظ ابراهيم » يحث الأغنياء على بذل المال فى سبيل الجامعة الأهلية مبينا أثرها فى حياة المجتمع :

ان كنتم تبذلون المال عن رهب … فنحن ندعوكم للبذل عن رغب

ثم يهجم على سياسة الاستعمار التى تستبدل الكتاتيب بالجامعة مع أن الكتاتيب مهما كثرت لا تغنى عنها فيقول :

ذرا الكتاتيب منشيها بلا عدد … ذر الرماد بعين الحاذق الأرب

فانشأوا ألف كتاب وقد علموا … أن المصابيح لا تغنى عن الشهب

---

(١) راجع : حسن الفقى : المرجع السابق ، ص ١٣٢ •

(٢) راجع : عبد الرحمن الرافعى : محمد فريد ، ص ٩٠ •

ثم يبين أثر الجامعة فى حياة المجتمع من خلال من تخرجهم الجامعة من الأطباء والمهندسين والحقوقيين والمعلمين وغيرهم من المتخصصين فى فروع العلم · فيقول :

من المداوى اذا ما علة عرضت — من المدافع عن عرض وعن نشب
ومن يروض مياه النيل ان جمحت — وأنذرت مصر بالويلات والحرب
ومن يوكل بالقسطاس بينكم — حتى يرى الحق ذا حول وذا غلب
ومن يبز أديم الأرض ما ركزت — فيها الطبيعة من بدع ومن عجب
ومن يميط ستار الجهل ان طمست — معالم القصد بين الشك والريب

الى أن يقول :

فما لكم أيها الأقوام جامعة — الا بجامعة موصولة السبب
هذا هو العمل المبرور فاكتتبوا — بالمال انا اكتتبنا فيه بالأدب (١)

★★★

« ولحافظ ابراهيم » قصيدة أخرى (فى الحث على مشروع الجامعة) (٢) حث فيها الأغنياء على البذل والعطاء ، وتعمير دور العلم واعتبار ذلك واجبا دينيا يحاسب عليه المرء يوم لا ينفع مال ولا بنون · وبين ان الانفاق فى سبيل هذا العمل الخيرى هو قرض لله تعالى يجزى عليه بالأجر الجزيل كما يجزى المجاهدين فيقول :

حياكم أحيوا العلم والأدبا — ان تنشروا العلم ينشر فيكم العربا
وراقبوا يوم لا تغنى حصائنه — فكل حى سيجزى بالذى اكتسبا
ان تقرضوا الله فى أوطانكم فلكم — اجر المجاهد طوبى للذى اكتتبا

★★★

ويشيد « شوقى » بآثار العلم فيصوره وسيلة للقوة والفوز والسعادة والسيادة ويصوره سياج الأمة وحاسنها وحاميها ولا عجب

---

(١) ديوان حافظ ابراهيم : ج ١ ، ص ٢٦٥ ·
(٢) المرجع السابق : ج ١ ، ص ٢٧٢ ·

فالعلماء بآرائهم واختراعهم وتدبيرهم ينهضون بشئون الوطن ومرافقه ويذودون عنه ويحمونه من الغاصبين كما تحمى الأسود عرينها (١) يقول شوقى فى ذلك :

بالعلم تمتلك الدنيا ونضرتها ... ولا نصيب من الدنيا لجهال
والعلم يعتصم الملك الكبير به ... كالغاب ما بين أساد وأشبال (٢)

ويقول من قصيدة أخرى : (٣)

والعلم فى فضله أو فى مفاخره ... ركن الممالك صدر الدولة الحالى
اذا مشت أمة فى العالمين به ... أبى لها الله أن تمشى بأغلال

ويقول من قصيدة له فى رثاء « قاسم أمين » : (٤)

بالعلم يبنى الملك حق بنائه ... وبه تنال جلائل الاخطار
ولقد يشاد عليه من شم العلا ... ما لا يشاد على القنا الخطار

ويقول يستحث الخديو « عباس الثانى » على الاهتمام بالعلوم والعمل على نشر التعليم مؤكدا أنه لا قيمة للسلطان بغير العلم :

فانصر بهمتك العلوم واهلها ... ان العلوم قليلة الانصار
لا يظهر الكبراء آية عزهم ... حتى يعزوا آية الأفكار (٥)

وقال يحث القادرين على الاسهام فى تعليم أبناء الأمة :

فعلم ما استطعت لعل جيلا ... سيأتى العجب العجابا (٦)

---

(١) راجع : د. أحمد الحوفى : تحت راية الاسلام ، ص ٢٢٦ .
(٢) ديوان شوقى : جـ ١ ، ص ٥٠٦ تحقيق : د. الحوفى .
(٣) ديوان شوقى : جـ ٢ ، ص ٥١٢ تحقيق : د. الحوفى .
(٤) المرجع السابق : ص ٢٧٠ .
(٥) ديوان شوقى : جـ ١ ، ص ٤٧٠ تحقيق : د. الحوفى .
(٦) المرجع السابق : ص ٦٠٦ .

كمـا حذرها من اهمـال التعليم لان العلم حيـاة النفوس والجهل موتها :

(١)

الجهل موت فان أوتيت معجزة فابعث من الجهل أو فابعث من الرجم

ويقـول :

ترك النفوس بلا علم ولا أدب ترك المريض بلا طب ولا أسى (٢)

وفى الحث على طلب العلم يقول « محمد عبد المطلب » :

ان كنت تبغى المعـالى فالعـلم أهـدى سـبيلا
واظـب عليـه مجـدا واطلبـه دهـرا طـويلا
كن بالعـلوم ولوعـا تـرق المقـام الجليـلا
فأحقـر النـاس مـن قـد طـوى الحيـاة جهـولا
العـلم للمجـد بـاب يا مـن يـروم الدخـولا (٣)

★★★

ويقول « أحمد الزين » : (٤)

ان العـلوم ترفـع المملوكا حتى تراه يفضـل الملوكا (٥)
وليس يرفـع الفتى بأهـله وماله أن يتضـع بجهـله
فاطلب العلم ولو بالصين لا تـك عـن طـلابه بالدون

★★★

والعلم سلاح فى يد الشعب يصون كرامتها ويحمى حماها ، يقول « الغاياتى » :

ان فى قبضة الشعوب حساما صادق البأس ماضى العـزمات
يـدع الخـامل الجبـان شجاعا ويبث الحيـاة فى الأمـوات

---

(١) الشوقيات : ج ١ ص ٢٠١ .
(٢) ديوان شوقى ج ٢ ص ٦٠ .
(٣) ديوان عبد المطلب : ص ٢١٥ .
(٤) ديوان أحمد الزين : قلائد الحكمة ، ص ٢٩٠ ؛
(٥) فيه اشارة الى الحديث الشريف « ان الحكمة تزيد الشريف شرفا وترفع المملوك حتى يبلغ درجة الملوك .

ويجبر البـــلاد من نكبات ويجـــر العـــدا الى نكبـات
ذلك العـلم فاتخذه ســلاحا يا فتى النيل فهو حرب العداة (١)

والعلم في الاسلام ينبغي أن يطلب لله وأن يكون أداة خير لا وسيلة افساد يقول « أحمد الزين » (٢) :

لا تبتغ العـــلم لغـــير الله ولا يكن همك كسب الجـــاه
لا تبغـــه لطلب الحطـــام فانه من خـــلق الطغـــام
لا تتخـــذه سـلم الافســـاد ان كنت ذا عقل وذا ســـداد (٣)

★★★

فاذا اتخذ العلم وسيلة للافساد ، وأداة للتدمير ، وقوة للباطل • فان الاسلام يرفضه رحمة بالناس • وهذا ما يشير اليه « شوقي » في قصيدته (الطيارون الفرنسيون) (٤) اذ يقول عن الطائرة :

رب ان كانت لخـــير جعلت فاجعـل الخير بناديها لزامـــا
وان عتـــز بهـــا الشر غـــدا فتعـالت تمطـر المـوت الزؤاما
فاملأ الجـــو عليهـــا رجمـــا رحمـة منـك وعدلا وانتقاما(٤)

ويقول « شوقي » يحمل العلماء وزر محدثات العلم التي الحقت الأذى والدمار بالناس :

يتقاذفون بذات هـول لم تهب حـرم المسيح ولا حمى العـذراء
من محـدثات العلم الا أنهـــا اثـــم عواقبها على العلمـاء (٥).

★★★

---

(١) ديوان الغاياتي : وطنيتي ، ص ٩٣ •
(٢) ديوان : أحمد الزين : قلائد الحكمة ، ص ٣٥ •
(٣) الشوقيات : جـ ٢ ، ص ٨٨ •
(٤) الشوقيات : جـ ٢ ، ص ٨٨ •
(٥) الشوقيات : جـ ٣ ، ص ٣ •

وقيمة العلم انما تكمن فى العمل به يقول « أحمد الزين » : (١)

واعمل بما علمته من علم تعمل به فوق متون النجم
فاطلب العلوم للأعمال لا للشهادات وكسب المال
ليست شهادات الغنى الأوراق لكنما الشهادة الأخلاق

ويقول « محرم » (٢)

والعلم ان لم تكتنفه شمائل فاقهر بها دولة الأهواء والفتن

ويقول « حافظ ابراهيم » : (٣)

والعلم ان لم تكتنفه شمائل تعليه كان مطية الاخفاق
لا تحسبن العلم ينفع وحده ان لم يتوج ربه بخلاق

★★★

وآفة العلم الادعاء فهو جناية عليه وعلى صاحبه · يقول « أحمد الزين » محذرا من هذا الشر : (٤)

اياك وادعاء ما لم تعلم فانه مجلبة التندم
تجنى على العلم بما ادعيت شرا وما لم تعلم
فآفة العلوم أدعياؤها ان الدعاوى ليس يؤسى داؤها
ولا تقل جمعت علما جما ان رمت أن تبعد عنك الذما

★★★

والعالم لا ينبغى أن يضن بعلمه على الناس ، بل عليه أن يؤدى شكره بتعليمه الجهال مبتغيا بذلك رضاء الله تعالى :

---

(١) ديوان أحمد الزين : قلائد الحكمة ، ص ٢٩ ·
(٢) ديوان أحمد محرم : جـ ٢ ، ص ٩٧ ·
(٣) ديوان حافظ ابراهيم : جـ ١ ، ص ٢٨٠ ·
(٤) أحمد الزين : قلائد الحكمة ، ص ٣٢ ·

من ضن بالعلم على الجهال أبخل ممن ضن بالأموال
فاستبق فضل العلم بالتعليم وذاك غرس الفهم بالتفهيم
علمه لا تبغ به جزاء ولا ترم حمدا ولا ثناء
لا تبغ بالتعليم ذخرا لجاه فانما الزخر رضاء الله(١)

★★★

وليس من شك فى أن هذه الأفكار التى أثارها الشعر المحافظ حول موضوع العلم والتعليم موصولة بالاسلام وبدعوته الى العلم والحث على طلبه فى اطار من الأخلاق والفضيلة والرغبة فى نوال الأجر من الله تعالى ٠

وبهذه الأفكار والمعانى الاسلامية شارك الشعر المحافظ فى حل مشكلة التعليم فى مصر ٠

★★★

وكما شارك الشعر المحافظ فى شرف الدعوة الى الاصلاح الاجتماعى بفكر موصول بالاسلام فى قضايا المرأة والاقتصاد والتعليم ٠ شارك كذلك فى قضية الشباب الذين اجتاحتهم موجة التقليد للأجانب وخطفت أبصارهم حضارة الغرب المادية ٠ فتمردوا على تقاليد المجتمع واستخفوا بتعاليم الدين وتحللوا من قيود الفضيلة ٠

واذ ذاك تصدى المصلحون يؤازرهم الشعراء لهذه الظاهرة الخطيرة واضطلع الشعراء المحافظون برسالتهم فى الدعوة الى الاصلاح الاجتماعى منتهجين فى دعوتهم لاصلاح الشباب أساليب متعددة ٠

منها أسلوب النقد والتقريع لهؤلاء الشباب المخنثين بهدف التأثير عليهم لتغيير سلوكهم الاجتماعى الممقوت ٠ على نحو ما رأينا فى الفصل السابق من هذا الباب (٢) ٠

ومنها الدعوة الى الاقتداء بعظماء الاسلام ولفت أنظار الشباب الى ما فى تاريخ المسلمين من مجود وحضارة ٠٠ وسوف نزيد هذه المسألة ايضاحا عند الحديث عن « الاتجاه الحضارى » فى الباب الثالث ٠

---

(١) أحمد الزين : قلائد الحكمة ، ص ٣٢ ٠
(٢) انظر : ص ١٠١ من هذا البحث ٠

ومنها الدعوة المباشرة الى التمسك بالدين والتخلق بأخلاق الاسلام الحميدة . ومن ذلك ما يقوله « أحمد محرم » يحث على التمسك بالدين والاعتصام بحبله المتين :

هل الدين الا معقل نحتمي به ... اذا دلف العادى الينا فأسرعا
هو الدين ان يذهب فلا عز بعده ... وان جد ساعينا على اثر من سعى
ولا دين حتى ينزعوا عن ضلالهم ... ويصبح منهم موطن الغى بلقعا
وحتى يصونوا للكتاب زمامه ... وحتى يكونوا ساجدين وركعا
هنالك يقوى منهم ما تضعضعا ... ويثبت من بيانهم ما تزعزعا (١)

ويقول « الكاشف » يدعو الى التمسك بتقاليد الدين لأنه خير منهج للحياة : (٢)

بني الشرق ؟ أدعوكم الى خير منهج ... يعيد اليكم نضرة العيش ثانيا
أسركم ان المحارم تستبى ... ولم تلق فيكم عن حماها محاميا ؟
وأعجبكم أن الطرائق تعتفى ... ولم نر منكم يا بنى الشرق واقيا
وان لكم سيفا من الدين ماضيا ... يفل اذا جردتموه المواضيا
وأحيوا به نهج النبى وجددوا ... مقاما لدين الله أصبح باليا
وردوه حتى تستعيدوا شبابه ... نضيرا والا عاش ظمآن ذاويا
فارضوه عنكم بانتهاج طريقه ... فما أجمل الدنيا اذا بات راضيا
هنالك نحيا فى نعيم ونضرة ... ونأمن عدوان العدى والليا ليا

★★★

ويقول « عبد المطلب » يرغب الناشئة فى مكارم الأخلاق :

ابنى بالأدب اعتصم ... واعمل كأعمال الكرام
من لازم الأدب ارتقى ... بين الورى أعلى مقام

---

(١) ديوان محرم : جـ ١ ، ص ١١٣ .
(٢) ديوان الكاشف : جـ ١ ، ص ٩١ .

لا عـــز فى الدنيـــا بغيـــر أخى الوقـــار والاحتشـــام
ابنى بالصــــــدق أدرع فالصـــــدق محمـــدة الكرام
واحـــلم فان الحـــلم صـــا حبـــه هـــو الرجـل الهمـــام
واقنـــع فليس أخـــو القنـــا عـــة فى الردى أبـــدا يضـــام
وذر الخيــــانة للخئـــــو ن فانهــــــا عيـــب وذام (١)

★★★

ويقول « نسيم » يدعو الى غض البصر كما أمر الله :

غضـــوا كأمر الله من أبصاركم تحيـــوا العفاف وتقتلوا الآثاما (٢)

ويقول « أحمد محرم » يدعو الشباب الى بر الوالدين كما أوصى الله سبحانه وتعالى : (٣)

للوالدين حقـوق غـير خافيـة أوصى بهـا الله تبيانا وتعليما
فلا تعقهما ان كنت ذا أدب ولا تغبهمـــا بـــرا وتعظيمـا
اذكر صنيعهما .اذ أنت بينهما بموضـع القلب وما تنفك ملزوما
اذكر وما بك نسـيان لحقهما ما كان فى محكم التنزيل مرقوما
اذكر قرارك فى جنبيى معذبة تغذوك من دمها حبـا وتكريما

الى غير ذلك من ألوان الدعوة المباشرة الى حسن الخلق وفضـائل الأعمال التى دعانا اليها الدين الحنيف .

★★★

وهكذا عالج الشعر المحافظ فى مصر قضية الشباب بروح اسلامية مشاركا بذلك فى شرف الدعوة الى الاصلاح الاجتماعى .

---

(١) ديوان عبد المطلب : ص ٢٧٨ .

(٢) ديوان نسيم : ج ٢ ، ص ٥٧ .

(٣) ديوان محرم : ج ١ ، ص ١٤٧ .

ولقد يمكننا فى ضوء ما تقدم أن نثبت بعض الملاحظات :

أولا : أن الشعر المحافظ فى هذه الفترة كان نبض الجماهير وصوته الأمة فى جهادها ضد الجهل والفقر والتخلف وعوامل الانحلال ٠

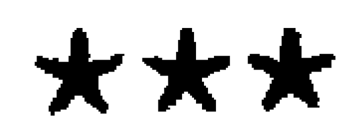
وأن الشعراء المحافظين قد أدوا رسالتهم فى اصلاح المجتمع ونهضته جنبا الى جنب مع المصلحين الذين احتفظ لهم التاريخ بالذكر الحسن ٠

ثانيا : أن الشعراء المحافظين لم يهيموا فى أودية الخيال وشعوبهم تتلوى جوعا وتئن تحت وطأة المشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ـ صنع غالب شعرائنا فى هذا العصر ـ وانما نسوا ـ الى حد ما ـ ذواتهم وانغمسوا فى تيار الحياة الاجتماعية موقنين بأن من انسانية الشاعر أن يكون فى قومه نغما شاديا تستريح اليه نفوسهم وتستجيب له عواطفهم وتتلاقى عنده آلامهم وآمالهم ٠ وأن من أمانة الكلمة أن تكون لوجه الحق، ولخير المجتمع ٠ ومن ثم كان عطاؤهم فى هذا الميدان الاجتماعى كبيرا ٠

ثالثا : أن ما أشرت اليه من أفكار الشعراء حول قضايا المرأة والمال والتعليم والشباب انما يختص بما يقع منها فى فترة البحث فحسب وأن ما طرحه الشعراء فى هذه الفترة من أفكار اسلامية لم يكن غاية جهادهم الاسلامى فى ميدان الحياة الاجتماعية بل كانت لهم آراء وأفكار اسلامية أخرى نبعت من وحى الظروف والمتغيرات الاجتماعية الجديدة ٠

بمعنى أننا لو مددنا هـذه الدراسة الى فترة تالية لوجدنا أفكارا ومضامين جديدة ٠ وهذا يدل على أن الشعر المحافظ لم يجمد فى مواجهة الأحداث والظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المتجددة ٠

ولعلى بهذه الاشارة الى محدودية الأفكار فى فترة البحث أنفى عن شعرائنا المحافظين ما قد يتهمون به من سطحية الأفكار وضآلة الثقافة ، مؤكدا أن بواكير القضـايا ـ كثـيرا ما ـ يغلب عليهـا طابع العمـوم والسطحية ٠



الباب الثالث

الاتجاه الحضاري



ويشتمل على فصلين

الفصل الأول :

الاشادة بالحضارة الاسلامية

الفصل الثانى :

التعريف بالاسلام فى مواجهة التحديات

الفصل الأول

الاشادة بالحضارة الاسلامية

اتجه الشعراء المحافظون نحو الحضارة الاسلامية يشيدون بعطائها ويمجدون بناتها ويهتفون بالاسلام الذى صنعها ، وبالأمة التى حملتها الى الناس فأخرجتهم من ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام ، ومن بداوة الأخلاق والسلوك الى حضارة القيم وانسانية الانسان .

وكان هذا الاتجاه نحو الحضارة الاسلامية ــ فيما يبدو لى ــ محاولة لرد اعتبار المسلمين فى هذه الفترة التى كان الشرق الاسلامى فيها يتردى فى مهاوى التخلف والجمود . ويترنح تحت ضربات الاستعمار ، وتتهاوى أعلامه تحت أقدام الغزاة . وتعجز امكاناته عن المواجهة المتكافئة مع الحضارة الغربية الناهضة . وكانت مصر من بين البلاد الاسلامية التى سقطت فى قبضة الاحتلال وانخرطت فى سلك التبعية والقهر وتوارت فى ظلام التخلف واليأس .

وفى ظل هذه الظروف أحس المسلمون بشىء غير قليل من المهانة والضعف فاستداروا نحو التاريخ الحضارى للمسلمين فى الماضى يستلهمون من صفحاته المضيئة ما يرد الى المعاصرين ثقتهم بأنفسهم . وأملهم فى استعادة ما كان لهم من ماض مجيد ، وحضارة باهرة .

وبذلك كان الاتجاه نحو الماضى نوعا من مقاومة الاحساس بالهزيمة والضعف واستعلاء على الحاضر المهين باستدعاء صور الحضارة المشرقة من الماضى العزيز رفضا للواقع الأليم ، وتمردا عليه ، وحفزا للهمم ، وشحذا للعزائم واستنفارا للطاقات الكامنة فى النفوس .

ثم كان هذا الاتجاه – من قبل ومن بعد – رد فعل لتيار العداء للاسلام الذى تزايد فى هذه الفترة ، وظهرت آثاره فى كتابات الساسة والمفكرين من زعماء الغرب الذين تجرأوا على الاسلام ، وصوبوا اليه سهام نقدهم متخذين من واقع المسلمين دليلا على تخلف الاسلام وبداوته وعدم صلاحيته للحياة المدنية المتحضرة .

ومن ذلك ما كتبه « كرومر » طعنا فى الدين : « ان الاسلام ناجح كعقيدة ولكنه فاشل كنظام اجتماعى ، فقد وضعت قوانينه لتناسب الجزيرة العربية فى القرن السابع الميلادى – ان الاسلام دين مناف للتجديد ولم يكن صالحا الا للزمن والمحيط اللذين وجد فيهما أن المسلمين لا يمكن أن يرقوا فى سلم الحضارة والتمدن الا بعد أن يتركوا دينهم وينبذوا القرآن وأوامره لأنه يأمرهم بالخمول والتعصب ، ويبث فيهم روح البغض للاغيار ، والشقاق وحب الانتقام وأن الاسلام على الجملة هو العقبة الكؤود فى سبيل رقى الأمة الاسلامية » (١) .

★★★

وليس يخفى – بطبيعة الحال – ما وراء هذا الكذب على الاسلام من رغبة فى تمزيق وحدة المسلمين واضعاف ثقتهم بهذا الدين الذى يعرف الغرب أنه مصدر قوة المسلمين وأنه العقبة الكؤود فى وجه الزحف الاستعمارى على بلاد الاسلام .

وكان ادراك المسلمين لهذه الحقيقة دافعا لهم الى الذود عن حياض الاسلام والرد على مطاعن الخصوم وتفنيد مزاعمهم واثبات أن الاسلام روح المدنية (٢) .

ولقد يكون من الانصاف للاسلام أن نحتكم الى التاريخ الذى لا تكذب أسانيده فى الدلالة على ما كان للمسلمين من حضارة وأنشأها الاسلام وأمدها بقيمة ورعاها المسلمون حتى رعايتها حتى أثمرت واينعت وعم خيرها المشرق والمغرب .

---

(١) راجع : ★ أنور الجندى : **الاسلام فى معركة « التغريب »** ، ص ٦٣ .

★ د. محمد محمد حسين : **الاتجاهات الوطنية** ، ج ١ ، ص ٢٤٠ .

(٢) من أهم ما صدر فى مقام الرد على مزاعم « كرومر » حينئذ :

★ **اللورد كرومر والاسلام** – ردود وملاحظات « لمحمد فريد وجدى » سنة ١٩٠٧ .

★ **الاسلام روح المدنية** – أو – الاسلام واللورد كرومر ، « لمصطفى الغلايينى » بيوت ، سنة ١٩٠٨

فمن المسلمات التاريخية لدى كثير من الباحثين أن الحضارة الإسلامية كانت قد بلغت قمة مجدها الأدبى والمادى بينما كانت أوروبا تعيش عصر الظلام والتعميم وتحيا حياة البداوة والهمجية ، وأنه فى الوقت الذى كان المسلمون فيه يرفلون فى حلل الحضارة وينعمون بحياة المدنية والرفاهية، ويستظلون بلواء العدالة والحرية والأمن ويعكفون على مدارسة القرآن الكريم وعلوم اللغة وآدابها ، ويترجمون علوم الأمم وآدابها وفلسفاتها الى اللغة العربية ــ فى هذا الوقت ــ كان الغربيون متوحشين جاهلين لا يعرفون طعم الراحة ، ولا يتذوقون عيش الرفاهية ، لا أمن ولا ادارة ملوك يعرفون واجبهم فى اقامة العدل وتوطيد الأمن وهم فى كل أحوالهم الى حالة البوادى أقرب منهم الى حياة المدن والحضارة » (١) .

وبينما كانت كتب الفلسفة والعلوم المادية والأدبية يتنافس فيها علماء العرب فى بغداد وقرطبة وتترجم للمنصور العباسى الكتب من اللغة العجمية الى اللغة العربية وتخرج الى الناس وآرائهم من تقدم وتأخر من الفلاسفة ، الأول من بنى عباس يشرفون على علوم الناس وآرائهم من تقدم من الفلاسفة وغيرهم من الشرعيين وتجرى فى مجالسهم مباحث فى أنواع العلوم من العقليات والسمعيات فى جميع الفروع والأصول .. بينما كان الحال على هذا النحو كان « شارلمان » أعظم ملوك أوروبا وهو معاصر للرشيد العباسى أقرب الى الأمية منه الى النور يحاول أن يتعلم ويتحبب الى الآداب تحببا ساذجا كما يحب غير المتعلمين أن يروا أحيانا السطور المكتوبة (٢) .

ويوم كانت المدنية الاسلامية فى أسبانيا زاهرة باهرة كانت المراكز العلمية الوحيدة فى عامة بلاد الغرب عبارة عن مجموعة أبراج يسكنها سادة ، متوحشون يفخرون بأنهم لا يقرأون وكان أكثر رجال النصرانية معرفة من الرهبان المساكين الذين يقضون أوقاتهم فى أديارهم ليكشطوا كتب الأقدمين النفيسة بخشوع (٣) .

وفى الوقت الذى كان الفن الاسلامى يقدم نماذج رائعة للعمارة الاسلامية كما تشهد بذلك آثار المسلمين فى الجامع الأموى بدمشق ، وفى قصر الحمراء ومسجد قرطبة ومسجد الزهراء بالأندلس « كانت الدور

---

(١) محمد كرد على : **الاسلام والحضارة العربية** ، جـ ١ ، ص ١٨٧ .

(٢) **المرجع السابق** ، ص ١٨٣ / ١٩٠ .

(٣) دغوستاف لوبرن : **حضارة العرب** .. ص ٥٦٦ .

في لندن وباريس أكواخا صغارا والقلاع والأبراج والكنائس لا هندسة لهـــا » (١) ٠

وليس من قبيل المبالغة ما يؤكده الباحثون من أن النهضة الاسلامية الباكرة كانت شاملة لكل ألوان الحضـــارة العلمية والعملية أو العقليـــة والمـــادية ٠

فالى جانب ما تقدم من ألوان النهضة العلمية وتشجيع الخلفاء للعلم والعلماء وعنايتهم بالترجمـــة من علوم وفلسفات الأمم الى اللغة العربية وحرصهم على جمع الكتب الى الحد الذى جعل المأمون العباسى يطلب الى ملك الروم لما غلبه ٠ كتب العلم التى عنده (٢) الى جانب هذه النهضة العلمية ٠ كانت هناك نهضة عمرانية تمثلت فى البناء والتشييد وأعمال الهندســـة كما تمثلت فى الزراعة والصـــناعة وكان الوليد بن عبد الملك الأموى ممن عنوا بالبناء والعمران وأنفقوا فى ذلك كثيرا من الأموال فقد توسع فى اقامة المصانع والجوامع وزين مسجد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم وكاتب ملك القسطنطينية فبعث اليه أربعين رجلا من الروم وأربعين رجلا من القبط ووجه اليه أربعين ألف مثقال ذهبا وأحمالا من الفسيفساء وحلى المسجد بالفضة والذهب وفرشه بالمرمر وكذلك فعل الوليد فى الحرم المكى والجامع الأموى فقد أنفق على جامع دمشق خمسة ملايين وستمائة ألف دينار وجلب له مائتى عامل من الروم وكان من خلفائهم فى الأندلس فى باب العمران ما هو عجيبة الايام والدهور (٣) ٠

ويعترف المؤرخ الفرنسى « لا ريل » فى كتابه (مدنيـــة الاســـلام بأسبانيا) بمزايا المسلمين فى الصـــناعة والزراعة والبناء وخصـــائص الهندسة العربية ويقرر أن المسلمين هم أول من استعمل المدافع النارية فى أوروبا وأنهم فاقوا الغربيين فى جميع الفنون (٤) ٠

ولم تكن هذه الحضـــارة اليانعة التى جمعت بين ماديات الحيـــاة ومعنوياتها الا ثمرة من ثمرات الاســـــلام فى الدعوة الى البحث والنظر وطلب العلم ٠

---

(١) د٠ أحمد الحوفى : **القومية العربية فى الشعر الحديث** ، ص ٣٥٢ ٠

(٢) محمد كرد على : **الاسلام والحضارة العربية** ، جـ ، ١ ، ص ١٩٠ ٠

(٣) **المرجع السابق** : ص ١٦١ / ١٦٢ ٠

(٤) أنور الجندى : **الاسلام فى غزوة جديدة للفكر الانسانى** ، ص ١٦١ ٠

هـذه الدعـوة التى استقبلها المسلمون الأوائل فى اطار التكاليف الدينية ونظروا اليهـا من منظور ايمانى قد حببت اليهم البحث والنظـر وطلب العلم والحرص على اتقان مسائلة واحراز قصبة السبق فى ميدان حتى ظهر منهم النابغون وجهابذة الفكر فى شتى ألوان المعرفة ولا تزال الأجيـال رغم تطور الزمن وتقدم العـلوم ومنـاهج البحث • تردد أسماء ابن الهيثم والكندى ، والفارابى ، وابن سينا ، والبيرونى ، والطوسى ، والبغدادى ، والدينورى ، والرازى والحكيم ، والترمزى ، والقزوينى ، والانطاكى ، والزهراوى ، والخوارزمى ، والصوفى ، والجاحظ ، وابن حيان وابن البيطار ، وابن النفيس ، والادريسى ، والمسعودى ، وابن بطوطة ، وابن خلدون •• وغيرهم من رجال البحث والتخصص (١) الذين أثرت الحضارة الانسانية بعطائهم فى ميدان الطب والفلك والكيمياء والطبيعة والفلسفة والاجتماع والأدب واللغة وسائر العلوم الانسانية التى سجل التاريخ فيها فضل المسلمين بما ابتكروه أو أضافوه أو حققوه من هذه العلوم التى وجهتهم اليها أو شجعتهم عليها دعوة الاسلام الى العلم وتكريمه للعلماء •

★★★

ان الاسلام هو صانع هذه الحضارة بكل خصائصها ومقوماتها من خلال ما دعا اليه من قيم ومبادىء تنتظم الحيـاة الانسانية كلها وتغطى جوانب النشاط البشرى عامة وترعى شئون الانسان فى جميع أحواله السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية وما شعر المسلمون يوما وعلى امتداد تاريخهم أن الاسلام قد عاق تطورهم الحضارى ولكنه على العكس من ذلك هو الذى أخذ بأيديهم نحو المدنية الصحيحة التى غيرت مجرى التاريخ البشرى ووضعت العالم على بداية الطريق نحو النور ، ولا يستطيع أحد من الباحثين المنصفين أن ينكر فضل الحضارة الاسلامية وتأثيرها فى نهضة العالم • ولا سيما أوروبا بل لا يستطيع دين من الأديان ومدنية من المدنيات تعيش فى العالم المتمدن المعمور أن تدعى أنها لم تتأثر بالاسلام والمسلمين فى قليل ولا كثير يقول (Robert Briffal) فى كتابه (The making of Humanity) : « ما من ناحية من نواحى تقدم أوروبا وللحضارة الاسلامية فيها فضل كبير وآثار حاسمة لها تأثير كبير •

(١) أحمد السايح : مستقبل الحضارة الاسلامية ، ص ٧٩ •

ويقول فى موضع آخر :

« لم تكن العلوم الطبيعية (التى يرجع فيها الفضل الى العرب) هى التى أعادت أوروبا الى الحياة ، ولكن الحضارة الاسلامية قد أثرت فى حياة أوروبا تأثيرات كبيرة ومتنوعة منذ أرسلت أشعتها الأولى الى أوروبا » (١) ٠

يقول (ديفونويب) فى كتابه « اعتذار الى محمد والاسلام » : « يجب أن نعترف بأن علوم الطبيعة والفلك والفلسفة والرياضيات التى أنعشت أوروبا منذ القرن العاشر مقتبسة من القرآن ، بل ان أوروبا مدينة للاسلام بأكثر من ذلك لأن الدين الذى أمر بالدستور والديمقراطية ونهى عن الاستبداد فى قوله تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » و « وشاورهم فى الأمر » قد فتح أمام الانسانية الحقوق المدنية ٠

ولتذ أوروبا أنها مدينة للمسلمين بحفظ آداب الغرب القديمة حينما كانت هى فى ظلام دامس فحفظوا آثار فلاسفة اليونان وآثار علوم الطب أو الهندسة وبالجملة فالمسلمون هم أساتذة أوروبا (٢) ٠

ويعترف (جوستاف لوبون) بفضل المسلمين على حضارة أوروبا وبتأثير مدنيتهم فيقول : « انه اذا كانت هناك أمة تقر بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم فالعرب هم تلك الأمة لا رهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى اسم اليونان فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنعهم فى انقاذ تلك الكنوز الثمينة اعترافا أبديا ٠

ويقول :

« ظلت ترجمات كتب العرب ولا سيما الكتب العلمية مصدرا وحيدا تقريبا للتدريس فى جامعات أوروبا خمسة قرون أو ستة قرون ، ويمكننا أن نقول ان تأثير العرب فى بعض العلوم كعلم الطب مثلا دام الى أيامنا » (٣) ٠

---

(١) أبو الحسن الندوى : **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين** ، ص ١٤٢ ٠

(٢) أنور الجندى : **الاسلام فى غزوة جديدة للفكر الانسانى** ، ص ١١٢ ٠

(٣) د٠ غوستاف لوبون : **حضارة العرب** ص ٥٦٨ / ٥٦٩ ٠

ويقول « كمال ولف شحومالكو » :

« حينما كانت أوروبا منسلكة في دياجير الظلمات نفذ الى أوروبا شعاع من أشعة الحضارة المشرفة من بلاد الاسلام أن تعاليم القرآن وأحاديث النبى نفخت في الأمة الاسلامية روحا قويا أوجدت تقدما باهرا ورقيا عظيما ، هذه الروح سرعان ما تسربت الى أوروبا ولا سيما عن طريق أسبانيا فهيأت عوامل نهضتها في أواخر القرون الوسطى ٠٠ ان للاسلام فى تاريخ الغرب معنى عظيما وأهمية كبيرة لم يستطع أحد بعد ادراك كنه ذلك وغايته ٠٠ والفضل للاسلام فى ايجاد روح البحث والانتقاد بأرض أوروبا حتى استطاعت التعصب للمعتقدات الوهمية المناوئة لتقدم العلم ورقى الفكر (١) ٠

ويقول « سديو » فى كتابه « تاريخ العرب » :

« كان المسلمون فى القرون الوسطى منفردين فى العلم والفلسفة والفنون وقد نشروها أينما حلت أقدامهم وتسربت عنهم الى أوروبا فكانوا هم سببا لنهضتها » (٢) ٠

ويؤكد « أبو الحسن الندوى » فى كتابه « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » على أهمية المدنية الاسلامية وتأثيرها فى الاتجاه البشرى عامة ، وفي الحضارة الأوروبية خاصة فيقول :

« كان ظهور المدنية الاسلامية بروحها ومظاهرها وقيام الدولة الاسلامية بشكلها ونظامها فى القرن الأول لهجرة محمد صلى الله عليه وسلم فصلا جديدا فى تاريخ الأديان والأخلاق ، وظاهرة جديدة فى عالم السياسة والاجتماع ، انقلبت به تيارات المدنية ، واتجهت به الدنيا اتجاها جديدا » (٣) ٠

ثم يقول : « ويمكن لمن يطالع تاريخ أوروبا الدينى وتاريخ الكنيسة النصرانية أن يتلمس تأثير الاسلام العقلى فى نزعات المصلحين والثائرين على النظام الأسقفى السائد ٠

---

(١) المرجع السابق : ص ١٠٨ ٠

(٢) أحمد السايح : مستقبل الحضارة الاسلامية ، ص ٨٢ ٠

(٣) أبو الحسن الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ص ١٣٥ ٠

أما دعوة « لوثر » الاصلاحية الكبيرة فقد كانت على علاتها أبرز مظهر للتأثير بالاسلام وبعض عقائده كما اعترف المؤرخون · وترى كذلك تأثيرا للعقلية الاسلامية والشريعة الاسلامية فى أخلاق الأمم اجتماعها وتشريعها فى أوروبا النصرانية وفى الهند الوثنية بعد الفتح الاسلامى تراه وتلمسه فى الاتجاه الى التوحيد ، ونزعات الاحترام للمرأة وحقوقها والاعتراف بمبدأ المساواة بين طبقات البشر الى غير ذلك مما سبق اليه الاسلام ، وامتازت شريعته ومدنيته (١) ·

* * *

ومهما يكن من أمر فلا سبيل الى انكار فضل الاسلام على البشرية ، وافادتها من حضارته وتأثرها بمدنية المسلمين التى أشاعت النور فى أرجاء العالم ، وكانت سببا فى نهضته ولولا مدنية المسلمين فى الأندلس «لتأخرت ـ بضعة قرون ـ نهضة أوروبا» (٢) ولظل ظلام القرون الوسطى مخيما على الغرب الى وقت قريب ولكن شعاع الحضارة الاسلامية الذى أضاء فى سماء الأندلس قد اطلع فجر النهضة فى هذه البلاد بما حمله المسلمون اليها من شريعة وأخلاق وقيم وآداب وعادات وتقاليد ونظم وادارة وعلوم وفنون وصنائع أحيوا بها موات تلك الأقطار ، وزرعوا فلواتها ، وعمروا مدائنها ، ومدنوا أهلها ولقنوهم معنى الحياة الراقية (٣) ·

***

فاذا كانت تلك شهادة التاريخ بأقلام المنصفين من مؤرخى الشرق والغرب عن فضل الحضارة الاسلامية على مدنية العالم وعلى النهضة الأوروبية بوجه خاص فماذا قال الشعر المحافظ عن هذه الحضارة ؟

لقد هتف الشعر الاسلامى المحافظ بهذه الحضارة ، وأطال الوقوف على معالمها وحيا آثارها ، وأشاد بصناعها وبآلامه التى حملتها الى الناس ·

وكأنما أراد الشعراء أن يردوا الى الأمة ما انتقصه الأعداء من كرامتها وأن يكشفوا ما انطمس من ملامح مجدها ، ومعالم حضارتها ، وأن يذكروها ـ وما أحوجها الى الذكرى ـ بماضيها العريق ، وتاريخها المشرق يوم كانت مصدر اشعاع حضارى تستقبل الدنيا ضوءه فى اعجاب وامتنان ·

***

(١) أبو الحسن الندوى : المرجع السابق ، ص ١٤٠ ·
(٢) د· أحمد الحوفى : القومية العربية فى الشعر الحديث ، ص ٣٥٢ ·
(٣) راجع : محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية ، ج ١ ، ص ٢٤٤ / ٢٤٨ ·

لقد أعجب الشعراء المحافظون بالحضارة الاسلامية وبآثارها المادية والمعنوية التى تدل عليها الحواجز الاسلامية فى عهد بنى أمية والعباسيين وفى عهد الفاطميين والأيوبيين •

فهذه دمشق قد كانت فى عهد بنى أمية مقر الملك ، ومقعد التاج ومهد المعالى ، وعروس البلاد ، ورمز الجمال والجلال ، وفيها يقول « شوقى » يصف معالم الحضارة فى عهد بنى أمية :

أما دمشق فمقر الملك	ومقعد التاج ونظم الملك
بل شامة والشام وجنة الثرى	ترف فردوسا وتجرى كوثرا
مهد معالى ملكهم واسها	لا عجب أن يرفعوها للسها
وتزلف الدنيا لها وتجبى	وينثنى بها الزمان عجبا
حتى جلتها دولة الوليد	فى أزين الطريف والتليد
وكملت محاسن العروس	وعوزت بالجامع المحروس
تانقت يد الوليد فيها	واستبقت أكف مترفيها
تفيض من عجائب العمارة	وحجر الصلاة والامارة (١)

ويقول يصف تقدم المسلمين فى فن العمارة كما يتجلى فى مسجد « قرطبة » الذى بناه « عبد الرحمن الداخل » بالأندلس منذ أكثر من ألف عام وكان آية من آيات الفن الاسلامى :

ورقيق من البيوت عتيق	جاوز الألف غير مذموم حرس
اثر من محمد تراث	صار للروح ذى الولاء الأمسى
بلغ النجم ذروة وتناهى	بين ثهلان فى الأساس وقدس
مرمر تسبح النواظر فيه	ويطول المدى عليها فترسى
وسوار كأنها فى استواء	ألفات الوزير فى عرض طرس(٢)
فترة الدهر قد كست سطريها	ما اكتسى الهدب من فتور ونعس

---

(١) أحمد شوقى : ديوان : دول العرب وعظماء الاسلام ، ص ٧٤ / ٧٥ •

(٢) الوزير : هو « ابن مقلة محمد بن على (٢٥٢ هـ ــ ٣٢٩) تولى الوزارة أربع مرات ، ولكن مؤامراته أودت به الى السجن والى قطع يده • وقد اشتهر بجودة خطه •

ويحهـا كـم تزينت لعليم واحـد الدهر و استعدت لخمس
وكأن الرفيف فى مسرح العـين مـلاء مدنرات الدمقس
وكأن الآيات فى جانبيـه يتنزلن من معـارج قـدس
صنعة الداخل المبارك فى الغر ب وآل له ميامين شمس (١)

★★★

وقال يصف قصر الحمراء بغرناطة ، الذى بناه بنو الأحمر ، وكان صورة من صور الفن الاسلامى فى نقوشه وألوانه التى بهرت السائحين فوقفوا أمامها خاشعين :

من لحمراء جللت بغبار الد هـر كالجرح بين برء ونكس
كسنا البرق لو محا الضوء لحظا لمحتها العيـون من طول قبس
حصـن غرناطة ودار بنى الأحمـر من غافل ويقظان ندس
سرمد شيبه ولـم أر شيبا قبله يرجىء البقـاء وينسى

ثم يقول :

لا ترى غير وافدين على التـا ريخ ساعين فى خشوع ونكس
نقـلوا الطرف فى نضارة وأسى من نقوش وفى عصـارة ورس
وقبـاب من لازورد وتبـر كالربى الشم بين ظل وشمس
وخطـوط تكفلـت للمعـانى ولألفـاظها بأزين لبس (٢)

★★★

(١) الداخل : عبد الرحمن بن معاوين بن هشام مؤسس الدولة الأموية بالاندلس ، الملقب بصقر قريش – أرسى مركبه بالاندلس سنة ١٣٨ هـ (٧٥٥ م) لقب بالداخل لأنه أول من دخل الأندلس من ملوك الأمويين .

(٢) ذكر شكيب أرسلان أنه قرأ على جدران قصر الحمراء قصيدة بالخط المذهب. راجع د. الحوفى : ديوان شوقى ، جـ ١ ، ص ٢١١ .

وقال يصف « بغداد » فى عهد العباسيين ، وكانت بغداد عاصمة لملكهم اختطها « المنصور » لتكون دارا للملك ، ومنهلا للعلم ، ومقصدا للنبوغ والتفوق :

واختط بغـداد على التسديد دار الملك يســر مديد
كانت لأيـام البهاليل سـمة ومهـرجان ملـكهم وموسـمه
ينجـم فيهـا النابغ السـعيد وينجب المقتبس البعيـد (١)

★★★

وكان عصر « المنصـور » عصرا ميمـونا فاض الخير على الحواضر والبوادى ، وعم الرخاء القاصى والدانى ، وساد الأمن أرجاء البلاد ، وتقدمت الصـناعة ، ونهضت العلوم والفنـون وكثرت الترجمة من العجمية الى العربية ، ونقل العلماء كثيرا من آداب الأمم وحكمتها وفلسفتها وعلومها وقد امتدح شوقى عصر المنصور وباهى بالنهضة العلمية فى أيامه النواضر فقال :

أنظـر الى أيامه النواضـــر وظلهـا الوارف فى الحواضر
عشرون فى الملك رفضن أمنـا وفضـن نعماء ، وسلن يمنـا
أدر من صـوب الغمام دخـلا على أشـد الخلفـاء بخـلا
يخـاف فى مال العبـاد الله ما تبـع الدنيـا ولا تـلاهى
للسـلم آلات وللحـرب أهب جمـاعهن فى الممالك الذهب
ولا تسل عن همـة العقول ونهضـه المعقـول والمنقـول
وكثـرة النـاقل والمعـرب عن حكمة الفرس وعلم المغرب (٢)

ويشيد « شوقى » بما بلغته حضارة العباسيين فى بغداد من مجد تطامنت له حضارة روما وأثينا وما حوتا . فيقول :

---

(١) أحمد شوقى : ديوان دول العرب وعظماء الاسلام ، ص ٩٩ .

(٢) المرجع السابق : نفس الصفحة .

دع عنك روما وأثينا وما حوتا ... كل اليواقيت فى بغداد والتوم

دار الشرائع روما كلما ذكرت ... دار السلام لها ألقت يد السلم

ما ضارعتها بيانا عند ملتام ... ولا حكتها قضاء عند مختصم

ولا احتوت فى طراز من قياصرها ... على رشيد ومأمون ومعتصم

من الذين اذا سارت كتائبهم ... تصرفوا بحدود الأرض والتخم

ويجلسون الى علم ومعرفة ... فلا يدانون فى عقل ولا فهم (١)

★★★

والحق أن هذه الحضارة الاسلامية الزاهرة فى بغداد لم تنشأ من فراغ وانما كانت امتدادا لحضارة المسلمين فى عصر الخلفاء الراشدين ثم فى عصر بنى أمية فقد عرف المسلمون فى هذين العصرين ألوانا من الحضارة المادية والمعنوية منها ركوب المسلمين البحر فى عهد عثمان بن عفان، ومعرفتهم بصناعة السفن وسيطرتهم على بحر الروم فى هذا الوقت الباكر من تاريخ الاسلام .

وقد أشاد « شوقى » بهذه الحضارة وبالرجال الذين صنعوها فقال : (٢)

قد فتحوا قبرص للامام ... بالسفن المزجاة كالغمام

فاصبح القاصى من البر اقترب ... وصار بحر الروم لجة العرب

وخفقت كتائب الاسلام ... فى البحر أعلاما على أعلام

فخر لذى النورين أى فخر ... وهمة تذكر لابن صخر (٣)

ثم اتسعت موجة الفتوحات فى عهد الأمويين برا وبحرا ، واتسعت رقعة الاسلام ، ودانت ممالك للمسلمين ، وانتشر الرخاء ، ونهضت العلوم والآداب ، وظهر الخطباء والشعراء وقادة الممالك .

---

(١) ديوان شوقى : جـ ١ ، ص ٦٣١ ، توثيق د. الحوفى .

(٢) أحمد شوقى : ديوان دول العرب وعظماء الاسلام ، ص ٥٦ .

(٣) ابن صخر : هو : معاوية ابن أبى سفيان ـ رضى الله عنه ـ أول من ركب البحر .

وقد نوه شوقي بهذه المظاهر الحضارية في دولة بني أمية فقال :

تقلب الاســـلام في رخائهـا	وجـرت الآمال في رحائهـا
وزخرت بالعــلم والبيـــان	وأخرجت فرائد الأعيـــان
حاز لـــواء الشعر فيها الرزدق	جرير والأخـطل والفــرزدق
وما رأى المنبر من عطفي ملك	كابن أبي سفيان أو عبد الملك
أو كزياد خطبـة اذا انبرى	والثقفي حـين يرقى المنبـرا
ورزقت أرباب سـيف قـادة	أعطتهموا الممالك المقـادة
سـل ثبج البحـر وعرض البر	عن طول باع الفاتحين الغر(١)

★★★

ثم تمضى مسيرة الحضـارة الاسـلامية زاهرة باهرة عبر القرون والأجيال حتى تصل الى العصر الفاطمى فى مصر لنرى آلوانا من هـذه الحضارة فى عهد « جوهر الصقلى » الذى بنى مدينة القاهرة ، وأقام بها الجامع الأزهر ، وشيد الدور والقصور ، ونشر العدل والنظام ، وأشاع الأمن والاستقرار واستشعر الناس فى عهده الأمان والغنى .

والى هذا يشير شوقى بقوله يصف ملامح الحضارة الاسلامية فى عهد « جوهر الصقلى » :

اعتـدل الأمـر على مقـــدمه	وكان ركن الملك ميلا فاستوى
وجـرت الأحـكام مجرى عدلها	وعـرف الناس الأمان والغنى
كـــم أثر لجوهر نفيســـه	الى المعـز ذى المآثر اعتـزى
الجـامع الأزهر باق عامـر	وهـذه القـــاهرة التى بنى
وقل ان ذكرت قصريه بهـا	على السدير الخورنق العفا(٢)

(١) أحمد شوقى : دول العرب وعظماء الاسلام ، ص ٧٤ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٠٧ .

ويقول مشيدا بحضارة الفاطميين فى مصر : (١)

فيا جزى الله بنى فاطمـــة	عن مصر خير ما أثاب وجزى
خلائف النيـــل اليهم ينتمى	اذا الفرات لبنى الساقى انتمى (٢)
تلك أياديهـــم على لبـــاته	مفصـــلات بالثنـــاء تجتلى
كم مدن بنوا ودور شـيدوا	للصـــالحات ها هنا وها هنا
هم رفعوا الاصلاح مصباحا فما	مصـلح الا بنـــورهم مشى
والكرم المصـــرى مما رسـموا	بمصر من بر وسنوا من قرى
وكل نـيروز بمصـــر رائع	أو مهرجان رائع هم الآلى (٣)

وفى مصر الاسلامية كانت هناك بصمات حضارية لبنى أيوب نوه بها « شوقى » فقال :

كل يـوم بالصـالحية حصـن	وببلبيس قلعـــة شـــماء
وبمصر للعـــلم دار وللضـــيفان	نـــار عظيمـــة حمـــراء
ولا عـــداء آل أيـــوب قتـــل	ولأسـراهم قـــرى وثـواء (٤)

ولم تكن هذه الحضارة الاسلامية التى برزت ملامحها فى عواصم الاسلام الا ثمرة لشريعة سامية ، وجهدا لأمة فاضلة ، وأثرا لفتوحات انسانية نبيلة ، وجهادا لقادة عظماء حملوا أمانة هذا الدين فقادوا الانسانية الى خيرها وهداها .

★★★

وقد أشاد الشعر المحافظ بكل هذه الدعامات الحضارية .

فقال « شوقى » يشيد بالشريعة الاسلامية التى أطلقت العقول ، وحررت الأفهام وفجرت صنوف العلم والمعرفة ، وأنارت السبيل للمصلحين

(١) المرجع السابق : ص ١٠٩ .
(٢) الساقى : المراد به : العباسى .
(٣) هم الآلى : أى هم الذين كانوا الأصل فى ايجاده .
(٤) ديوان شوقى : جـ ١ ، ص ١٨٧ . توثيق د. الحوفى .

فمشوا فى نورها ينشرون العلم ويقيمون العدل ، ويمدنون الشعوب ، ويسوسون الأمم ، ويهدون الناس الى الطريق المستقيم :

شريعة لك فجرت العقول بها ... عن زاخر بصنوف العلم ملتطم
غراء حامت عليها أنفس ونهى ... ومن يجد سلسلا من حكمة يحم
نور السبيل يساس العالمون بها ... تكفلت بشباب الدهر والهرم
كم شيد المصلحون العاملون بها ... فى الشرق والغرب ملكا باذخ العظم
للعلم والعدل والتمدين ما حزموا ... من الأمور وما شدوا من الحزم
سرعان ما فتحوا الدنيا لملتهم ... وانهلوا الناس من سلسالها الشبم
ساروا عليها هداة الناس فهى بهم ... الى الفلاح طريق واضح العظم(١)

ويقـول :

شريعة فجرها بحران ... بالعلم والحكمة يزخران
طام مـن الوحى فرات المشرع ... فى زاخر من الحديث منزع(٢)

★★★

واذا كانت الحضارة الاسلامية هى ثمرة هذا الدين الذى أنهض العقول وحرر النفوس ومدن الشعوب ، فان الأمة التى حملت أمانة هذا الدين كانت عنصرا من عناصر هذه الحضارة الاسلامية . نعم كانت العنصر البشرى الذى تمثلت فيه هذه الحضارة الاسلامية بقيمها الرفيعة ومثلها العليا ، ونظامها الفريد .

وقد أشاد شوقى بالأمة الاسلامية وبما حملته الى الناس من دين وحضارة وبما حققت للبشرية من أمن وعدل ونظام فقال :

امة ينتهى البيان اليها ... وتؤول العلوم والعلماء
جازت النجم واطمأنت بأفق ... مطمئن بـه السنى والثناء

(١) ديوان شوقى : جـ ١ ، ص ٦٣١ ، توثيق د. الحوفى .

(٢) أحمد شوقى : ديوان دول العرب وعظماء الاسلام ، ص ٩ .

كلما حثت الركاب لأرض جاوز الرشـد أهلهـا والذكاء
وعـلا الحق بينهـم وسما الفضـل ونالت حقوقها الضعفاء
تحمـل النجـم والوسـيلة والميـزان من دينهـا الى من تشـاء
وتنيـل الوجـود منه نظـاما هو طب الوجود وهو الدواء (١)

★★★

لقد كانت الأمة العربية أمة ينتهي اليها البيان وتجد فيها العلوم صدورا منشرحة فهى تقبل عليها بطبيعتها وتقيم وزنا للعلماء حيث كانوا فكانت كلما استولت على قطر اهتز فيها العلم وربا ، ونشأ فيه العلماء الفحول ، وعلت راية الحق ونال كل انسان ما يستحقه بعمله ، واضمحلت الطبقات ، وارتفعت الفروق فالعرب حملوا العدل الذى فى دينهم الى الأمم التى استولوا عليهـا ، وأثاروا فيها حب العمران والسعي فى مناكب الأرض ، وصار هذا الدين نظاما للوجود يرجع الناس اليه فى أمور الدنيا العقبى (٢) ٠

ويشيد « شوقى » بأخلاق العرب وفضائلهم وأثرهم فى حياة الناس بما هداهم اليه الدين من حسن الخلق والرحمـة والعـدل فيقـول من قصيدة له : (٣)

الله جـل جـلاله بلسـانهم خـلق البيـان وعلم الأمثالا
وتخـير الأخـلاق احسنها لهم ومكارم الأخـلاق منه تعـالى
كالرسـل عزما والملائك رحمة والأسـد بأسا والغيـوث نوالا
عـدلوا فكانوا الغيث وقعـا كلما ذهبوا يمينا فى الورى وشمالا

★★★

والفتوحات الاسلامية فى نبل أهدافها ، وانسانية بواعثها ، مظهر من مظاهر الحضارة الاسلامية ، لأنها استهدفت خير الانسانية وهدايتها

---

(١) احمد شوقى : ديوان دول العرب وعظماء الاسلام ، ص ٩ ٠
(٢) شكيب أرسلان : شوقى او صداقة اربعين سنة ، ص ١٩٠ ٠
(٣) الشوقيات : جـ ٢ ، ص ٢٢٤ ٠

الى الحق وردها الى الله وتطهيرها من الشرك والضلال ، وقد أشاد شوقى بهذه الفتوحات وبأهدافها الانسانية فقال : (١)

كم من غزاة للنبى كريمة ... فيها رضا للحق أو اعلاء
كانت لجند الله فيها شدة ... فى أثرها للعالمين رخاء
ضربوا الضلالة ضربة ذهبت بها ... فعلى الجهالة والضلال عفاء
دعموا على الحرب السلام وطالما ... حقنت دماء فى الزمان دماء
نسفوا بناء الشرك فهى خرائب ... واستأصلوا الأصنام فهى هباء

★★★

وهؤلاء هم أبطال الفتح الاسلامى فى عهد عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ وقد جاءوا الى مصر يحملون من الهدى والحق ما يحيى القلوب والعقول :

بعث الصحابة يحملون من الهدى ... والحق ما يحيى العقول ويفتق
فتح الفتوح من الملائك رزدق ... فيه ومن أصحاب بدر رزدق
يبنون لله الكنانة بالقنا ... والله من حول البناء موفق
تطوى البلاد لهم وبجند جيشهم ... جيش من الأخلاق غاز مورق
فى الحق سل وفيه أغمض سيفهم ... سيف الكريم من الجهالة يفرق(٢)

★★★

وقال يشيد بجنود الاسلام ، ويبارك جهادهم الذى اقتلع جذور الشرك واستأصل شأفة الباطل ، ونشر لواء الأمن والسلام على ربوع الجزيرة :

قد نصروا الله وبروا الهادى ... ووصلوا الجهاد بالجهاد
واصلوا الشرك الحروب الغابرة ... واستأصلوا شأفته ودابره
ورفت السلم على الجزيرة ... صافية حياضها غزيرة (٣)

★★★

---

(١) ديوان شوقى : جـ ١ ، ص ٦٠٤ . توثيق د. الحوفى .
(٢) الشوقيات : جـ ٢ ، ص ٨٦ .
(٣) أحمد شوقى : ديوان : دول العرب وعظماء الاسلام ، ص ٣٦ .

ومن خصائص البطولات الاسلامية وسلوكها الحضارى مع الأمم المغلوبة وسعيها الى تحقيق ما دعا اليه الاسلام من عدل وانصاف وتسامح ومودة على نحو ما يقول شوقى عن العرب الفاتحين :

وأمنوا الأمصار فاتحينا   وعدلوا فى العالمين حينا
واتخذوا كل القرى أوطانا   وحاسنوا الأهلين والقطانا
فحيث حل العربى حيا   من الملا قبيلة وحيا
وشاطر الأرض على التساوى   محاسن الأقوام والمساوى (١)

والأبطال المسلمون يمتازون بالهيبة والوقار ، لا يستخفهم النصر ، ولا يغرهم الفتح ولا يطغيهم نعيم الحياة :

يمشون تغضى الأرض منهم هيبة   وبهم حيال نعيمها اغضاء
حتى اذا فتحت لهم أطرافها   لم يطغهم ترف ولا نعماء (٢)

★★★

بل ان الدنيا كلها لا تخدعهم ببريقها ، ولا تصرفهم عن النهج الصحيح للمسلم الذى يحمل النفس على المكاره فى سبيل الله :

ما حمل النفس على الأشق   كقائل الصدق وحامى الحق
حتى جبا الأرض اليهم من جبا   وملكوا الدنيا فكانوا أعجبا
لا يعقدون فى الجباه العسجدا   بل التراب للمليك سجدا
وتحت أقدامهم التيجان   يتديها اللؤلؤ والمرجان (٣)

★★★

ولقد كان من أهم ما التفت اليه الشعراء المحافظون فى اشادتهم بالحضارة الاسلامية تمجيد العظماء من رجال الاسلام الذين أخلصوا دينهم لله ، ووهبوا حياتهم لنصرته ، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه وكانوا فى تاريخ الاسلام سطورا مضيئة ، وفى ليل محنته نجوما ساطعة أضاءت طريق الأمة وأنقذتها من التيه والضياع .

---

(١) المرجع السابق : ص ١٨ .
(٢) ديوان شوقى : جـ ١ ، ص ٦٠٤ ، توثيق د. الحوفى .
(٣) أحمد شوقى : ديوان دول العرب وعظماء الاسلام ، ص ٣٤ .

فاذا كانت الأمة الاسلامية فى هذه الفترة على مقربة من الضياع توشك أن تعصف بها أحداث السياسة ، ومؤامرات الاحتلال ، ومتغيرات الظروف الاجتماعية والثقافية فان استدعاء العظمة الاسلامية فى مثل هذه الظروف يصبح أمرا واجبا لأنه يرد الى الأمة ثقتها بنفسها ، ويقوى أملها فى الخروج من مآزقها ويرفع أبصارها الى ما فوق الأحداث الخانقة ، ويمد أعينها الى ساحة البطولة والمجد ويغرى أبناءها باستلهام العظمة من تاريخ العظماء الذين صنعهم الاسلام فكانوا رجاله وحماته وكانوا للأمة هداة ومعلمين .

من أجل ذلك رأينا شعراءنا المحافظين يتجهون صوب التاريخ الاسلامى يستخرجون من مواقف عظمائه دروسا تعالج بها الأمة واقعها ، وتستكمل نقصها ، وتجدد الرجاء فى قلوب أبنائها ، وتحفز هممهم الى الجهاد وتعصم نفوسهم من الاحباط والقنوط .

ولكم كانت الأمة فى أمس الحاجة الى هذه الدروس النافعة تستلهمها من تاريخ عظماء الاسلام ، تربية لوجدان أبنائها ، وبعثا للقيم الكامنة فى قلوبهم وتبصرة لهم بمعالم الطريق نحو الحق . ولعل هذا ما قصد اليه « شوقى » حين نظم ديوانه « دول العرب وعظماء الاسلام » وهو فى منفاه فيما بين (١٩١٥ - ١٩١٩) اذ يقول :

حتى أراد الله أن نظمت ... من سير الرجال ما استعظمت

علما بما يبعث فى الأحداث ... جلائل الأعمال والأحداث (١)

★★★

على أن ايتاء العظمة حقها أمر لازم فى كل آونة وبين كل قبيل - كما يقول العقاد - بل هو (فى هذا الزمن وفى عالمنا هذا ألزم منه فى أزمنة أخرى لسببين لا لسبب واحد : أحدهما : أن العالم اليوم أحوج ما يكون الى المصلحين النافعين لشعوبهم وللشعوب كافة ، ولن يتاح لمصلح أن يهدى قومه وهو مغموط الحق معرض للجفوة والكنود . والسبب الآخر : ان الناس قد اجترأوا على العظمة فى زمننا بقدر حاجتهم الى هدايتها . فان شيوع الحقوق العامة قد أغرى اناسا من صغار النفوس بانكار الحقوق الخاصة . حقوق العلية النادرين الذين ينصفهم التمييز

---

(١) أحمد شوقى : ديوان دول العرب وعظماء الاسلام ، ص ٦ .

وتظلمهم المساواة (١) • ومن أجل ذلك اتجه الشعراء المحافظون الى عظماء الاسلام يشيدون بأخلاقهم ويمتدحون مآثرهم ويمجدون مواقفهم ويلتقطون من أحداث حياتهم ما يضيء الطريق للمعاصرين •

وبهذه الصورة ـ غير المباشرة ـ تعامل الشعراء المحافظون مع الواقع الاسلامي بمنطق الاسلام من غير أن يصطدموا بالقوى الغاشمة التي هيمنت على مقدرات البلاد في تلك الفترة والتي كان يسوؤها أن ترتفع الأصوات ضدها فتحايل الشعراء على ذلك برواية التاريخ •

★★★

واذا كان سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعظم العظماء في تاريخ الاسلام فقد أعجب به الشعراء المحافظون فأشادوا بأخلاقه وشمائله وبمنجزات دعوته وما قدمته للانسانية من خير كانت أحوج ما تكون اليه •

فيقول « شوقي » يمدح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويشيد بأخلاقه وشمائله :

بسوى الأمانة في الصبا والصدق لم ... يعرفه أهل الصدق والأمناء
يا من له الأخلاق ما تهوى العلا ... منها وما يتعشق الكبراء
لو لم تقم دينا لقامت وحدها ... دينا تضيء بنوره الآناء
زانتك في الخلق الرفيع شمائل ... يغرى بهن ويولع الكرماء

ويقول :

واذا سخوت بلغت بالجود المدى ... وفعلت ما لا تفعل الأنواء
واذا عفوت فقادرا ومقدرا ... لا يستهين بعفوك الجهلاء
واذا رحمت فأنت أم او أب ... هذان في الدنيا هما الرحماء
واذا غضبت فانما هي غضبة ... في الحق لا ضغن ولا بغضاء
واذا رضيت فذاك في مرضاته ... ورضا الكثير تحلم ورياء
واذا حميت الماء لم يورد ولو ... أن القياصر والملوك ظماء

(١) عباس العقاد : عبقرية محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ص ١٢ ـ ص ١٤ •

واذا أجرت فأنت بيت الله لم ... يدخل عليه المستجير عـــداء
واذا ملكت النفس قمت ببرها ... ولو أن ما ملكت يداك الشاء
واذا بنيت فخير زوج عشرة ... واذا ابتنيت فدونك الابـــاء
واذا صحبت رأى الوفاء مجسما ... فى بردك الأصحاب والخلطـاء
واذا أخذت العهد أو أعطيتــه ... فجميــع عهـدك ذمة ووفـــاء
واذا مشيت الى العـدى فغضنفر ... واذا جـربت فانك النــكباء
وتمــد حلمك للسفيه مـداريا ... حتى يضيق بعرضك السفهاء
فى كل نفس من سلطاك مهابة ... ولكل نفس فى نداك رجاء (١)

★★★

أى نمــوذج انســانى فريد ذلك الذى تحلى بهـذه الخـلال النبيلة والشمائل العالية والأخلاق الرفيعة !

انه رسـول الله ــ صلى الله عليه وسلم ٠

نعم انه رسـول الله الذى يوحى اليه ولا ينطق عن الهوى ، والذى أدبه ربه فأحسن تأديبه ، ولكنه مع ذلك بشر !

وهو ــ صلى الله عليه وسلم ــ ببشريته يغرى بالاقتداء والتأسى ، ويجسد صورة الكمال الانسانى أمام الأمة الطامحة الى المجد ٠ ويقدم صورة البطل المصلح الذى يحتاج اليه كل زمن يعتريه الفساد (٢) ٠

ولشد ما كانت الانسانية فى حاجة الى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ كى ينقذها من الفساد الذى صارت اليه ٠

ويصور « عبد المطلب » جانبا من هذا الفساد قبل بعثة النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيقول :

ولو ترى قبله الدنيا وما لقيت ... من البـلاء وما ذاقت من النقم
والناس ضلال قفر فى مساحها ... هيــم من السرح أو غفل من الغنم

---

(١) الشوقيات : جـ ١ ص ٣٥ / ٣٦ ٠
(٢) راجع : د٠ أحمد زكى : محمد صلى الله عليه وسلم فى الأدب المعـــاصر ، ١٤٩ ٠

ضلوا سواء النهى فاستمسكوا عمها ... بكل حبل من الأهواء منجذم
جهل مبيد وفوضى عب زاخرها ... والعيش بين الضنى والفتنة العمم(١)

★★★

ويردد « شوقى » ما سجله التاريخ من مظالم ناءت بها الانسانية قبيل بعثة النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ومفاسد استشرت بالشرق والغرب ٠ فالحكام طغاة ورجال الدين بغاة والأغنياء قلة تستعبد الفقراء وهم كثرة والشعوب تئن من الحكم المطلق ، ومن الجور المهلك ومن تسخيرها كما تسخر الماشية ، والأخلاق مجرحة ، والفضائل فى جائحة ، والأديان عقائد مزعزعة ، وكهانة ووساطة وألغاز ووثنية تنفى عن الانسان ميزة العقل والفكر والرشد وسلامة الوجدان ٠

واذن ٠٠ فقد كان البشر فى أشد الحاجة الى منقذ يرتفع بهم من وهادهم التى ترددوا فيها (٢) ٠

وفى هذا يقول شوقى مصورا مدى الحاجة الى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعد أن عم الفساد والظلم أرجاء الأرض :

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم ... الا على صنم قد هام فى صنم
والأرض مملوءة جورا مسخرة ... لكل طاغية فى الخلق محتكم
مسيطر الفرس يبغى فى رعيته ... وقيصر الروم من كبر أصم عمى
يعذبان عباد الله فى شبه ... ويذبحان كما ضحيت بالغنم
والخلق يفتك أقواهم بأضعفهم ... كالليث بالبهم أو كالحوت بالبلم(٣)

ويقول فى أخرى : (٤)

جاء للناس والسرائر فوضى ... لم يؤلف شتاتهن لواء
وحمى الله مستباح ٠ وشرع الله والحق والصواب وراء

(١) ديوان عبد المطلب : ص ٢٥٧ ٠
(٢) د٠ أحمد الحوفى : الاسلام فى شعر شوقى ، ص ٨٩/٩٠ ٠
(٣) الشوقيات : ج ١ ، ص ١٩٨ ٠
(٤) المرجع السابق : ص ٣٠ ٠

فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم :

اقال عثار الكون من بعد ما هوى	بى فى الدنايا ساسة جهلاء
ومدى فى أرجائه فى ملة	حنيفية أتباعها حنفاء
بناه على أساسها وكم اعتلى	بأيدى الهدى بعد البوار بناء
وشيده بالأمن فالعدل شرعه	يقوم عليها معشر أمناء
وعلم أهليه الحياة سعيدة	فهم بالهدى فى ظلها سعداء (١)

★★★

واذن ٠٠ فلا معنى لليأس من الاصلاح السياسى والاجتماعى للأمة الاسلامية ما دام هذا الاصلاح ممكنا ، وهو ممكن ـ ولا شك ـ ولكن حين يجىء القائد الذى يقود المسيرة نحو الحق والعدل والمساواة كما قادها رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠ وفى هذا اغراء بالرفض والمقاومة للواقع الأليم انتظارا ليوم الخلاص على يد بطل يخرج من صفوف المسلمين ليضع نهاية للفساد والفوضى ٠

وربما كان للتركيز على منجزات الدعوة الاسلامية فى تقرير العدل والأمن والقضاء على الظلم وانقاذ العالم من جور الحكام وجهل الساسة ما يكشف عن معاناة الأمة الاسلامية من جور الحكام واستبدادهم وظلم الاستعمار وجبروته وبذلك كان الشعر الدينى فى هذه الفترة وسيلة من وسائل التعبير عن الواقع السياسى والاجتماعى للأمة الاسلامية ٠ بل كان وسيلة ناجحة وفعالة ٠ لانه شد عواطف الأمة الى ماضيها ومجودها ٠ ثم لأنه أتاح للشعراء أن يتعاملوا مع الواقع السياسى بحرية تنأى بهم عن المراقبة والمؤاخذة فى وقت كانت الكلمة الصريحة سيفا مسلطا على الرقاب ٠

★★★

وهناك فكرة مهمة ألمح اليها « شوقى » فى مدائحه النبوية : وهى أن النبى صلى الله عليه وسلم قد واجه أعداءه بوسائله المتاحة والتى كانت أقل مما يملك الخصم ، ولكن قوة الايمان والثقة فى الله قد جعلت من كل

---

(١) ديوان عبد المطلب : ص ٣٠٩ ٠

مقاتل كتيبة قوية استطاعت أن تنسف بناء الشرك وأن تدك حصون الباطل :

هل كان حول محمد من قومه ... الا صبى واحد ونساء
دعا فلبى فى القبائل عصبة ... مستضعفون قلائل أنضاء
ردوا ببأس العزم عنه من الأذى ... ما لا ترد الصخر الصماء
والحق والايمان ان صبا على ... برد ففيه كتيبة خرساء
نسفوا بناء الشرك فهى خرائب ... واستأصلوا الأصنام فهى هباء (١)

وتلك اشارة لها دلالتها : وهى أن نمضى الى أهدافنا بعزم واصرار وأن نواجه أعداءنا بما نملك من وسائل ، ولا نتخاذل أو نعتذر بضعف امكاناتنا ، فالمهم هو الايمان بالله والثقة بالنفس والجهاد فى سبيل الحق حتى النصر أو الشهادة ٠

كذلك كان التركيز على معانى البطولة والفداء والشجاعة والاقدام فى حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفى حياة أصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ من المعانى التى أوحت بها طبيعة النضال فى هذه الحقبة ٠

وهكذا استطاع الشعراء المحافظون أن يلفتوا أنظار المعاصرين الى مكان القدوة فى تاريخ النبى العظيم صلى الله عليه وسلم ٠

ثم من الصحابة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تاريخ الاسلام نجوما ساطعة تستأهل التعظيم والاعجاب ٠ ومن أكبرهم تأثيرا فى تاريخ الاسلام : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ٠٠ رضوان الله عليهم أجمعين ٠

وقد أشاد بهم الشعراء المحافظون ونوهوا بما فى حياتهم من مواقف اسلامية تستلفت أنظار المعاصرين وتضع أقدامهم على الطريق الصحيح الى خيرى الدنيا والآخرة ٠

وكانت اشادة الشعراء بهؤلاء العظماء من رجال الاسلام لونا من الاشادة بالحضارة الاسلامية لان هؤلاء الرجال من عظماء الاسلام هم الذين أرسوا دعائم الحضارة الاسلامية واليهم يرجع الفضل فى تعريف الناس بها من خلال الفتوحات الاسلامية التى نقلت الحضارة الاسلامية الى البلاد المفتوحة ٠



---

(١) الشوقيات : جـ ١ ، ص ٢١ ٠ ، ديوان شوقى : جـ ١ ، ص ٦٠٤ ، توثيق د٠ الحوفى ٠

فأما « أبو بكر » فقد أشاد به شوقى فذكر مجوده وبلاءه فى سبيل الاسلام وحيا حزمه وعزمه وباهى بشجاعته التى أنقذت الدين مما أحاطه من محن ذهبت بقلوب الرجال :

وما بلاء أبى بكر بمتهم بعد الجلائل فى الأفعال والخدم

بالحزم والعزم حاط الدين فى محن أضلت الحلم من كهل ومحتلم

وحدن بالراشد الفاروق عن رشد فى الموت وهو يقين غير منبهم (١)

« وللمصرى » قصيدة من تسعة ومائتى بيت تضمنت سيرة أبى بكر منذ ملازمته للرسول عليه الصلاة والسلام وتصديقه بالاسراء ومرافقته للرسول فى الهجرة ورأيه فى صلح الحديبية ورأى النبى فى أبى بكر وأعماله (٢) .

★★★

وأما عمر بن الخطاب فقد كان موضع اعجاب الشعراء المحافظين وتقديرهم لأنه جسد العدالة فى الحكم ، والقوة فى الحق ، والشورى فى الأمر ، وكان مثالا للحاكم المسلم الذى حمل أمانة الحكم فأداها كما يحب الله ورسوله والمؤمنون . ومن ثم تعلق الشعراء بأهداب سيرته وتطلعوا الى مثاله فى ظروف ضاقت فيها البلاد بالظلم وشقيت بالاستبداد وحكم الفرد .

وكان مجرد ذكر « عمر » بما عرف من سيرته فى العدل والشورى ورعايته للحق كافيا لهز الواقع الاسلامى هزا يوقظ النيام وينبه الغافلين ويدفع المعاصرين الى استلهام العبرة من تاريخه العظيم .

والى هذا المعنى يشير « حافظ ابراهيم » فى خاتمة عمريته فيقول :

لعل فى أمة الاسلام نابتة تجلو لحاضرها مرآة ماضيها

حتى ترى بعض ما شادت أوائلها من الصروح وما عاناه بانيها

---

(١) الشوقيات : جـ ١ ، ص ٢٠٧ .

(٢) سعد الدين الجيزاوى : أصداء الدين فى الشعر المصرى الحديث ، ص ٢٣٦ .

وحسبها أن ترى ما كان من عمر حتى ينبه منها عين غافيها (١)

★★★

واذ كانت الأوضاع السياسية تنوء بظلم الحكام واستبدادهم فقد كان للعدل فى قلوب المسلمين شوق جعل الشعراء يستمطرونه من تاريخ «عمر» فيقول «أحمد محرم» من قصيدة له بعنوان «عدل الفاروق» : (٢)

أرى العدل دعوى يعجب الناس حسنها ويخدعهم عنها الحديث الملفق
أكاذيب يزجيها الفتى وهو عالم اذا ما دعاها أنه ليس يصدق
فشا الظلم بين الناس واهتز أهله وبات ضعيف القوم يؤذى ويرهق
خليا من الأعوان يغصب حقه فيغضى ويرمى بالهوان فيطرق
رأيت ملوك الناس لا ينصفونهم وخير الملوك المنصف المترفق
يقيمون صرح الظلم فى كل أمة اذا ملكوا والعدل بالملك أخلق

ولا شك أن هذه المقدمة قد أوحت بها الظروف الاستبدادية التى كانت تسيطر على البلاد . وهو هنا يكاد يصرخ بما يريد ثم ينتقل بعد ذلك الى رسم صورة الحاكم العادل فى عمر . ثم يعود الى تصوير حال الأمم الاسلامية وما آل اليه أمرها بعد أن فقدت عمر وأمثاله (٣) فيقول :

توت أمم الاسلام من بعد ما مضى تراع بأهوال الخطوب وتصعق
تفانت مواليها وطاح حماتها كما طاح مرفض الحصى يتعلق
تحكم فيها القاسطون فأصبحت تقاد بأسباب الهوان وتوثق



(١) ديوان : حافظ ابراهيم : جـ ١ ، ص ٩٧ .

(٢) ديوان احمد محرم : جـ ٢ ، ص ٨٦ .

(٣) سعد الدين الجيزاوى : أصداء الدين فى الشعر المصرى الحديث ، ص ٢٣٥ .

ويذكر شوقي « عمر » فيشيد بعدله وقوته في الحق ، كما يشيد بجهاده في سبيل الله فيقول : (١)

بالعدل والدرة طار بالعرب	وسار في الجو بهم وفي السرب
فلم يزل دعامة الاسلام	وهامة الصحابة الاعلام
سمحا جوادا في سبيل الله	ندبا عن الحق غير لاه
مجاهدا ببيضه وسمره	وشهبه ودهمه وحمره
وعنبر العباد في الجوامع	وسمر الزهاد في الصوامع

ويشيد « حافظ ابراهيم » بحرص عمر على مبدأ الشورى ورفضه لسياسة الاستبداد وحكم الفرد فيقول :

يا رافعا راية الشورى وحارسها	جزاك ربك خيرا عن محبيها
لم يلهك النزع عن تأييد دولتها	وللمنية آلام تعانيها
درى عميد بني الشورى بموضعها	فعاش ما عاش يبنيها ويعليها
وما استبد برأى في حكومته	ان الحكومة تغرى مستبديها (٢)

ويعجب « الرافعي » ضمن ما يعجب به من مزايا عمر بمضاء عزيمته وهمة نفسه ونصرته للحق ، وتحرره من أغلال الشهوات والأهواء ومساواته بين الرعية فيقول :

وهل سوى نفسه قد سودته وهل	تنال الا بشق النفس آمال
رأى الهدى فجلاه للورى قمرا	ملء العيون وكل الناس ضلال
وجد في نصرة الهادي ودعوته	ولا يخيب امرؤ في الحق فعال
وأطلق النفس مما تبتغيه هوى	وانما شهوات النفس أغلال
ولم يكن أحد يلهيه عن أحد	كأنه والد والناس أطفال (٣)

★★★

(١) أحمد شوقي : ديوان دول العرب وعظماء الاسلام ، ص ٤١ .

(٢) ديوان حافظ ابراهيم : جـ ١ ص ٩١ .

(٣) ديوان الرافعي : جـ ١ ، ص ١٤ .

وهكذا كان « عمر » نموذجا للقائد المنتظر الذى تهفو القلوب الى عدله وشوراه وزهده وتقواه وقوته ورحمته ومساواته بين رعيته .

وبالجملة : كان عمر تجسيدا حيا لآمال الأمة فى الاصلاح السياسى والاجتماعى على النهج الاسلامى فى هذا العصر الذى اصطرعت فيه آراء المصلحين .

★★★

وكان عثمان بن عفان مثالا لوسطية الاسلام واتزانه فى الجمع بين الدنيا والآخرة فلقد عمل لدينه ودنياه معا . وتمثل منهج الاسلام فى ابتغاء الدار الآخرة من غير نسيان لنصيبه من الدنيا .

وقد دافع عنه « شوقى » مؤكدا أن الاسلام لا يتعارض مع الدنيا ولا يطالب الناس بالزهد فيها فيقول :

فان تسل ماذا أتى عثمان	مما يرد الدين والايمان
تجد دعاوى القوم لفقوها	وسلعا بالدين نفقوها
زروا على الامام ما لا يزرى	وأركبوه الحسنات وزرا
واستنكروا علوه بالدور	عن دارة الثلاثة البدور
وقال قوم خالف الاترابا	وحالف الثراء والاترابا
وكرهوا التمصير والتمدينا	وزعموا الدنيا تعفى الدنيا
ويحهموا ! ما لهم وما له ؟	طاب وطيب الحلال ماله
مال كما شاء العفاف والكرم	زكا كهدى البيت أو حلى الحرم
والزهد حال للقلوب والنهى	ما أمر الله به ولا نهى
وهذه الدنيا يد العظيم	وسره فى ملكه العظيم
أسكنها العقل فكانت أشرفا	من كل زاه فى السماء أشرفا
أحل منها ما صفا مشارعا	وحرم الآفات والمصارعا
وساقها للأنبياء ترسف	هذا سليمان وهذا يوسف

وأين من شأنيهما عثمـــان على الذى خـوله الرحمن ؟ (١)

ويعجب « شـوقى » ضمن من يعجب بهم من الخلفاء والراشـدين بعثمان بن عفان ويشيد بورعه وتقواه ، وينوه بفضله فى جمع القرآن الكريم ، ويشـير الى حادث مقتله فيقول بعد أن يذكر عددا من عظمـاء الاســلام :

أو كابن عفان والقرآن فى يده يحنـو عليه كما تحنـو على الفطم
ويجمع الآى ترتيبـا وينظمها عقدا بجيد الليالى غير منفصم (٢)
جرحان فى كبد الاسلام ما التأما جرح الشهيد وجرح بالكتاب (دمى)

★★★

وكان « على ابن أبى طالب » ـ كرم الله وجهه ـ مثالا لما يرتجيه المسلمون من قيم فاضلة ومثل عليا تتمثل فى العلم والأدب ، والشجاعة والنجدة والزهد ، والخشوع والأمانة فى الحكم والعدل فى القضاء وغير ذلك من قيم الاسلام التى جسدها على امام المتقين ٠

يقول « عبد المطلب » يصف عليا بالعلم الزاخر ، واليقين الصادق ، والنفس العالية التى غذاها الدين فشبت على التقوى وارتفعت فوق الحطام الفانى :

وسل أهل السلام تجـد عليـا أمـام الناس يبتدر السـلام
حوى علم النبـوة فى فـؤاد طما بالعـلم زخارا فطـامـا
سـقاه الحق أفواق المعـانى وهيمـه بـه حبـا فهـامـا
وزوده اليقـين بـه فكانت أفاويق اليقـين لـه قـواما
ونفســا لم تذق الطعم الدنايا ولا لـذت من الدنيا طعـاما
غذاها الدين مـذ كانت فشبت على التقوى رضـاعا وانقطاعا
زكت فسمت عن الدنيـا طلابا وأضـنى حبهـا قـوما وتاما

---

(١) أحمد شوقى : ديوان دول العرب وعظماء الاسلام ، ص ٥٠ ٠

(٢) ديوان شوقى : ج ١ ، ص ٦٣٢ ، توثيق د٠ الحوفى ٠

أما شجاعته وبطولته :

فدع عنك المواطن والمغازى ومن سل الظبا فيها وشاما
فجبه للطغاة بها وجوها وجدع للضلال بها حشاما (١)

★★★

ويقول « شوقى » مشيدا بالامام على :

الزاخر العزب فى علم وفى أدب والناصر الندب فى حرب وفى سلم (٢)

ويقول :

أما الامام فالأغر الهادى حامى عرين الحق والجهاد
وأزهد الناس وفى الدنيا يده وأخشع العالم وهو سيده
وجامع الآيات وهى شتى وسدة القضا وباب الافتا
والسهد الأولى الى أشواقه اذا الظلام مد من رواقه (٣)

★★★

ولا شك أن الشعراء المحافظين كانوا متأثرين بظروف عصرهم وقضايا أمتهم حين مدوا أبصارهم الى آفاق العظمة الاسلامية وأن هذه القضايا كانت تلح عليهم وتعكس ظلالها على أفكارهم ومعانيهم وموضوعات شعرهم ومن ثم رأيناهم يركزون على معانى العدل والشورى والحق والقوة والشجاعة والاقدام والعزة والكرامة . وهى قيم كريمة ومعانى سامية تتطلع اليها الشعوب الاسلامية فى كل عصر ، ولكنها كانت فى هذا العصر ضرورة أكثر من أى وقت مضى .

★ ★ ★

واذا كان الشعراء المحافظون قد يمموا وجوههم شطر الماضى يستعيرون من مجوده ما يرد الى المعاصرين ثقتهم بأنفسهم ، ويبث فيهم روح

---

(١) ديوان عبد المطلب : ص ٢٤٢ .
(٢) الشوقيات : جـ ١ ص ٢٠٦ .
(٣) أحمد شوقى : ديوان دول العرب وعظماء الاسلام ، وص ١٣ .

الأمل فى استعادة ما كان لهم من ماض بعيد ، وتاريخ عظيم ، فانهم لم ينسوا عظمـاء عصرهم ممن جاهدوا فى سبيل الحق ، وذادوا عن حمى الاسلام وكانت حياتهم حافلة بالعلم والعمل ومواقف الاصلاح الدينى والاجتماعى ·

وكان الامام « محمد عبده » فى مقدمة الداعين الى الاصلاح الدينى والاجتماعى الذين أشاد الشعراء المحافظون بمواقفهم فى الاصلاح كما أشادوا بمواقفهم فى الدفاع عن الاسلام ضد خصومه من أمثال « هانوتو » و « فرح أنطون » ، اللذين هجما على الاسلام وانتقداه ووجها اليه من المطاعن ما هو منها برئ ·

وكان الامام « محمد عبده » قد انبرى للرد عليهما وانتصف للاسلام انتصافا رد الحق الى نصابه ، وكان لهذه الغيرة الدينية التى أبداها الامام فى الدفاع عن الاسلام أثرها فى شعراء عصره الذين أعجبوا بعلمه وخلقه واخلاصه لدينه ، وجرأته فى الحق وقد ظهر فى مدحهم للامام كما ظهر فى رثائهم له · فيقول « شوقى » يمدح الامام « محمد عبده » فى رده على « هانوتو » : (١)

محمد ما أخلفتنـا ما وعدتنـا	صدقت وقال الحق فيك ضمير
فأنت خصـم العلم حال سكونه	وأنت خصـم العلم حين تثور
وأنت أمير الحفظ والقول والنهى	اذا لم ينل تلك الثلاث أمـير
ففوق عليم القوم منك معـلم	وفوق وزير القوم منك وزير
اذا جهلت يوما علينـا خصومنا	فانك من جهل الخصوم مجير
وان جردوا الأقلام جردت اثرها	يراعا له فى الخافقين صرير
اذا صال لاقى ضيغم القوم ضيغما	له فى نفوس الشانئين زئير
وأنت قريب فى الولاء مؤمل	وأنت أبى فى الخصـام كبير
ويعجبنى منك التقى حين لا تقى	وجـدك حين الهازلون كثـير

---

(١) د· محمد صبرى : **الشوقيات المجهولة** ، جـ ١ ، ص ٢٠٢ · وقد نشرت بالمؤيد فى ١٩٠٠/٥/٣ ·

ويقول « الرافعي » يمدح الامام محمد عبده بالقوة في الحق والقدرة على افحام أهل الشرك :

لك اليد يخشى الظالمون يراعها ... وان مدت الأيدى فما فوقها يد
وأفحمت أهل الشرك حتى كأنما ... مدادك مما يجلب الخزى أسود (١)

ويشيد « الكاشف » بموقف الامام « محمد عبده » فى رده على « هانوتو » :

سلاما حجة الاسلام فينا ... ورضوانا رجاء المسلمينا
عنيت بما كتبت فكان وحيا ... يؤيد وحى ملهمك المبينا
فلم تترك لمنهم مكانا ... يرى فيه المزاعم والظنونا
جهادا فى سبيل الله يفدى ... بمهجته المواطن أن تهونا (٢)

وقال « عبد المطلب » يرثى الامام ويشيد بموقفه فى الرد على « هانوتو » : (٣)

فكم من يد للدين أسدى وموطن ... تبين فيه للذى ضل رشده
وما نسى الأقوام موقفه الذى ... به رد « هانوتو » وقد ضل كيده
وكان يظن ابن الفرنسى أنه ... أتى بالذى لا يمكن الناس جحده

وكان الامام محمد عبده حريصا على تأكيد أن الاسلام دين العلم والمدنية وأنه صالح لكل زمان ومكان ، وأنه لا يعادى حضارة الغرب ولا يعارضها على خط مستقيم ولكنه يتعامل معها فى اطار ما دعا اليه من الأخذ بأسباب القوة المادية التى لا تناقض روح الاسلام . وكان تفسيره للقرآن الكريم نموذجا لفكره ومنهجه فى الدعوة الى الاسلام .

وقد أشاد الشعراء المحافظون بهذا المنهج الذى يقوم على التوفيق بين الاسلام وحضارة العصر .

---

(١) ديوان الرافعى : ج ٣ ، ص ١٢٨ .
(٢) ديوان الكاشف : ج ١ ، ص ٦٥ .
(٣) سعد الدين الجيزاوى : أصداء الدين فى الشعر المصرى الحديث ، ص ٢٥٨ .

فقال حافظ فى رثائه للامام محمد عبده مشيدا بهذا المنهج :

أبنت لنا التنزيل حكما وحكمة وفرقت بين النـور والظلمات
ووفقت بين الدين والعلم والحجا فاطلعت نورا من ثلاث جهات (١)

وقال « الكاشف » :

وتفسر القرآن تسترعى بـه أبنـاء دينك عصرهم وتزود
وتجـادل البلغـاء عنهم بينما يخشى الجرىء ويهمد المتوقد (٢)

وقال « نسيم » :

يا ليتهم قـد غسـلوك بمدمع طهر كشؤبوب السحابة هـام
أو كفنـوك بمصحف فسرته من غامض الآيات والأحكام (٣)

وقال « الرافعى » يصف عبقرية الامام فى الكشف عن مكنون القرآن وتجلية فرائده :

القـائد الأفكار فى ميـدانها والعـلم زاوية مـن الميـدان
والمنتضى سيف الهداية بعـدما قد كان فى غمد من القرآن
يفرى بحديه الضلال ولم يكن حداه غير يراعة ولسـان (٤)

★★★

هكذا كان الامام محمد عبده موضع تقدير الشعراء واعجابهم وهو ولا شك أهل لهذا التقدير والاعجاب بما امتاز به من علم وفضل وغيرة على الدين ، وجرأة على أهل الضلال والشرك ، وبما حمله من رسالة الاصلاح

---

(١) ديوان حافظ ابراهيم : ج ٢ ، ص ١٤ .
(٢) ديوان الكاشف : ج ٢ ، ص ١٢٢ .
(٣) ديوان نسيم : ج ١ ، ص ٩٢ .
(٤) ديوان الرافعى : ج ٢ ، ص ٧٢ .

الديني والاجتماعى التى أيقظت وعى الأمة ووثبت بها فى طريق النهضة والحضارة وثبات سوف يذكرها التاريخ بالعرفان كلما بعد بصاحبها الزمان ٠

★★★

ونستطيع فى ضوء ما تقدم أن نقول :

ان الشعراء المحافظين قد اتجهوا صوب الحضارة الاسلامية يبتعثون مجودها ويعرضون منجزاتها ، ويشيدون بمظاهرها ، ويعظمون الاسلام الذى صنعها والشريعة التى أنبتتها ، والأمة التى حملتها الى الناس ، ويتباهون بالعظماء من المسلمين الذين رباهم الاسلام فكانوا رجاله وحماته ورسل دعوته ومظهر حضارته ، وحياة مبادئه ٠

وكان هذا الاتجاه نحو الحضارة الاسلامية بكل مظاهرها ومقوماتها والعمل على احياء مجودها ، ونشر مفاخرها ، وتعظيم بناتها ضرورة اقتضتها — أكثر من أى وقت مضى — مرحلة النضال ضد الاستعمار الذى غرس مخالبه فى مقاتل المسلمين ، وجد فى القضاء على دينهم وتشويه حضارتهم وتراثهم يبتغى اجهاض كفاحهم واشعارهم بالهوان والضعف حتى يظلوا على ولائهم للاستعمار خاشعين من الذل ٠

ومن هنا كانت أهمية اليقظة الاسلامية التى نبهت الوعى الاسلامى الى حقيقة ما يراد بالمسلمين ، وكان من مظاهر هذه اليقظة الاسلامية أن اتجه الكتاب والشعراء صوب المجود الاسلامية يسترجعون صورها ، ويستحضرون ملامحها ، ويستلهمون العبرة من خلالها يريدون أن يردوا الى الأمة ثقتها بنفسها ، ودينها وتاريخها ، وأن يحفزوها الى الجهاد والمقاومة وليس بالقليل ما أبدعه الشعراء المحافظون فى شعرهم من صور البطولة والكفاح والعدل والشورى والحكم الاسلامى ٠ فقد أيقظوا بهذا الابداع الفنى أشواق الأمة وحركوا أمانيها نحو هاتيك المعانى التى كانت أحوج ما تكون اليها فى هذه الفترة بصفة خاصة ٠

الفصل الثانى

التعريف بالاسلام فى مواجهة التحديات

اذا كان الشعراء المحافظون قد أشادوا بالحضارة الاسلامية وهى ثمرة من ثمرات الاسلام فان التعريف بالاسلام صانع هذه الحضارة أجدر أن يتجه اليه الشعراء • وهم اذ يفعلون ذلك ، فيبتعثون قيم الاسلام ومثله ، وينشرون فضائله ومبادئه ويواجهون قضايا العصر بمنهجه انما يردون الى الحضارة الاسلامية روحها ويعيدون اليها مجدها ، مجد هذا الدين الذى صنعها •

وهذا ما فعله مفكرو الاسلام فى القرن التاسع عشر الميلادى عندما بدأت المواجهة غير المتكافئة بين الشرق الاسلامى المتدثر فى فكرية القرون الوسطى والغرب المسيحى المتوثب بحضارته نحو هذا الشرق الضعيف •

ففى زمن هذا التحدى ـ ولا يزال قائما ـ هرع المفكرون من زعماء المسلمين الى مصدر قوة المسلمين ، وأساس حضارتهم وموئل عزهم ومجدهم •• هرعوا الى الاسلام يستعصون به ، ويقاومون من داخل أسواره عنف هذا التحدى للوجود الاسلامى ويؤكدون من خلاله هذا الوجود الاسلامى وقدرته على الثبات والمواجهة • واذ ذاك أخذوا ينفضون عن تراثهم أكفان البلى •• ويزيلون عن دينهم حجب الجهالة وسجف الخرافة وغشاوة البدعة ثم شرعوا يقدمونه الى الناس فى حقيقته الأولى وصورته الأصيلة التى بهرت المعاصرين من المسلمين فاستردوا يقين القدرة على تحدى الحضارة الوافدة وابعادها عن مكان الصدارة فى عصرنا الحديث •

★★★

وكان هذا الاتجاه نحو الكشف عن مزايا الاسلام والتعريف بمبادئه ونظمه رد فعل لموجة التغريب أو الاتجاه نحو الغرب والاعتماد عليه فى بنـاء نهضتنا الحـديثة ومن هنا نشـأت الدعوة الى الاصلاح على اساس الاسلام ، وظهرت معها نهضة فكرية اسلامية تستهدف بعث الوعى الاسلامى من خـلال التعريف بحقـائق الاسـلام وبيان خصائصه ومزاياه · تأكيدا لصلاحيته لبناء نهضة قوية على أساسه ·

وكان السيدان « جمال الدين الأفغانى » و « محمد عبده » فى مقدمة الداعين الى النهضة على أساس الدين · وكان جهادهما فى سبيل الكشف عن القيم الذووية للاسلام تمكينا لهذه الدعوة واثباتا لأهمية الدين وضرورته وأثره فى رقى الانسان وسعادته وهذا ما أكده السيد « جمال الدين » فى كتابه « الرد على الدهريين » ·

فقد أثبت أن دين الاسلام « قد أقيم على أساس من الحكمة متين ورفع بناؤه على ركن لسعادة البشر ركين · ذلك أن عروج الأمم على معارج الحق الأعلى وتدرج الشعوب فى مدارج العلم الأجلى ، وصعود الأجيال على مراقى الفضـائل واشراف طوائف الانسـان على دقائق الحقـائق ونيلهم للسعادة الحقيقية فى الدارين كل ذلك مشروط بأمور لا يتم الا بها » (١) ثم ناقش هذه الأمور التى تتم بها سعادة الأمم (٢) فأكد من خلالها « أن المدنية الفاضلة التى مات الحكماء على حسرة من فقدها لا تختط فى العالم الانسانى الا بالدين الاسلامى » (٣) ·

وكان الامام محمد عبده يرى أن النهضة من طريق الدين أصح وأيسر من طريق التقليد للغرب · ومن ثم دعا الى تنقية الدين مما ليس منه والرجوع به الى سماحته الأولى والى نبعه الصافى ليكون نقطة البدء فى اقامة نهضة متميزة بأصالة ما تنتمى اليه وهو الاسلام الذى جربته الأمة الاسلامية فى عصورها الأولى « فأقامت عليه حضارتها التى ازدهرت فى عصرها الذهبى لان مكانته فى ضمير الأمة تجعله متينا ومكينا » ، بل هو « أمتن أساس يمكن أن يقوم عليه شامخا البناء الحضارى المنشود للعرب والمسلمين » (٤) ·

---

(١) السيد جمال الدين الافغانى : **الرد على الدهريين** ، ص ١٠٥ ·

(٢) راجع : **الرد على الدهريين** ، من ص ١٠٦ الى ص ١١٦ ·

(٣) المرجع السابق : ص ١١٦ ·

(٤) د· محمد عمارة : **تيارات اليقظة الاسلامية الحديثة** ، ص ١٣٥ ·

وكان من أعظم ما لجأ اليه الامام محمد عبده فى تجلية حقائق الدين وكشف كنوزه للناس : تفسير القرآن الكريم على نحو يوقظ الاحساس الدينى فى النفوس وينمى فيها مشاعر الايمان بضرورة العودة اليه والتماس الخير والهوى فى رحابه ٠

وكان منهجه فى التفسير أن يقرأ الآية من القرآن « فاذا اتصلت بالعقيدة شرحها شرحا وافيا عارضا ما ورد فى القرآن فى موضوعها ، مبينا ما دخل على المسلمين فى هذه العقيدة من فساد ودخيل واذا اتصلت الآية بالأخلاق أبان أثر هذا الخلق فى صلاح الأمم وضياعه فى فسادها ٠ واذا اتصلت بحالة اجتماعية أوضح أثر هذه الحالة الاجتماعية فى حياة الأمم مسترشدا بالواقع مستشهدا بما يجرى فى العالم ٠٠ فهو تفسير عملى يشرح الواقع ويبين سببه ، وهو أخلاقى يدعو للعمل على مبادىء الاسلام ، ويبين أنها منبع السعادة فى كل العصور وهو روحانى يدعو الى السمو بالنفس الى العالم العلوى ، وينزه الله عما دخل على العقيدة من فساد بالاشراك مع الله الأولياء وعبادة الأضرحة والتشفع بأهل القبور واقامة الموالد ونذر النذور ، وهو فى كثير من مبادئه يشبه تعاليم الوهابية فى الرجوع الى الأصول الأولى للاسلام وتنقيته من البدع والخرافات والأوهام ولكنه يتقبل ما صلح من مبادىء المدنية الحديثة ويدعو الى الأخذ بها ما اتفقت مع الاسلام (١) ٠

وقد حاول « الامام » فى تفسيره أن يوفق بين الاسلام وقضايا العصر على النحو الذى يحقق قيام مجتمع متحضر ترتكز دعائمه على أصول الاسلام وتستشرف رغائبه الى آفاق المدنية الحديثة بما يؤكد قدرة الاسلام على العطاء المتجدد وصلاحيته لكل زمان ومكان ، وأنه دين ومدنية معا وأن الذين يذهبون الى اصلاح المجتمع من طريق الدين لا يحرمونه شيئا من طيبات الحضارة الحديثة ٠

★★★

وكان لجهاد الامام فى الكشف عن حضارة الاسلام وتنقية الدين مما شابه من بدع العصور وجهل المتدينين أثر كبير فى دعم الاتجاه الاسلامى فى الاصلاح وتقوية شوكته فى مواجهة الدعوة الى التغريب أو الاصلاح على مبادىء الحضارة الغربية وأساليبها فى النهضة ٠

---

(١) أحمد أمين : زعماء الاصلاح فى العصر الحديث ، ص ٣٣٠ ٠

وقد غذت الصحف الدينية هذا الاتجاه الاسلامى بما كانت تنشره من مقالات تشيد بالاسلام وتؤكد قدرته على تأسيس مدنية راقية ، وحضارة زاهـــرة .

ومن ذلك ما جاء فى « المنار » تحت عنوان « هل يرجع استرجاع مجد الشرق بقوة الاسلام ؟ » (١) فقد كتب صاحب « المنار » جوابا على هذا السؤال يقول : « نعم وألف نعم .. ان أصول الدين الاسلامى وتعاليمه وآدابه الصحيحة هى التى جمعت كلمــة قبائل العــرب وارتفعت بهم من حضيض الهمجية الى أوج الفضائل ، وأشرقت بهم على دول العالم بالسيادة والسلطان وهدتهم الى العلوم والفنون . ولا خلاف فى أن انحراف المسلمين عن جادتها هو الذى سلبهم ما كسبوا فالرجوع اليها هو الذى يؤلف بين قلوبهم ، ويجمع كلمتهم ويرجع لهم سيادتهم » .

وجاء فى « المنار » تحت عنوان « الاسلام والترقى » (٢) : « أن الاسلام جاء بتعاليم كافية لعروج الأمم الى سماء السيادة العليا ، وبلوغها مراتب الســيادة القصــوى لانها أبطلت جميع الاعتقادات التى تحول بين الانسان وبين كماله كالاعتقاد بأن الانسان ناقص حقير لا يصح له أن يرفع أعماله الحســنة الى الجانب الإلهى الأقدس ولا أن يطلب من مولاه الحقيقى العفو عن تقصيره وتفريطه بالتوبه الصحيحة بينه وبين ربه الرءوف الرحيم الا بوساطة رؤساء الذين المعبر عنهم بالقديسيين أو الأولياء المقربين . فأبطل الامتياز الصنفى ، وألغى هذه الوساطة والرياسة التى تهبط بالطباع وجعل الناس كلهم عبيدا لله وحده أحرارا بالنسبة لما سواه ، لا فضل لأحــد على أحــد الا بالعلم والعمل والكمالات المكتسبة وكما أبطل سلطة الرؤساء الروحانيين قيد سلطة الملوك والحكام بشريعة مبنية على أصول الحرية الصحيحة والعدل والمساواة التى سادت بها أوروبا فى ممالكها واعتز سلطانها ولم تقتبسها الا من الاسلام ، وستضطر أوروبا الى الأخذ بما لم تأخذ به من قواعد الاسلام كايجاب الزكاة التى هى العلاج الوحيد لمرض من أشد الأمراض الاجتماعية ــ وكاعطاء المرأة حقوقها التى كانت مهضومة قبل الاسلام عند جميع الأمم فى الشرق والغرب .. وقد اعترف للاســلام بمزاياه الشريفة مما ذكرنا ، وما لم نذكر جميــع الناظرين فى التاريخ والباحثين فى الملل والشرائع بالانصاف من غير المسلمين حتى ان ذلك ليفيض من أنابيب أقلامهم فيما يكتبون ويجرى على ألسنتهم عنــدما ينطقون من غير روية ولا تكلف ولا مصانعة ولا تصنع (٣) .

---

(١) **المنار** : المجلد الأول ، ص ٣١٧ ، سنة ١٨٩٨ .

(٢) **المرجع السابق** : ١٨٩٩/٢/٤ .

(٣) **المنار** : السنة الأولى عدد ٤ فبراير ١٨٩٩ ، ص ٣٦٢ . مقال (الاسلام والترقى) .

وفى سبيل التعريف بمزايا الاسلام نشرت « المنار » ترجمة لكتاب « ثلاثون عاما في الاسلام » الذى صدر سنة ١٩٠٤ للسياسى الفرنسى « ليون روش » وفيه يقول المؤلف : « ٠٠ وجدت هذا الدين الذى يعيبه الكثيرون أفضل دين عرفته فهو دين انسانى طبيعى اقتصادى أدبى ، ولم أذكر شيئا من قوانيننا الوضعية الا وجدته فيه « مشروعا » بل انى عدت الى الشريعة التى يسميها (جـول سيمون) الشريعة الطبيعية فوجدتها كأنها أخذت أخذا من الشريعة الاسلامية ، ثم بحثت فى تأثير هذا الدين فى نفوس المسلمين ٠ فوجدته قد ملأها شجاعة وشهامة ووداعة وجمالا وكرما ، ثم وجدت هذه النفوس على مثال ما يحلم به الفلاسفة من نفوس الخير والرحمة والمعروف فى عالم لا يعرف الشر واللغو والكذب ، ولقـد وجدت فى الاسلام حل المسألتين الاجتماعيتين اللتين تشغلان العالم طرا :

الأولى :في قول القرآن : (انما المؤمنون اخوة) فهذا أجمل مبادىء الاشتراكية ٠

والثانية : فرض الزكاة على ذى المال وتخويل الفقراء حق أخـذها غصبا اذا امتنع الأغنياء عن دفعها طوعا ٠

انه دين المحامد والفضائل ، ولو أنه وجد رجالا يعلمونه الناس حق العلم ويفسرونه تمام التفسير لكان المسلمون أرقى العالمين ، وأسبقهم الى كل الميادين » (١) ٠

★★★

وعلى هذا النحو من تمجيد الاسـلام وبيان مزايا الشريعة مضـت صحيفة « المنار » تجدد عهد « العروة الوثقى » فى نشر الوعى الاسلامى وتبصـير المسلمين بحقائق دينهم ومجود أسـلافهم ، وتذكى فيهم حمية الدين ، وانضمت الى هاتين الصحيفتين صحف اسلامية أخرى كانت تعنى بالحديث عن الاسلام واذاعة فضائله ، وتصحيح مفاهيمه وشرح قضايا العصر فى ضوئه ، واظهار شخصية الدين كنظام سماوى صالح لكل زمان ومكان ٠

---

(١) أنور الجندى : الاسلام في غزوة جديدة للفكر الانسانى ص ٧١ ٠

ومن هذه الصحف :

١ - **المـــؤيد** : للشيخ على يوسف وقد صـــدرت سنة ١٨٨٩ وكانت فى ظاهرها جريدة عامة الا أنهـــا كانت تدافع عن الاســـلام وتعمل على تغـــذية الشعور الدينى والرجوع بالاسلام الى نقاوته الأولى ومجده العظيـــم (١) ٠

٢ - **العالم الاسلامى** : التى أصدرها « مصطفى كامل » سنة ١٩٠٥ ٠

٣ - **الحـــرمين** : التى أصدرها « حسين برادة » سنة ١٩٠٦ ٠

٤ - **نشيد الاسلام** : التى أصـــدرها « الســـيد محمـــد طلعت » سنة ١٩٠٦ ٠

٥ - **الجمعية الشرعية** : التى أصدرها الشيخ محمود خطاب السبكى سنة ١٩١٣ ٠

٦ - **السعادة الأبدية** : التى أصدرها على عبـــد الرحمن الحسينى ســـنة ١٩١٤ ٠

٧ - **العالم الاسلامى** : التى أصدرها الشيخ عبد العزيز جاويش ســـنة ١٩١٦ ٠

٨ - **الحـــكمة** : التى أصدرها السيد عبد العزيز جاب الله ســـنة ١٩١٨ (٢) ٠

★★★

وهذه هى أهم الصحف الدينية التى صدرت فى هذه الفترة وتولت مهمة الدفاع عن الاسلام ضد أعدائه والطاعنين عليه ، واهتمت بابراز مزايا الدين فى مجال العقيدة والتشريع وفى ميدان الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ٠ وكانت هذه الصحف تتخذ من المناسبات الدينية فرصـــة للاشادة بالاسلام وبمجوده ورجاله ٠ وكان لذلك كله أثر كبير فى اذكاء العاطفة الدينية ، وتقوية الشعور الاسلامى ومؤازرة فكرة الاصلاح على

---

(١) **عمر الدسوقى** : فى الأدب الحديث ، جـ ٢ ، ص ٢٠٣ ٠

(٢) د٠ سعد الدين الجيزاوى - **العامل الدينى** ص ٢٢٢ ٠

أساس الدين التى اتضحت قسماتها وبرزت مزاياها من خلال ما كتبه أنصارها عن الاسلام الحق الذى يدعون الى اقامة الاصلاح والنهضة على أساسه .

وعلى طريق الدعوة الى الاسلام الصحيح قامت الجمعيات الدينية تؤدى رسالتها فى نشر مبادىء الاسلام بصورة محببة تتفق ومنهج الاسلام فى الدعوة الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة .

وكان من أبرز الجمعيات الدينية التى ظهرت فى هذه الفترة « الجمعية الخيرية الاسلامية » التى دعا الشيخ « محمد عبده » الى تأسيسها سنة ١٨٩٣ . وجمعية « مكارم الأخلاق » التى أنشأها الشيخان « عبد الوهاب النجار » و « محمد زكى السندى » سنة ١٨٩٩ . و « الجمعية الشرعية للتعاون بين العاملين بالكتاب والسنة المحمدية » التى أنشأها الشيخ « محمود خطاب السبكى » سنة ١٩١٣ .

★★★

وكان ظهور هذه الجمعيات الدينية والصحافة التى تدافع عن الدين رد فعل لموجة من الالحاد سادت بعض المفكرين الذين شبعوا بالعلم الغربى وفتنوا به ولم يعرفوا الاسلام حق معرفته (١) .

ومن هنا كان حرص هذه الجمعيات والصحافة الدينية على ابراز حقيقة الاسلام والتصدى لمفتريات الخصوم وجهل الأتباع وتأكيد أن الاسلام أقدر على تحقيق آمال الأمة فى الاصلاح والنهضة .

ومهما يكن من أمر فان تيار الاسلام الذى قاده « الأفغانى » و « محمد عبده » قد شق مجراه فى وجدان الشعب المصرى الذى استجاب لهذا التيار بفطرته الدينية من ناحية . ثم بفضل جهود المخلصين من دعاة هذا التيار الذين أحسنوا عرض الاسلام وفتحوا أعين الناس على كنوز الحضارة الاسلامية ، ومجود المسلمين من ناحية أخرى .

وكان لهذا التيار أثره فى ايقاظ الوعى الاسلامى الذى رد الى المسلمين المعاصرين يقين القدرة على تحدى الحضارة الوافدة أزكى وأعلا وهى الحضارة الاسلامية التى قامت على أساس صحيح وهو الايمان بالله فكانت أعظم حضارة عرفها التاريخ .

---

(١) عمر الدسوقى : فى الأدب الحديث جـ ٢ ص ٢٠٩ .

فاذا كنا ــ ونحن لا نزال على مفترق الطرق ــ نريد اصلاحا لأنفسنا ونهضة لأمتنا ، فليكن الاسلام سبيلنا · نبنى على قواعده ونشيد مبادئه ونستمد من حضارته وقيمه وتقاليده مفاهيم المجتمع الجديد ·

★★★

وقد غذى شعراء الجيل المحافظ هـذا الاتجاه الاسلامى بما كانوا ينشرون من شعر يبرز مزايا الاسـلام ويشيد بنظـامه الحضارى فى كل المجالات : فى العقيـدة والشريعة وفى السياسة والاقتصـاد وفى السلم والحرب أو العلاقات الدولية وفى غير ذلك من شئون الدين والدنيا ·

ففى مجال العقيدة : دعا الاسلام الى توحيد الله تعالى فصحح بهذه الدعوة خطأ البشرية فى العقيدة الالهية التى انحرف بها الفلاسفة القدماء وأهل الأديان السابقة (١) · ورد الناس الى الايمان باله واحد لا شريك له · قال تعالى : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » فارتفع بهذا التوحيد شأن الانسان وسمت قيمته بما صار اليه من الكرامة بحيث أصبح لا يخضع لأحد الا لخالق السموات والأرض وقاهر الناس ·· وتجلت بذلك للانسـان نفسه حرة كريمة ، وأطلقت ارادته من القيود التى كانت تقعدها بارادة غيره سواء أكانت ارادة بشرية ظن أنها شعبـة من الارادة الالهية أو انها هى كارادة الرؤسـاء والمسيطرين ، أو ارادة موهومة اخترعها الخيال كما يظن القبور والأحجار والأشجار والكواكب ونحوها ، وافتكت عزيمته من أسر الوسائط والشفعاء والمتكهنة والعرفاء وزعماء السيطرة على الأسرار ومنتحلى حق الولاية على العبد فيما بينه وبين الله ·· وصار الانسان بالتوحيد عبدا لله خاصة حرا من العبودية لكل ما سواه » (٢) ·

وفى ظل عقيدة التوحيد تستلهم النفوس معانى الانفة والعزة والجرأة والاقدام والبسالة والشجاعة ، وفى ظلها يتحرر البشر تحررا كاملا وحقيقيا من العبـودية للبشر وتكون هذه هى « الحضارة الانسانية » لأن حضارة الانسان تقتضى قاعدة أساسية من التحرر الحقيقى الكامل للانسان ، ومن الكرامة المطلقة لكل فرد فى المجتمع (٣) ·

---

(١) راجع : عباس العقاد : **حقائق الاسلام وأباطيل خصومه** ، ص ٥٥ ·
(٢) د· محمد عمارة : **الأعمال الكاملة للامام محمد عبده** ، جـ ٣ ، ص ٤٤٢ ·
(٣) سيد قطب : **معالم فى الطريق** ، ص ١٠٨ ·

لقد افتكت عقيدة التوحيد أسر العزائم وأغلال العقول فأخذ المسلمون يطلبون من الكمال ما يستطيعون ، وأخذوا يشرفون من شرفات الايمان على أسرار الوجود فاتصلوا بمنابع العلم من الفكر والدين حتى سطعت أنوار العلم فيهم ، ولم يبقى باب من أبوابه الا دخلوه ، ولا مرتقى من مراقيه الا علوه ، ولم يبق متروك من مخلفات اليونان والفرس والرومان الا استخرجوه من زوايا النسيان وجلوا صدأه ، وأبرزوه للأنظار ٠٠ ولم يكد ينتهى القرن الثانى من ظهور الاسلام حتى جال المسلمون فى علوم السموات والأرض ، وصححوا الأغاليط ، ونقحوا القواعد ، وحرروا الأصول » (١) ٠

ومن وحى هذه العقيدة في النفوس استشعر المسلمون شمائل القوة والسيادة والمجد فحرصوا على أن تكون لهم الغلبة والسيادة اعزازا للحق وتمكينا للدين واقرارا لمنهج الله فى الأرض وذلك هدف الحضارة الاسلامية وغايتها (٢) ٠

وقد أشاد « شوقى » بعقيدة التوحيد التى بنى عليها الاسلام ، وقام على أساسها نظامه واستضاءت بنورها حضارته فقال يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويشيد بمزايا الاسلام فى مجال العقيدة :

بك يا ابن عبد الله قامت سمحة　　بالحق من ملل الهوى غراء
بنيت على التوحيد وهو حقيقة　　نادى بها سقراط والقدماء (٣)

وقال من قصيدة له في (نبى البر) صلى الله عليه وسلم : (٤)

نظام الدين والدنيا أتيح له يتممه
تطلع فى بنائهما على التوحيد يدعمه

فالتوحيد هو الأساس الذى يقوم عليه بناء الاسلام أو هو جوهر الشريعة الاسلامية كما يقول شوقى :

يلوح حول سنا التوحيد جوهر كالحلى للسيف أو كالوشى للعلم (٥)

(١) د٠ محمد عمارة : **الأعمال الكاملة للامام محمد عبده** ، جـ ٣ ، ص ٢١٧ ٠
(٢) راجع : أبو الأعلى المودودى : **الحضارة الاسلامية** ٠ أسسها ومبادئها ، ص ٦٠ ٠
(٣) **الشوقيات** : جـ ١ ، ص ٢٥ ٠
(٤) **الشوقيات** : جـ ٢ ، ص ١٧٠ ٠
(٥) **الشوقيات** : جـ ١ ، ص ٢٠٤ ٠

ومن أثر التوحيد فى النفس المسلمة أنه يحررها من الخوف لغير الله الواحد فتنطلق فى طريق السيادة والمجد لا يردها عن غايتها بشر ، وتلك مزية من مزايا الاسلام · يقول شوقى :

حب السيادة من شمائل دينكم والجد روح منه والاقدام (١)

ويقول :

من عادة الاسلام يرفع عاملا ويسود القدام والفعالا (٢)

ويقول يمدح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم :

وعلمنا بناء المجد حتى أخذنا امرة الأرض اغتصابا (٣)

ويقول « عبد المطلب » فى نشيده عن الاسلام : (٤)

المجد سر سنائه والعلم لمح ضيائه
والعدل أصل بنائه فسل الممالك والقرون

تلك عقيدة التوحيد فى الاسلام وتلك آثارها الايجابية فى النفس الانسانية فماذا عن التشريع الاسلامى أو الشريعة الاسلامية بمعنى أدق ؟

لقد أكد المنصفون من مفكرى الغرب أن أية شريعة لم تتمكن من أن تعلو فوق شرع « محمد » وأن التشريع فى الغرب ناقص بالنسبة للتعاليم الاسلامية وأن أهل أوروبا بجميع مفاهيمهم لم يصلوا بعد الى ما وصل اليه « محمد » وسوف لا يتقدم عليه أحد (٥) ·

وقد ذكر العلامة « سانتيلانا » فى كتاب « الفقه الاسلامى » المطبوع فى تونس سنة ١٨٩٩ أن فى الفقه الاسلامى ما يكفى المسلمين فى تشريعهم المدنى ان لم نقل ان فيه ما يكفى الانسانية كلها (٦) ·

---

(١) الشوقيات : جـ ١ ، ص ٢٣٠ ·
(٢) المرجع السابق : ص ٧١ ·
(٣) المرجع السابق : ص ٧١ ·
(٤) ديوان عبد المطلب : ص ٣٠٠ ·
(٥) أنور الجندى : الاسلام فى غزوة جديدة للفكر الانسانى ، ص ٩٩ ·
(٦) المرجع السابق : ونفس الصفحة ·

ويعترف العلامة « شيريل » عميد كلية الحقوق بجامعة فيينا ـ الكاثوليكي المذهب ـ بفضل الشريعة الاسلامية فيقول في كلمة أمام مؤتمر الحقوقيين سنة ١٩٢٧ « ان البشرية لتفخر بانتساب رجل «كمحمد» اليها اذ أنه رغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرنا أن يأتي بتشريع سنكون نحن الأوروبيين أسعد ما تكون لو وصلنا الى قمته بعد ألفي عام » (١) ·

ويقول « هوكنج » الآمريكي أستاذ الفلسفة في جامعة هارفارد في كتابه « روح السياسة العالمية » : « ان في نظام الاسلام كل استعداد داخلي للنمو ، بل انه من حيث قابليته للتطور يفضل كثيرا من النظم المماثلة ، وعندي أن الصعوبة لم تكن في انعدام وسائل النمو والنهضة في الشريعة الاسلامية وانما في انعدام الميل الى استخدامها وأنني أقرر أن الشريعة الاسلامية (٢) ·

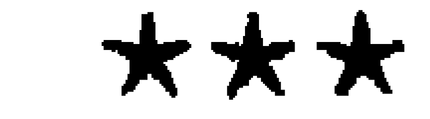
أجل ·· لقد حوت الشريعة الاسلامية المبادىء اللازمة لقيام حضارة زاهرة بما فجرت من ينابيع العلم والحكمة ، وبما ألهمت المسلمين من معاني الحق والخير التي أقاموا عليها حضارتهم ·

وقد أشاد « شوقي » بما في الشريعة الاسلامية من قيم انسانية ومدنية فاضلة (٣) ·

★★★

وفي ظل هذه الشريعة التي حملتها الأمة الاسلامية الى الناس علا الحق وسما الفضل وساد العدل ، وتلاقت آمال البشرية في نظام تطمئن اليه النفوس لأن :

فيه ما تشتهي العزائم ان هم ذووها ويشتهي الأذكياء (٤)



---

(١) أنور الجندي : الاسلام في غزوة جديدة للفكر الانساني ، ص ٩٨ ·

(٢) المرجع السابق : ص ١٠١ ·

(٣) راجع الفصل الأول من هذا الباب ، ص ١٨٥ / ١٨٦ ·

(٤) ديوان شوقي : ج ١ ، ص ١٨٥ ·

ولقد كان من مزايا هذا النظام أو من مزايا الشريعة الاسلامية أنها جمعت بين الدين والدنيا ، ووفقت بين مطالب الروح ومطالب الجسد فى آن واحد يقول شوقى ــ يمدح رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم :

نظــام الدين والدنيــا أتيــح لــه يتممــه (١)

تطــلع فى بشــائرها علــى التوحيــد يدعمــه

ويقول مصورا ابتهاج الكون بمولد النبى ــ صلى الله عليه وسلم :

الـروح والمـلأ والملائك حـوله للدين والدنيــا بـه بشراء (٢)

ويقول منوها بعظمــة الشريعة الاســلامية التى أقام المسلمون على قواعدها أعظم حضارة جمعت بين الدين والدنيا :

ظلموا شريعتك التى نلنـا بهـا ما لم ينل فى رومة الفقهـاء

مشت الحضارة فى سناها واهتدى فى الدين والدنيا بهـا السعداء (٣)

ويقول مشيدا بكمال الشريعة الاسلامية واشتمالها على ما ينفع الناس فى دينهم ودنياهم :

خططت للدين والدنيـا علومهما يا قارىء اللوح بل يا لامس القلم

أحطت بينهما بالسر وانكشفت لك الخزائن من علم ومن حكم (٤)

★★★

ومن مزايا الشريعة الاسلامية انها عامة شاملة للناس جميعا ، ليست لجنس أو وطن أو زمن وانما هى عامة شاملة لكل زمان ومكان ٠ انهـا تخاطب الانسان من حيث هو انسان دون نظر الى جنسه أو لونه أو وطنه أو زمانه أو مكانه ، وفى هذا ما يدل على عظمة الشريعة الاسلامية ووفائها بحاجة الانسانية مهما تطور بها الزمان أو تغير بها المكان ٠

---

(١) ديوان شوقى : جـ ١ ، ص ٦١١ ٠

(٢) المرجع السابق : ص ٥٩٧ ٠

(٣) المرجع السابق : ص ٦٠٥ ٠

(٤) المرجع السابق : ص ٦٢٥ ٠

وقد نوه الشعراء بهذه الخصوصية التى امتازت بها الشريعة الاسلامية فقال « شوقى » مشيدا بعالمية الاسلام :

نور السبيل يساس العالمون بها تكفلت بشباب الدهر والهرم
يجرى الزمان وأحكام الزمان على حكم لها نافذ فى الخلق مرتسم(١)

ويقول مادحا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم :

أنت الذى نظم البرية دينه ماذا يقول وينظم الشعراء ؟ (٢)

ويباهى بحاجة الناس الى التشريع الاسلامى فى كل عصر بما يؤكد عالمية الاسلام وعموم رسالته فيقول :

يرجع الناس والعصور الى ما سن والجاحدون والأعداء (٣)

ويتوسل الى الله برسول العالمين ـ صلى الله عليه وسلم فيقول :

فالطف لأجل رسول العالمين بنا ولا تزد قومه خسفا ولا تسم (٤)

ويقول « عبد المطلب » يمدح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويشير الى عموم رسالته :

قلب جرى فيه أن الله حمله عبء البرية من عرب ومن عجم(٥)

ويقول « محرم » مشيدا بالاسلام :

ملأ الزمان هدى وأشرق حكمة للعالمين ورحمة وسلاما (٦)

---

(١) المرجع السابق : ص ٦٣٠ .

(٢) المرجع السابق : ص ٦٠٥ .

(٣) ديوان شوقى : جـ ١ ، ص ١٨٥ .

(٤) المرجع السابق : ص ٦٣٤ .

(٥) ديوان عبد المطلب : ص ٢٦٠ .

(٦) سعد الدين الجيزاوى : اصداء الدين فى الشعر المصرى الحديث ، ص ٣٥٠ .

وهذه الخصوصية التى تميزت بهـا الشريعة الاسلامية تنسجم مع طبيعة الدين الخاتم الذى جمع الله فيه ما تفرق فى الأديان السابقة · وجعله متمما لها ومهيمنا عليها ·

★★★

« والتشريع حين يكون عاما تقتضى الحكمة فيه أن يكون قائما على معيار يسع الناس جميعا ، الأقوياء والضعفاء ، فى جميع الأزمان والأوطان، كذلك اقتضت رحمة الخالق بعباده فى دعوتهم الى الاسلام الذى أريد له أن يكون دين الانسانية ومختتم رسالات السماء ــ اقتضت هذه الرحمة الراحمــة أن يكون التشريع فى شريعة هــذا الدين مقــدرا على ما يحتمل الضعفاء لا الأقوياء » (١) ·

ومن هنا كان « اليسر والسماحة أوضح سمات الشريعة الاسلامية بل ذلك هو عنوانها الذى تعرف به ، ووجهها المشرق الذى تطلع على الناس بجلالها وعظمتها فيه ، وليس هذا القول عن فرض وادعاء بل هو حقيقة من حقائق الاسلام تأخــذ مكانها واضحا بارزا فى نصوص شريعته حتى لكأنها حكم مسلم من أحكامها التى يجب اتباعها والعمل بها (٢) · يقول الله تعالى : « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » (٣) ويقول تعالى : « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا » (٤) ويقول سبحانه : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » (٥) ويقول جل شأنه : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج » (٦) ·

ويقول النبى صلى الله عليه وسلم لصاحبين من صحابته بعث بهما الى اليمن « يسرا ولا تعسرا » ، ويقول : « بعثت بالحنيفية السمحاء » ويقول : « ان هذا الدين متين ، فأوغل فيه برفق ·· وانه لن يشاد الدين أحــد الا غلبه » ويقول : «ان هذا الدين ذلول لا يركب الا ذلولا» · ومما يدخل فى هذا الباب ويحسب عليه فى يسر الشريعة وسماحتها ــ هذا الوضوح المشرق الذى صيغت فيه أحكام هذه الشريعة وحملت الى الناس به ·

---

(١) عبد الكريم الخطيب : التعريف بالاسلام فى مواجهة العصر الحديث وتحدياته ، ص ٢١٨ ·

(٢) المرجع السابق : ص ٢٠٩ ·

(٣) سورة الحج : الآية : ٧٨ ·

(٤) سورة النساء : آية ٢٨ ·

(٥) سورة البقرة : آية ١٨٥ ·

(٦) سورة المائدة : آية ٦ ·

وحسب هـذه الأحكام وضاءة واشراقا أن يحملها كلام الله ، وأن يتلقاها رسول الله فى هذا الكلام الكريم الذى أصبح قرآن المسلمين ، يتعبدون بتلاوته ، وترتيل آياته ! وانه لكى يكون للتشريع – أى تشريع سماوى أو أرضى – الأمـر المرجو منه فى مجتمعه ، المدعو الى التزامه ، والتعامل به – ينبغى أن يكون واضح العبارة ، محدد المعنى ، بعيدا عن الرمز والتعمية ، مجانبا المسالك الوعرة والطرق المعوجة ، آخـذا الناس اليه من أقرب طريق وأعدله ، وأيسره ، والا تاه الناس فى دروبه ، وضلوا فى مسالكه ، وتقطعت بهم الأسباب دون أن يقعوا على حقائق التشريع وأن يدركوا مقاصده ومراميه ، الأمر الذى لا يجعل لهذا التشريع أثرا فى نزعات الناس وفى سلوكهم ، وان يكن له من أثر ، فهو الحيرة والبلبلة والاضطراب والتشريع الاسلامي الذى يحمل نصوصه القرآن الكريم والسنة المطهرة ، يمثـل أكمل وأدق تشريع عرفته الحيـــاة فى وضـــوح المعنى وضبطه وأحكامه (١) .

★★★

وقد أشاد « شوقى » بيسر الشريعة وسماحتها ، كما أشاد بالقرآن الكريم ونوه ببلاغته وفصاحته . فقال فى همزيته النبوية : (٢)

بك يا ابن عبد الله قامت سمحة ... بالحق من ملل الهدى غـراء

وقال :

والدين يسر والخـــلافة بيعـة ... والأمر شورى والحقوق قضاء (٣)

وقال يشـيد بالقرآن الكريم – لسان هـذه الشريعة – الذى أعجز الفصحاء والبلغاء وأزرى ببيانهم :

الذكر آية ربك الكبرى التى ... فيهـا لباغى المعجزات غنـاء
صدر البيان له اذا التقت اللغى ... وتقـدم البلغـاء والفصحاء
أزرى بمنطق أهله وبيـانهم ... وحي يقصر دونه البلغـاء
دين يشيد آيـة فى آيـة ... لبنـاته السـورات والأضـواء
الحق فيـه هو الأساس وكيف لا ... والله جل جلاله البنـاء (٤)

---

(١) عبد الكريم الخطيب : التعريف بالاسلام فى مواجهة العصر الحديث وتحدياته ، ص ٢٢٠ .

(٢) الشوقيات : جـ ١ ، ص ٣١ .

(٣) ديوان شوقى : جـ ١ ، ص ٦٠٢ ، توثيق د. الحوفى .

(٤) المرجع السابق : ص ٦٠٠ .

ويقـــول :

جاء النبيون بالآيات فانصرمت وجئتنـــا بحـكيم غير منصرم
آياته كلما طال المـــدى جدد يزينهن جلال العتق والقـــدم
يكاد فى لفظـــة منــه مشرفة يوصيك بالحق والتقوى وبالرحم(١)

وقال يصف الشريعة بالبيان والأحكام :

بشرع هـــام فيـــه النــــا س هاشـــمه وأعجمـــه
كضـــــوء الصـــبح بينه وكالبنيـــان محـــكمه
بيـــان جـــل موحيـــه وعـــلم عـــز ملهمـــه
حـــكيم الذكـــر بين الكتـــ ب مظهـــره وميســـمه (٢)

وقال يصف الحديث النبوى الذى اكتسب من بلاغة القرآن الكريم ومن بركته :

أما حديثك فى العقول فمشرع والعلم والحكم الغـــوالى المـاء
هو صبغة الفرقان نفحة قدسه والســـين من ســـوراته والراء
جرت الفصاحة من ينابيع النهى من دوحـــه وتفجر الانشاء (٣)

ومن مزايا الشريعة الاسلامية فيما يتصل بسياسة الحكم . أنهـا انفردت بنظام سياسى تتحقق فى ظله العدالة والحرية والمساواة ، وتصان به الحقوق وتطمئن اليه النفوس ، ذلك لأنه يقوم على أصول ثابتة أهمها :

١ ـ أن الحاكم الحقيقى هو الله سـبحانه وتعـالى ، وليس البشر الا أمناء عن الله عز وجل ينفذون حكمه ويطبقون منهجه .. ومن ثم .. فالحكومة الاسلامية هى الحكومة المنفذة لمنهج الله وشريعته والحاكم المسلم هو الذى يحكم بما أنزل الله . قال تعالى : « فاحكم بينهم بما أنزل الله

---

(١) المرجع السابق : ص ٦٢٤ .
(٢) المرجع السابق : ص ٦١٤ .
(٣) المرجع السابق : ص ٦٠١ .

ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق .. » (١) وقال سبحانه : « وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك .. » (٢) .

★★★

وطاعة المسلمين لحاكمهم في الارض مرهونة بطاعته لله اذ الطاعة لولى الأمر فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » مستمدة من طاعة الله والرسول لأن ولى الأمر فى الاسلام لا يطاع لذاته ، وانما يطاع لاذعانه هو لسلطان الله ، واعترافه له بالحاكمية ثم لقيامه على شريعة الله ورسوله ، ومن اعترافه بحاكمية الله وحده ثم تنفيذه لهذه الشريعة ، يستمد حق الطاعة . فاذا انحرف عن هذه أو تلك سقطت طاعته ولم يجب لأمره النفاذ (٣) .

٢ ــ الشورى فى الأمر . قال تعالى « وشاورهم فى الأمر » وقال جل شأنه « وأمرهم شورى بينهم » . فالحاكم المسلم يجب ألا يستبد بأمر المسلمين وألا يقطع فى شأنهم ولا أن يعقد معاهدة تلزم المسلمين بأى التزام دون مشورتهم وأخذ آرائهم ، فان فعل كان للأمة حق الغاء كل ما استبد به من دونهم وتمزيق كل معاهدة لم يكن لهم رأى فيها » (٤) .

والشورى فى الاسلام أوسع مدى من دائرة الحكم لأنها قاعدة حياة الأمة الاسلامية ، فقد ورد الأمر بالشورى فى القرآن الكريم واصفا اياها بأنها الشورى فى (الأمر) وفى هذه الكلمة من العموم والاطلاق ما يجعلها تشمل كل شئون الجماعة المسلمة (٥) وأيا ما كان نظام الشورى أو أسلوب ممارستها فانها الضمان لتحقيق العدل وسلامة التصرف فى شئون الدولة ولكن بشرط أن تمارس دورها فى الحكم ولا تكون شعارا خادعا كما هى فى معظم النظم السياسية المعاصرة .

---

(١) سورة المائدة : آية : ٤٨ .

(٢) سورة المائدة : آية : ٤٩ .

(٣) سيد قطب : **العدالة الاجتماعية فى الاسلام** ، ص ١٠٦ .

(٤) د. زينب رضوان : **النظرية الاجتماعية فى الفكر الاسلامى** : أصولها وبناؤها من القرآن والسنة ، ص ١٢٦ .

(٥) المرجع السابق : ص ١٢٦ .

٣ ـ العدل . تنفيذا لقوله تعالى : « واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل .. » (١) وقوله تعالى : « وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ان الله يحب المقسطين » (٢) وقوله تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » (٣) .

★★★

وهذا هو العدل المطلق الذى لا يميل ميزانه الحب والبغض ، ولا تغير قواعده المودة والشنآن . العدل الذى لا يتأثر بالقرابة بين الأفراد ، ولا بالتباغض بين الأقوام .. وتلك قمة فى العدل لا يبلغها أى قانون دولى الى هذه اللحظة ولا أى قانون داخلى بل لا يقاربها كذلك .. والمهم فى عدالة الاسلام أنها لم تكن مجرد نظريات ، بل أخذت طريقها الى واقع الحياة فحفظ الواقع التاريخى منها أمثلة متواترة (٤) .

وهذه العدالة تقتضى التثبت من الحكم قبل الفصل فى أمر ما حتى يجنب نفسه مزالق الخطأ التى توقعه فى احداث الظلم ببعض الناس (٥) .

هذه هى الخطوط العامة التى ترسم سياسة الحكم فى الاسلام تتفرع منها خطوط أخرى تكمل صورة الحكم الاسلامى وتؤكد تفرده بين الأنظمة المعاصرة بتحقيق العدالة والسلام النفسى للمجتمع الاسلامى .

وقيمة النظرية الاسلامية فى الحكم لا تكمن فى « المصطلحات » التى قد تتفق أو تختلف مع المصطلحات السياسية المعاصرة ولكنها تكمن على وجه التحديد فى الممارسة العملية وفى التطبيق الفعلى لهذه النظرية التى جربتها الأمة الاسلامية فى عصور حضارتها الأولى فجنت ثمار ذلك عدلا وأمنا .

وقد أشاد الشعراء المحافظون بنظام الحكم فى الاسلام فقال شوقى يصف ملامح الحكومة الاسلامية ، ويمدح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى أرسى دعائم النظام السياسى بهذه المبادىء :

الله فوق الخلق فيها وحده　　　لا سوقة فيها ولا أمراء

---

(١) سورة المائدة : آية : ٥٨ .
(٢) سورة المائدة : آية : ٤٢ .
(٣) سورة المائدة : آية : ٨ .
(٤) سيد قطب : **العدالة الاجتماعية فى الاسلام** ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ .
(٥) د. زينب رضوان : **النظرية الاجتماعية فى الفكر الاسلامى** ، ص ١٢٥ .

فرسمت بعدك للعباد حكومة   والناس تحت لوائها أكفاء
والدين يسر والخلافة بيعة   والأمر شورى والحقوق قضاء (١)

ويسترجع « حافظ ابراهيم » صورة الحكم الاسلامى كما تجسدت فى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ــ عدلا لا تؤثر فيه القرابة ولا الحسابة، ومساواة بين الرعية لا تيئس الضعفاء ، ولا تطمع الأقوياء ، وشورى فى الأمر لم يرجع عنها الى آخر لحظة فى حياته ٠

فيقول فى عدله المطلق :

فلا الحسابة فى حق يجاملها   ولا القرابة فى بطل يحابيها (٢)

ويحكى مقالة رسول كسرى فى عدل « عمر » :

أمنت لما أقمت العدل بينهم   فنمت نوم قرير العين هانيها (٣)

ويقول عن مساواته ــ رضى الله عنه ــ بين المتخاصمين فى مجلس القضاة :

فما القوى قويا رغم عزته   عند الخصومة والفاروق قاضيها
وما الضعيف ضعيفا بعد حجته   وان تخاصم واليها وراعيها (٤)

★★★

وقد رأينا فيما سبق كيف تغنى الشعراء المحافظون بالحكم الاسلامى وتخيلوا ملامحه فى خليفة المسلمين السلطان «عبد الحميد» (٥) ٠
حلال ، ولكنه فى نفس الوقت يضع الثروة العامة فى خدمة مجموع المسلمين

أما عن مزايا الشريعة الاسلامية فيما يتصل بسياسة المال ــ فان الاسلام يجيز للمسلم أن يكون ثروته الخاصة ما دامت آتية عن طريق

---

(١) ديوان شوقى : ج ١ ، ص ٦٠٢ ، توثيق د٠ الحوفى ٠
(٢) ديوان : حافظ ابراهيم : ج ١ ، ص ٨٤ ٠
(٣) المرجع السابق : ص ٩٠ ٠
(٤) المرجع السابق : ص ٨٣ ٠
(٥) راجع : الباب الأول ص ١٨ / ١٩ ٠

والى ذلك يشـير القرآن الكريم « كى لا يكون دولة بين الأغنيـاء منكم » والمقصـود بذلك ألا يكون المـال حكرا على الأغنيـاء فقط بما يؤكد مفهوم الوظيفة الاجتماعية للمال فى الاسلام تحقيقا للعدالة الاجتماعية التى نادى بها الاسلام (١) ٠

ان المال فى الحقيقة : هو مال الله ٠ والناس مستخلفون فيه ، وليست ملكيتهم له الا ملكية ظاهرية أو ملكية تصرف وانتفاع ٠ قال تعالى « وآتوهم من مال الله الذى أتاكم » (٢) وقال سـبحانه : « وأنفقـوا مما جعلـكم مستخلفين فيه ٠٠ » (٣) ٠

واذا كـان المال مملوكا ملكية مطلقة لله تعالى فانه قد أوجده لجميع عباده القادر منهم والعاجز على حد سواء ولهذا يقول الله تعالى : « والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » (٤) ويعنى ذلك أن القادرين من عباد الله انما يعملون فى أموالهم ، وأموال العاجزين منهم عن العمل ، ولهذا فان من حق هؤلاء العجزة أن يحصلوا على جزء مما أنتجه القادرون لأنهم يشتركون معهم فيما يعملون فيه (٥) ٠

وهذا ليس معناه شيوعية المال ولكن معناه أن طبيعة الملكية الفردية فى الاسلام تختلف عن الملكية الفردية فى النظام الرأسمالى من حيث ان للجماعة حقا فى مال الفرد يقوم الى جانب حقه الخاص ولا يصادره ٠ وانها محوطة بمجموعة من المبادىء المحددة لطبيعة الملكية ووسائل الانفاق (٦) ٠

والزكـاة هى الحـد الأدنى لحق الجماعة فى مـال الفرد ، يؤخذ من أغنيائهم ويرد على فقرائهم تطهيرا لنفوس الأغنياء من الشـح والأنانية ، ولأموالهم من حقوق الفقراء فيها وتقريبا للفوارق الطبقية التى يكرههـا الاسلام ، لما وراءها من أحقاد وأضغان تحطم أركان المجتمع ، ولما فيها من أثرة وجشع وقسوة تفسد النفس والضمير ولما فيها من اضطرار المحتاجين ٠ اما الى السرقة والنصـب ، وأما الى الذل وبيع الشرف والكرامة وكلهـا منحدرات يتجافى الاسلام بالجماعة عنها (٧) ٠

---

(١) خالد محمد خالد ــ الأهرام فى ١٩٨٥/٣/٢٩ ٠
(٢) سورة النور : آية : ٣٣ ٠
(٣) سورة الحديد : آية : ٧
(٤) سورة المعارج : آية : ٢٤ ، ٢٥ ٠
(٥) د٠ عبد الهادى النجار : الاسلام والاقتصاد : ص ١٨٥ ٠
(٦) راجع د٠ زينب رضوان : المرجع السابق ، ص ٧٩ ، وما بعدها ٠
(٧) سيد قطب : العدالة الاجتماعية فى الاسلام ، ص ١٥٤ ٠

من أجل ذلك شرعت الزكاة فريضة مالية اجتماعيه تحقق نوعا من التوازن الاقتصادى والتقارب الطبقى ، وتعالج ـ الى جانب وسائل أخرى ـ مشكلة الفقر في المجتمع وترسم أساس التكافل الاجتماعى بين الناس ٠ فاذا كان التكافل الاجتماعى يعنى أن للفرد في المجتمع حقوقا يجب معها على القوامين على هذا المجتمع أن يعطوا كل ذى حق حقه وأن يدفعوا الضرر عن الضعفاء وأن يسدوا خلل العاجزين والا تآكلت لبنات المجتمع وانهارت بنيانه ٠٠ اذا كان هذا هو مفهوم التكافل الاجتماعى فان الزكاة تعتبر من هذه الناحية أول مؤسس للتكافل الاجتماعى فى التاريخ (١) ٠

وقد دعا الشعراء المحافظون الى الزكاة انطلاقا من هذه المفاهيم الاسلامية فأكدوا على فرضيتها وبينوا أثرها الاجتماعى والنفسى (٢) بما يدل على حكمة الاسلام فى مشروعيتها ٠

على أن الفقير مهما يكن حقه فى مال الغنى فلا ينبغى أن يقعد عن العمل مطمئنا الى نصيبه من الزكاة ، لأن الاسلام يكره القاعدين من المؤمنين ــ غير أولى الضرر ــ عن السعى وطلب الرزق بقدر ما يحرص على كرامة المسلم أن تهان بذل السؤال ٠

لذلك حث الاسلام على العمل طلبا للكسب ، وتعففا عن المسألة ٠ فاذا عجز عن العمل أو طلبه فلم يجده كان له من الزكاة ما يحفظ حياته ويسد حاجته ٠

« فهذه الاعانة من الزكاة هى وقاية اجتماعية أخيرة وضمانة للعاجز الذى يبذل طوقه ثم لا يجد دون الكفاية ، أو يجد مجرد الكفاف ٠ وفى هذا يجمع الاسلام بين الحرص على أن يعمل كل فرد بما فى طاقته ، وألا يرتكن على الاعانة الاجتماعية فيتبطل ، والحرص على أن يعين المحتاج بما يسد خلته ، ويرفع عنه ثقل الضرورة ووطأة الحاجة وييسر له الحياة الكريمة (٣) ٠

وقد أشاد «شوقى» بدعوة الاسلام الى العمل ودعا الى الاقتداء برسل الله ــ عليهم السلام ــ الذين كانوا يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله ٠ فيقول (٤) :

---

(١) د٠ عبد الهادى النجار : **الاسلام والاقتصاد** ، ص ١٥٢ ٠

(٢) راجع : **الباب الثانى** : ص ١٥٤ ٠

(٣) سيد قطب : **العدالة الاجتماعية فى الاسلام** ، ص ١٥٥ ٠

(٤) أحمد شوقى : **ديوان دول الغرب وعظماء الاسلام** ، ص ٢٤ ، ٢٥ ٠

كان رسول الله فى شبابه	لا يدع الرزق وطرق بابه
أى رسول أو نبى قبله	لم يطلب الرزق ويبغ سبله ؟
موسى الكليم استؤجر استئجارا	وكان عيسى فى الصبا نجارا
من أحسن الأمثال فيما أحسب	الخبز لا يعطى ولكن يكسب
والرزق لا يحرمه من سعى	مضيقا عليه أو موسعا
لا نال لا سعيا ولا تكلانا	لا ينفع التوكل الكسلانا
كان قبيل البعث رب مال	وتاجروا ميسر الأعمال
يضرب فى حزن الفلا وسهله	بمال عمه ومال أهله
مبارك الرحلة والاقامة	مستصحب الجد والاستقامة
والرزق بين الناس بحر جار	شراعه يرفع للتجار
مبارك الرحلة والاقامة	واكسب فأهل الكسب من أحبابه

★★★

وهذه الدعوة الى العمل وطلب الرزق تدل على حرص الاسلام على حماية المجتمع من آفة البطالة ، وحماية الكرامة الانسانية ٠

★★★

وأما عن مزايا الشريعة الاسلامية فيما يتصل بالعلاقات الدولية ــ أو ــ السلام والحرب ٠ فان الاسلام قد بنى علاقاته الانسانية على أساس السلام ومد يده بالمودة والاخاء والرحمة لكل البشر ٠ قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة » (١) وقال جل شأنه : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » (٢) وقال سبحانه : « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » (٣) ٠

---

(١) سورة البقرة : آية : ٢٠٨ ٠

(٢) سورة الحجرات : آية : ١٣ ٠

(٣) سورة الأنبياء : آية : ١٠٧ ٠

بيد أن النـاس قد مردوا على العـدوان والظلم والافتئات على حق الآخرين فى الحياة الحرة الكريمة التى تصان فيها الأعراض والدماء والعقائد. وهذا النوع من الناس لا ترده السماحة الى الصواب واحترام حرية الآخرين فى الحياة والعقيدة ولكن ترده القوة التى تكسر شرته ، والعنف الذى يذل كبرياءه ، ويطوى سلطانه ويرفع عن أعين الناس ومشـاعرهم ضواغطه ومؤثراته . على نحو ما يقول شوقى :

والشر ان تلقه بالخير ضقت به ذرعا   وان تلقـه بالشر ينحسم (١)

أو ما يقول « عبد المطلب » (٢) :

والناس انظلموا البرهان واعتسفوا   فالحرب اجدى على الدنيا من السلم

ذلك منطق العقل والأخلاق ، وذلك ما يقوله هداة الوطنية والشرف « حين ينكرون على المرء أن ينكص عن الجهـاد فى سـبيل وطنه وكرامته وعرضه ، ويعيبون عليه ان سالم من يقاتلونه فى سـبيل حريته وحرية بلاده » (٣) .

وذلك ما فعله الاسلام حين رفع راية الجهاد واستل سيفه فى وجه العدوان على الحياة والعقيدة وحرية الانسان .

فحق السيف ـ كما استخدمه الاسلام ـ « مرادف لحق الحياة ، وكلما أوجبه الاسلام فانما أوجبه لانه مضطر اليه أو مضطر الى التخلى عن حقه فى الحياة وحقه فى حرية الدعـوة والاعتقاد . فان لم يكن درءا للعدوان والافتيات على حق الحياة وحق الحرية . فالاسـلام فى كلمتين : هـو دين السلام » (٤) .

وهذا ما يؤكد تاريخ الحروب الاسلامية فى صدر الدعوة اذا ثبت : « أن المسلمين لم يحاربوا قط فى صدر الدعوة الا مدافعين لمن يصـدون الدعوة بالموعظة الحسـنة من ذوى السـلطان ، وكذلك كانت وقائعهم مع مشركى الجزيرة العربية ، كما كانت وقائعهم مع الفرس والروم » (٥) .

---

(١) ديوان شوقى : ج ١ ، ص ٦٢٨ ، توثيق د. الحوفى .
(٢) ديوان عبد المطلب : ص ٢٦٣ .
(٣) عباس العقاد : ما يقال عن الاسلام ، ص ١٣٠ .
(٤) عباس العقاد : حقائق الاسلام وأباطيل خصومه ، ص ٢٣١ / ٢٣٢ .
(٥) عباس العقاد : ما يقال عن الاسلام ، ص ١٢٩ .

ان الاسلام لا يرفع السـيف ـ ابتداء ـ وانما يدعو الناس الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة • فان سالموه ولم يقفوا فى وجهه ، ولم يحولوا بينه وبين أن يصل الى الناس وهم آمنون أحرار من كل قيد سياسى أو اجتماعى أو فكرى أو عقدى يفل ارادتهم عن حرية الاختيار لما يدينون به •• فهم وما يختارون : لأنه « لا اكراه فى الدين » ولكن بعد أن يتحرر الناس من أغلال السلطة وقيود العبودية البشرية التى تحرمهم حرية الاختيار •

فكما أن الاسـلام لا يكره أحدا على الدين فانه لا يقبل من أحد أن يكره أحدا على رفضه أو معاداته أو تجاهله والا فلا معنى لحرية العقيدة فى الاسـلام ، لأن الاكراه على قبول الدين كالاكراه على رفض الدين كلاهما يناقض حرية العقيدة •

ومن ثم • كان القتال لتحطيم القوى المادية والمعنوية التى تقف فى طريق الاسلام ، وتحول بينه وبين الوصول الآمن الى ضمير الفرد ضرورة تفرضها حرية العقيدة التى أقرها الاسلام • ولا صلة لهذا القتال باكراه الناس على الدين لان ازالة العوائق والمؤثرات الخارجية والداخلية من طريق الاسلام حتى يصل الى الناس وهم أحرار من كل قيد • هو تأكيد لحرية العقيدة لا لاكراه الناس عليها فكيف يقال ـ بعد ذلك ـ ان الاسـلام قد انتشر بالسـيف ؟ أو أن المسلمين الفاتحين قد أكرهوا الأمم المغلوبة على الدخول فى الدين ؟ ان السبب الصحيح لانتشار الاسلام وسيادة مبادئه : أنه كان أفضـل نظام اجتماعى وسياسى تمخضت به الاعصر (١) وليس السيف هو الذى جعل للاسلام مكانة فى معترك الحياة بل أن بساطة النبى التامة وانكاره الكلى لذاته واحترامه الدقيق لعهوده ، واخلاصه الشديد لأصدقائه وأتباعه ، وشجاعته وبسالته ، وثقته الكاملة بالله •• هذه ـ لا السيف ـ هى التى جرفت كل شىء أمام المسلمين الأولين (٢) •

لقد أتى المسلمون بعقائد سهلة ملائمة للفطرة وأعطوا الحياة الدنيا قسطها من الاعتبار فترقت العلوم والفنون والآداب باجتهادهم الذى عجز عنه المسيحيون الذين عاصروهم (٣) •

واذن : فان الاسلام قد انتشر بقوته الذوويه التى تتمثل فى أصول الاسلام ومبادئه وأحكامه وشريعته التى تنفست البشرية من خلالها عبير الحضارة والكرامة الانسانية •

---

(١) عمر أبو النصر : محمد بن عبد الله وآراء مشاهير كتاب الغرب فى رسالته ونبوته والاسلام ، ص ١٣١ •

(٢) أنور الجندى : الاسلام فى غزوة جديدة للفكر الانسانى ، ص ٩١ •

(٣) المرجع السابق : ص ١٢٤ •

وقد دافع الشعر المحافظ عن الحروب الاسلامية مؤكدا أنها كانت فى مجموعها دفعا للعدوان والظلم ، أو دفاعا عن الحق الذى جاءوا به الى الناس ولكنهم حاربوه ، وأن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يغز قوما الا بعد أن استنفذ كل الوسائل السلمية التى من شأنها أن تحقن الدماء • ويا طالما صبر النبى على الايذاء رجاء أن يفىء القوم الى الحق الذى جاء به ولكنهم تمادوا فى الضلال والبغى « فكانت الحروب لدفع الحيف » •• كما يقول ـ شوقى • ولم تكن ـ قط ـ للاكراه على اعتناق الاسلام كما يقول الجاهلون من أعداء الاسلام •

يقول شوقى ـ مفندا مزاعم الجاهلين من أعداء الاسلام حول القتال فى الاسلام :

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا ... لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم

جهل وتضليل أحلام وسفسطة ... فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم

لما أتى لك عفوا كل ذى حسب ... تكفل السيف بالجهال والعمم (١)

فالذين سالموا الاسلام سالمهم ، والذين قعدوا له كل مرصد يصدون دعوته ويفتنون المؤمنين به • تكفل السيف بتأديبهم •• لقد طال صبر الاسلام عليهم حتى « بلغوا نهاية التمرد » • فلم يكن بد من الحرب تأديبا للطغاة وتأمينا لمسيرة الحق •

يقول شوقى :

وصبر الداعى على البذاء ... وما يلاقيه من الايذاء

فما مقال الجاهل المفند ... تأسس الاسلام بالمهند ؟

كل غزاة للنبى حقه ... لم يعد فى حرب قريش حقه

ليس سواء كلها العوان ... لا يستوى الدفاع والعدوان

هم بلغوا نهاية التمرد ... وطردوا الاسلام كل مطرد

وصادروا الأموال معتدينا ... وناصبوا محمدا والدينا

وهادنوا ثم بغوا فناهدوا ... ونقضوا ما أبرم التعاهد

فكانت الحرب لدفع الحيف ... قد يؤخذ السلم بحد السيف(٢)

---

(١) الشوقيات : ج ١ ، ص ٢٥٠ •

(٢) أحمد شوقى : ديوان دول العرب وعظماء الاسلام ، ص ٣٧ / ٣٩ •

ان الحرب لم تكن – قط – هدفا للمسلمين • ولم تكن قط – بغيا ولا عدوانا ولا مغنما • وانما كانت وسيلة لاقرار السلام ، وارضاء الحق واعلاء كلمة الدين •

كم من غزاة للنبى كريمة   فيها رضا للحق أو اعلاء

كانت لجند الله فيها شدة   فى اثرها للعالمين رخاء

ضربوا الضلالة ضربة ذهبت بها   فعلى الجهالة والضلالة عفاء

دعموا على الحرب السلام وطالما   حقنت دماء فى الزمان دماء (١)

ويبرىء « عبد المطلب » سيوف المسلمين من أغراض الدنيا ، وهوى النفوس فيقول :

فى الله ما جردوا منها وما غمدوا   فى الله ما سفكوا من أنفس ودم (٢)

لم يحملوها لدنيا قل ما جمعوا   منها،ولا عن هوى فى النفس محتكم

★★★

وجملة القول : أن الاسلام لا يبدأ أحدا بعدوان وانما يمد يده بالسلام الذى يؤمن وجوده ، ويفتح الأبواب المغلقة لدعوته ومتى ظفر الاسلام بهذا الحق : حق الوجود ، وحق البلاغ للناس فلا قتال • بل سلام ورحمة حتى وان بقى الناس على عقيدتهم مخالفين للاسلام لانه « لا اكراه فى الدين » •

أما اذا اعتصم الأعداء بالقوة ، وظاهروا على اخراج الاسلام واعنات أهله فان شريعة الاسلام – بل كل شريعة تؤمن بكرامة الانسان – تؤكد حق المسلم فى الدفاع عن نفسه وعقيدته •

ولم تكن غزوات النبى – صلى الله عليه وسلم – الا ردا لعدوان أو ازالة للعوائق التى اعترضت طريق الاسلام وهو يدعو الناس الى الله بالحكمة والموعظة لحسنة •

وقد دافع « شوقى » عن الحرب فى الاسلام « ودحض زعم الزاعمين بأن الاسلام قد انتشر بحد السيف ، وقوة الغزاة ، لا على الحجة والبرهان

---

(١) ديوان شوقى : جـ ١ ، ص ٦٠٤ ، توثيق د. الحوفى •

(٢) ديوان عبد المطلب : ص ٢٦٣ •

وقبول العقل ، وأبان أن القتال لم يكن الا لرد عـدوان المعتدين وتنحية رءوس الشر (١) » هذا هو موقف الشريعة الاسـلامية من قضية الحرب والسلام أو العلاقات الدولية تتجلى فيه طبيعة هذا الدين فى الاعتدال بين القوة والرحمة ، والحرب والسلام بحسب ما تمليه طبيعة المواقف الدولية ٠

مستبد على قـوى ، حليم عن ضعيف ، وهكذا الاسلام (٢)

★★★

ومن منطلق الاحساس بمزايا الاسلام وعظمة مبادئه ، وصلاحيته ـ بل ضرورته ـ لبناء نهضة حضارية متينة ٠ أخذ الشعراء المحافظون يهتفون بالاسلام ويدعون الى التمسك به ، واحياء منهجه ، مؤكدين أنه السبيل الوحيد لاستعادة المجد الغارب وحماية الحق المستباح ٠

★★★

وكان ايمان الشعراء المحافظين بعظمة الاسـلام وأصالة حضـارته دافعا لهم الى الحفاظ على تراث الاسلام وحمايته من محاولات الهدم التى اسـتهدفت القضاء عليه تمهيدا للقضـاء على الاسلام ذاته وكانت الدعوة الى العامية هى أخطر هذه المحاولات التى تعرض لها تراثنا العربى فى هذه الفترة ٠

وترجع بداية هذه الدعوة الاستعمارية الى سنة ١٨٨٠ عندما ظهر كتاب « قواعد العربية العامية فى مصر » للمؤلف الألمانى « ولهلم سبيتا » ـ مدير دار الكتب المصرية ـ حاملا جرثومة الدعوة الى العامية والى اتخاذ الحروف اللاتينية لكتابة العامية ـ تلك الحروف التى نودى باسـتخدامها فيما بعد لكتابة العربية الفصحى (٤) ٠

وفى سنة ١٨٩٠ وضع « كارل فولرس » الألمانى كتاب عن « اللهجة العربية الحديثة فى مصر » ندد فيها بجمود العربية الفصحى ، وشـبهها باللاتينية الكلاسيكية وشبه العلاقة التى بينها وبين اللهجة المصرية بالعلاقة التى بين اللاتينية الكلاسيكية والايطالية الحديثة (٥) ٠

---

(١) سعد الدين الجيزاوى : **اصداء الدين فى الشعر المصرى الحديث** ، ص ٢٢٥ ٠

(٢) **الشوقيات** : ج ٣ ، ص ١٤٣ ٠

(٣) راجع **ديوانى احمد محرم** : ج ١ ص ١١٣ ، والكاشف : ج ١ ص ٩١ ٠

(٤) راجع : د٠ نفوسه زكريا : **تاريخ الدعوة الى العامية وآثارها فى مصر** ، ص ١٨ ٠

(٥) د٠ نفوسة زكريا : **المرجع السابق** ، ص ٢٥ ٠

وفى سنة ١٨٩٣ ألقى السير « ويليام ولكوكس » خطبة بنادى الأزبكية نصح فيها المصريين باتخاذ العامية أداة للتعبير الأدبى اقتداء بالأمم الأخرى واستشهد بالأمة الانجليزية وقال : انها أفادت فائدة كبيرة منذ هجرت اللاتينية التى كانت لغة الكتابة والعلم يوما ما ، وكان هذا الرجل من أشد أعداء اللغة الفصحى وقد بذل غاية جهده لمحاربتها والقضاء عليها (١) .

وفى سنة ١٩٠١ وضع « سلدن ولمور » القاضى الانجليزى كتابا فى اللغة الانجليزية عن العامية المصرية دعا فيه الى اتخاذ العامية لغة أدبية وكانت له وسائله الخاصة فى دعم تلك الدعوة التي صادفت هوى فى نفسه فاستغلها ليحقق هدفا من أهداف الاستعمار البريطانى ، وهو فصل المسلمين والعرب عن ماضيهم وتفتيت وحدتهم اللغوية بالقضاء على العربية الفصحى (٢) .

ثم دخلت هذه الدعوة مرحلة جديدة وخطيرة باجتذاب نفر من دعاة الشيوعية والتفرقة الاسلامية . أخذوا يدعون الى تمصير اللغة العربية زاعمين أن اللغة الفصحى « تبعثر وطنيتنا المصرية ، وتجعلها شائعة فى القومية العربية فالمتعمق فى اللغة الفصحى يشرب روح العرب ويعجب بأبطال « بغداد » بدلا من أن يشرب الروح المصرية ويدرس تاريخ مصر ، فنظره متجه أبدا نحو الشرق ، وثقافته كلها عربية شرقية ، وليس من مصلحة الأمة العربية أن ينزع شبابها الى الشرق » (٣) .

ولا شك أن هذه الدعوة الى تمصير اللغة العربية أو الى العامية خطر محقق على الاسلام من طريق اللغة القرآنية التى نزل بها القرآن ، وسجل بها تاريخ الاسلام وتراثه ، كما أنها خطر محقق على المسلمين لأنها تمزق وحدتهم الفكرية والروحية ، وتعصب بتراثهم الضخم وحضارتهم المجيدة ، وكان لهذا الاحساس بالخطر أثره فى الدعوة الى اللغة الفصحى وحمايتها من الضياع ، وبرز فى هذه المعركة من الكتاب عبد الله النديم (٤) ومحمد المويلحى ، وابراهيم اليازجى ، وشهدت الساحة الأدبية تكوين جمعيات من أدباء مصر لنشر الفصحى والذود عنها ومقاومة طغيان اللغة العامية (٥) .

---

(١) عمر الدسوقى : **فى الأدب الحديث** ، جـ ٢ ، ص ٤٠ .

(٢) د. نفوسه زكريا : **المرجع السابق** ، ص ٢٦ .

(٣) عمر الدسوقى : **المرجع السابق** ، جـ ٢ ، ص ٤٣ .

(٤) راجع فى ذلك : ١ ـ عبد الله النديم : **بين الفصحى والعامية** ، د. نفوسة زكريا .
٢ ـ **مختارات المنفلوطى** ، مقال (اللغة والعصر) ص ٨١/٧٩ .

(٥) عمر الدسوقى : **فى الأدب الحديث** ، جـ ٢ ، ص ٤٥ .

وانتظم الشعراء المحافظون في صفوف المقاومة ضد محاولات الهدم التي تعرضت لها اللغة الفصحى على يد أعدائها والمتربصين بها في الداخل والخارج ولم يكتف المحافظون بما قدموه للفصحى من خدمات تجلت في تمكنهم من آدابها القديمة وفي قيامهم باحيائها في نتاجهم الغزير ، وانما تصدوا للدفاع عنها في قصائدهم وكتاباتهم • فنظم « حافظ ابراهيم » قصيدته على لسان اللغة العربية سنة ١٩٠٣ عقب الضجة التي أحدثها كتاب « ولمور » الذي حمل على العربية واتهمها بالضعف والعجز عن أداء حاجات العصر • فدافع « حافظ » في قصيدته هذه عن الاتهامات التي وجهت الى العربية مشيدا بمجودها الغابرة ، وبحماتها المخلصين مستحثا أبناءها على مواصلة جهودهم لاحيائها مبينا ما تنطوي عليه الدعوة الى العامية من خطر (١) يقول فيها :

وسعت كتاب الله لفظا وغاية ... وما ضقت عن آي به وعظات

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق أسماء لمخترعات

أنا البحر في أحشائه الدر كامن ... فهل سألوا الغواص عن صدفاتي

ثم يقول منددا بالمصريين الذين رددوا دعوة العامية • وبالأجانب الذين بثوها وروجوها لها ، مبينا حقيقة هذه العامية المتعددة اللهجات المتقلبة الأحوال (٢) :

أرى كل يوم بالجرائد مزلقا ... من القبر يدنيني بغير أناة

واسمع للكتاب في مصر ضجة ... فاعلم ان الصائحين نعاتي

أيهجرني قومي — عفا الله عنهم — ... الى لغة لم تتصل برواة

سرت لوثة الافرنج فيها كما سرى ... لعاب الأفاعي في مسيل فرات

فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة ... مشكلة الألوان مختلفات (٣)

ويقول شوقي مدافعا عن الفصحى بأنها لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وأنها قادرة على التعبير مهما اختلفت العصور وتطورت ، وتقدم العمران وازدهر ولكن هذه الطواعية والاقتدار لا يأتيانها الا بنصرة أبنائها وحفاظهم على مجدها وتراثها :

---

(١) د• نفوسه زكريا : تاريخ الدعوة الى العامية وأثرها في مصر ، ص ٣٦٢ •

(٢) المرجع السابق : نفس الصفحة •

(٣) ديوان حافظ ابراهيم : ج ١ ، ص ٢٥٥ •

ان للفصحى زماما ويدا تجنب السهل وتقتاد الصعابا
لغة الذكر لسان المجتبى كيف تعيا بالمنادين جوابا
كل عصر دارها ان صادفت منزلا رحبا وأهلا وجنابا
أتت بالعمران روضا يانعا وادعها تجر ينابيع عذابا

ويرفض شوقى ترقيع الفصحى بكلمات دخيلة مؤكدا قدرتها على النهوض بأعباء الحضارة مهما ارتقت ، ضاربا المثل بحضارة الأندلس التى نهضت اللغة بأعبائها معبرة عنها ، لم تقصر فى الدلالة على شىء منها ، ولم تستعن بغيرها من اللغات فى أضواء هذه الحضارة فيقول :

لا تجئها بالمتاع المقتنى سرقا من كل قوم ونهابا
سل بها أندلسا هل قصرت دون مضمار العلا حين أهابا
غرست فى كل ترب أعجم فزكت أصلا كما طابت نصابا
ومشت مشيتها لم ترتكب غير رجليها ولم تحجل غرابا (١)

وقال يشيد بفضل اللغة العربية ، وتراثها ، ويحث الشبيبة على الحفاظ عليها :

ظلت تعين المصلحين الضاد وظل للعلم بها اعتضاد
هذا لسان القوم يا بنيا على أساس ثابت مبنيا
أودية تنفى الخيال فسحة جرت عليها للجمال مسحة
تنزلها أوانس المعانى بين معين اللفظ والخيال
لسانك الأول فى الكتاب ولغة الصبوة والعتاب
فاجر على محاسن اللسان تجل فى مواطن الاحسان (٢)

وقال ينصح الترك بتعلم اللغة العربية لتكون وسيلة للقربى بين العرب والترك :

---

(١) الشوقيات : جـ ٢ ، ص ١٩ .
(٢) أحمد شوقى : ديوان دول العرب وعظماء الاسلام ، ص ١٠ .

شمل اللغات لدى الأقوام ملتئم   فانها أوثق الأسباب والذمم(١)
فقربوا بيننـــا فيهـــا وبينكم   فانها أوثق الأسباب والذمم(٣)

★★★

ويعد « الرافعى » فى طليعة حماية العربية الفصحى الذين نافحوا عنها بكل ما أوتوا من بيان ، ومن ذلك قصيدته (اللغة العربية والشرق) (٢) وفيها يعرض « الرافعى » لتهاون أبناء اللغة العربية فى حمايتها ، وينكر عليهم انصرافهم عنها ، وايثارهم لغيرها من اللغة الأجنبية ، على حين أن لغتهم ينبوع ثر ، ولها تاريخ عريق فى الثقافة والأدب ، وهى كالذهب لا يعتريه صدأ (٣) فيقول :

أم يكيد لها من نسلها العقب   ولا نقيصـــة الا ما جنى النسب
كانت لهم سببا فى كل مكرمة   وهم لنكبتها من دهرها سبب

ثم يلتفت الى طلاب الثقافة الغربية على حساب اللغة العربية وآدابها فيقول :

أنترك الغـــرب يلهينـــا بزخرفه   ومشرق الشمس يبكينا وينتحب
وعنـــدنا نهر عـــذب لشاربه   فكيف نتركه فى البحر ينسرب(٤)
وأيما لغة تنسي امرءا لغـــة   فانهـــا لعنـــة من فين تنسكب
فهل نضيع ما أبقى الزمان لنا   وننفض الكف لا مجد ولا حسب
انا اذا سـبة فى الشرق فاضحة   والشرق منا وان كنا به ، خرب
هيهات ينفعنا هذا الصياح فما   يجدى الجبان اذا روعته الصخب

ثم يفخر باللغة العربية وبصفاء معدنها فيقول :

اذا اللغات ازدهرت يوما فقد ضمنت   للعرب أى فخار بينها الكتب
وفى المعـــادن ما تمضى برونقه   يد الصدا غير أن لا يصدأ الذهب

---

(١) الشوقيات : جـ ١ ، ص ٢٨١ .
(٢) ديوان الرافعى : جـ ٢ ، ص ١٤ .
(٣) د. أحمد الحوفى : القومية العربية فى الشعر الحديث ، ص ٣٨ .
(٤) لعله يعنى (بالانسراب فى البحر) طغيان اللغة الأجنبية أو طغيان العامة على الفصحى .

ويأسف الشاعر « أحمد الزين » لضياع اللغة العربية بين أهلها فيقول :

أولى فأولى بدمع مسبل لغة أمست بحظ من الأيام منكود
قد أقفر الربع منها بعد ما نعمت في ناضر سابغ الافياء مسدود
وظل مشرعها يشفي الصدا حقبا فما له اليوم أمسى غير مورود (١)

ويعرض « النشار » لهذه القضية فينحسر على ما آلت اليه اللغة العربية لغة الكتاب العزيز من ضعف وخذلان بسبب تهاون أبنائها فى الحفاظ عليها فيقول :

أبكى وحق الشرق أن يبكى معى انا جزيناها العقوق جهارا
نكلت بنيها الأولين ولم تجد منا على آثارهم أنصارا
وكأنما هى فى البلاد غريبة تبكى الطلول وتندب الآثارا

ثم يشيد باللغة العربية التى نزل بها القرآن الكريم بلسانها فسمت مكانتها وعلا قدرها ، ولكنا أضعناها بتقصيرنا فى حمايتها :

أم ولا كالأمهات كريمة ولدت معدا فى العلا ونزارا
وأتى الكتاب على جلالة قدره بلسانها فسمت بذاك فخارا
فاذا سمعت ثم بلاغة واذا رأيت رأيت ثم وقارا
هذه الأم التى ضاعت بنا ظلما فكنا بعدها فجارا
أو ليس من نكد الزمان وبؤسه أن لا يقيل لها البنون عثارا

ثم يقول على لسان اللغة معاتبا أبناءها :

أخلفتموا ظنى وخنتم ذمتى وخذلتمو الأعوان والأنصارا
أبنى هل شرط الوفاء لديكمو أن تنبذوا ألفاظى استكبارا (٢)

---

(١) أحمد الزين : **ديوان القطوف الدانية** ، ص ٢٠ .

(٢) محمد حمدى النشار : **ديوان ثمرات الأفكار** ، جـ ٣ ، ص ٧١ .

ويطالب « المصرى » أولى الأمـر فى مصر بالحفاظ على لغة القرآن والاعتصام بالدين فيقول من قصيدة له :

وحرروا لغـة القرآن واعتصموا بالدين فى كل أمر يوجب الفزعا(١)

★★★

بهذه المعانى دافع الشعراء المحافظون عن اللغة العربية لغة القرآن الكريم التى استطاعت فى ظل عالمية الاســلام أن تتسع لتحيط بأبعـد انطلاقات الفكر ، وأن تنهض بتبعات الحضارة الاسلامية عبر التطور الدائم الذى تعيشه الانسانية (٢) ٠

وكان جهاد المحافظين فى دعم الفصحى وحمايتها من الضياع صورة من صور الدفاع عن الحضارة الاسلامية بكل مقوماتها الدينية والتراثية واللغوية ، وكان تعزيز الحضارة الاسلامية وابرازها فى مكان الصـدارة واثبات قدرتها على العطاء المتجدد رد فعل لمحاولات التغريب أو الاتجاه نحو الغرب والاعتماد عليه فى بناء النهضة واصلاح الأوضاع السياسية والاجتماعية والفكرية فى مصر ٠

ونخلص مما تقدم الى :

١ ـ أن التحدى الحضارى بين الشرق الاسلامى والغرب المسيحى فى هذه الفترة قد دفع المفكرين من أصحاب الاتجاه الاسلامى ومن ورائهم شعراء الجيل المحافظ الى ابراز قسمات الحضارة الاسلامية من خـلال المفاهيم والمبادىء التى جاء بها الاســلام فى كل شئون الحيـاة الدينية والدنيوية تأكيدا لقدرة الاسلام على تحدى الحضـارة الوافدة بحضـارة أزكى وأعلى ٠

٢ ـ ان التحدى الحضارى لا يزال قائما ٠ ومن هنا فان الحاجة الى عرض الاسلام والتعريف بخصائصه ومزاياه بصورة تليق بمكانته وتحبب الى الناس منهجه أشد من أى وقت مضى ٠

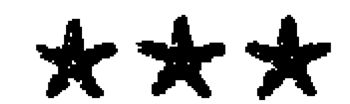
---

(١) ديوان : عبد الحليم المصرى : جـ ٣ ، ص ٢٤ ٠

(٢) راجع : أحمد السايح : مستقبل الحضارة الاسلامية ، ص ١٧ ٠

وهذا واجب اسلامى عام ينبغى أن ينشط له المسلمون كافة ، ودعاة الاسلام من علمائه ومفكريه خاصة ·

٣ ـ أن « أحمد شوقى » كان أطول الشعراء نفسا ، وأغزرهم معنى ، وأقدرهم على التعبير عن مبادىء الاسـلام والاشادة بحضارته والتعريف بفضائله ومزاياه ·



البَابُ الرّابع

الدراسَة الفنّية

ويشتمل على فصلين

الفصل الأول :

الشكل الفنى للقصيدة الاسلامية فى الشعر المحافظ فى مصر

الفصل الثانى :

المضمون الاسلامى فى الشعر المحافظ فى مصر

الفصل الأول

الشكل الفني للقصيدة الاسلامية
في الشعر المحافظ

تمهيد حول علاقة الشكل بالمضمون :

لا سبيل الى الفصل بين الشكل والمضمون في العمل الأدبي ، ولا يمكن أن يقوم أحدهما بغير الآخر لانهما كل واحد « وليست الصورة التعبيرية الا ثمرة للانفعال بالتجربة الشعورية ، وليست القيمة الشعورية الا ما استطاعت الألفاظ أن تصوره وأن تنقله الى مشاعر الآخرين (١) .

ومعنى ذلك أن مادة النموذج الأدبي وصورته لا تفترقان فهما كل واحد ، وهو كل ما يتألف من خصائص جمالية مختلفة قد يردها النظر السريع الى الخارج أو الشكل ولكننا اذا أمعنا النظر وجدناها ترد الى الداخل والمضمون فهي تنطوي فيه أو قل تنمو فيه كما تنمو الشجرة من ساق ضئيلة وتتشعب الى فروع وأغصان كثيرة (٢) .

واذا كان النقاد يفصلون اللفظ أو الشكل ، عن المعنى أو المضمون في دراساتهم فان ذلك لا يعني أنهما منفصلان في وجودهما الخارجي بمعنى أن لكل واحد منهما وجودا مستقلا عن الآخر ، ولكنهم اضطروا الى ذلك الفصل لغايات تعليمية حتى يفرد اللفظ بنعوته الذوقية التي يفضل بها غيره من الألفاظ التي قد تستعمل في معناه ويفرد كذلك المعنى الذي يصوره الأديب بصفاته التي يمتاز بها من غيره من معاني الآخرين (٣) .

(١) سيد قطب : النقد الأدبي . أصوله ومناهجه ، ص ١٩ .
(٢) د. شوقي ضيف : في النقد الأدبي ، ص ١٦٤ .
(٣) د. بدوي طبانه : قضايا النقد الأبي ، ص ١٧٣ .

وتأسيسا على ذلك : فاننا بين يدى هذه الدراسة الفنية ينبغى أن نتفق على أمرين :

أولهما : ان أى مضمون فنى لا يمكن أن يقوم منفصلا عن شكله الفنى (١) .

ثانيهما : أن الفصل بين الشكل والمضمون هنا انما يتم فى اطار الدراسة الفنية أو النقدية لما مر من نماذج الشعر الاسلامى المحافظ ، فهو فصل « مؤقت » يستهدف التفسير للقيم الفنية فى هذا الشعر ، ونحن مضطرون الى هذا الفصل « المؤقت » لهذا السبب .

ومن ثم فسوف أتناول بالدراسة فى هذا الفصل الشكل الفنى للقصيدة الاسلامية فى الشعر المحافظ من حيث :

١ ــ الصياغة .

٢ ــ بناء القصيدة .



أولا ــ الصياغة :

(أ) الألفاظ :

حينما نرجع النظر فيما بين أيدينا من نصوص الشعر الاسلامى المحافظ نرى أن هذا الشعر المحافظ قد تميز بجزالة الألفاظ ورصانتها وهذا أمر طبيعى يتفق مع رسالة الشعر المحافظ التى استهدفت بعث الشعر العربى واحياءه والمحافظة على مادته الأدبية ، وصورته الفنية التى كان عليها فى عصور الازدهار والقوة .

وكان هذا الاتجاه الذى راده البارودى تعبيرا أدبيا عن روح الفترة النضالية التى عبأت فيها الأمة الاسلامية كل مقوماتها الحضارية فى مواجهة الحضارة الأوروبية الغازية بتقاليدها الاجتماعية والثقافية التى حاولت أن تزحزح تقاليدنا الأصيلة عن مكانها فى نفوس أبنائنا الذين اعتزوا بتراثهم فحافظوا عليه ، واسترابوا فى كل دخيل حديث حتى « أصبح كل حديث متخلف عنوانا للترف الزائف والعقيدة المدخولة والعربية المشوبة وأصبح

---

(١) د. محمد العزب : ظواهر التمرد الفنى فى الشعر المعاصر ، ص ٧٠ .

كل قديم قريب من الاسلام فى صدره الأول عنوانا للصحة والمتانة وعصمة من الضعف والركاكة ٠٠ حتى رأينا من غلاة هذا المذهب في الجيل الماضي يعني جيل المحافظين ـ من كان يسخر بالمعرى وأبناء عصره ويرجع باللغة النقية والفصاحة الشعرية الى ما قبل ذلك بعصور » (١) ٠

وبذلك صار الاتجاه المحافظ علامة على الفصاحة اللغوية والبلاغة الاسلوبية والصياغة الفنية الأصيلة التى عرفها القدماء باسم « عمود الشعر » وتلك هى السمة الفنية العامة للشعر المحافظ فى كل أغراضه وفنونه ، صورته هى صورة الشعر القديم ، ومادة بنائه هى مادة بناء الشعر القديم وأسلوبه هو أسلوب الشعر القديم فى كل عناصره ومقوماته الفنية ٠

بيد أن ذلك لم يكن ليمنع الشعراء من تلوين إسلوبهم وتشكيل مادتهم الأدبية وفق ما تمليه طبيعة التجربة والموضوع الشعرى من لوازم الأداء الفنى المتميز فى ألفاظه وعباراته وصوره وموسيقاه والشعر الاسلامى مثل صادق لهذا التميز الفنى ويتضح ذلك من ملاحظة ما تقدم من نماذج الشعر الاسلامى وما سوف أقدمه منها وقد لاحظت فيما يتصل بالألفاظ :

١ ـ كثرة الألفاظ الاسلامية أو المتصلة بالاسلام ومنها :

(أ) ألفاظ تتصل بأركان الاسلام كالحج مثلا بما فيه من احرام وطواف وسعى بين الصفا والمروة ورمى للجمار ووقوف بعرفة الى غير ذلك من مناسك الحج المعروفة كقول « حافظ ابراهيم » من قصيدة له فى تهنئة الخديوى عباس بقدومه من الحج سنة ١٩٠٩ مطلعها :

متى نلتها يا لابس المجد معلما ... أدينـا ودنيـا ؟ زادك الله أنعمـا

ثم يقول بعد أبيات :

رميت فسددت الجمار فلم تكن ... جمارا على ابليس بل كن اسهما
وبين الصفا والمروة ازددت عزة ... بسعيك يا عبـاس لله مسلما

★★★

---

(١) ديوان حافظ ابراهيم : جـ ١ ، ص ٥٢ ٠

وطفتَ وكم طافت بسدتك المنى ... وكم أمسك الراجى بها وتحرما
ولما استلمت الركن هاجت شجونه ... فلو أنه استطاع الكلام تكلما (١)

بيد أن حافظا ـ هنـــا ـ لم يرتفع الى مســتوى الشعيرة الدينية بما تلقيه فى نفس المؤمن من معانى الخشوع والتقوى والتجرد من أهواء النفس بل هبط الى درك المديح الشخصى • ووازن بين ما يفعله المسلمون تعظيما لشعائر الله وما يفعله المتزلفون للخديو طمعا فى نواله •

(ب) ألفاظ ترتبط بعالم الغيب والملأ الأعلى : كالروح والملائكة ، والعرش وسدرة المنتهى والوحى واللوح والقلم كقول شوقى :

الروح والمـــلأ الملائك حـوله ... للدين والدنيـــا بـــه بشراء
والعرش يزهو والحظيرة تزدهى ... والمنتهى والســـدرة العصـــماء
والوحى يقطر سلسلا من سلسل ... واللوح والقلم البديع رواء (٢)

★★★

(ج) ألفاظ تتصل بأوصاف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى القرآن الكريم : من مثل (العائل) « اليتيم » « الأمى » كقول شوقى :

وأرسل عائلا منـــكم يتيمـــا ... دنا من ذى الجلال فكان قابا (٣)

وقوله :

يا أيهـــا الأمى حسبك رتبة ... فى العلم أن دانت بك العلماء (٤)



---

(١) ديوان حافظ ابراهيم : ج ١ ، ص ٥٢ •
(٢) ديوان شوقى : ج ١ ، ص ٥٩٧ •
(٣) المرجع السابق : ص ٦٠٩ •
(٤) المرجع السابق : ص ٦٠٠ •

(د) ألفاظ ترتبط بفجر الدعوة الاسلامية : كالأصنام والشرك والضلال والجهالة — كقول شوقى يشيد بجهاد الأبطال من رجال الاسلام الذين عاصروا بداية الدعوة وشاركوا فى نصرتها :

ضربوا الضلالة ضربة ذهبت بها فعلى الجهالة والضلال عفاء (١)
نسفوا بناء الشرك فهو خرائب واستأصلوا الأصنام فهى هباء

وكأسماء الغزوات والمواقع التى شهدها الأبطال فى بداية الدعوة كغزو بدر واحد والأحزاب وحنين وغيرها كما يقول « عبد المطلب » :

وسل صهوات الخيل كم وطئوا بها نواصى حصن للضلال وخربوا
وسل عنهم بدرا ، وسل أحدا وسل عنهم عصب الأحزاب يوم تحزبوا
ويوم حنين اذ تركن هوازنا لأشلائها الطير الحواجل تنهب (٢)

(هـ) أسماء مقتبسة من التاريخ الاسلامى : كأسماء الخلفاء الراشدين ، والقواد الفاتحين وعظماء الاسلام ممن ورد ذكرهم فى « ديوان دول العرب وعظماء الاسلام » لشوقى . وفى « العمرية » « لحافظ » وفى « العلوية » « لعبد المطلب » ، وتلك سمة من سمات الشعر الاسلامى وهى الالتفات الى المجود الاسلامية والتأثر بالتاريخ الاسلامى .

★★★

(و) ألفاظ تتصل بنظام الاسلام ومزايا الشريعة كالشورى والبيعة واليسر ، والبر ، كقول شوقى :

والدين يسر ، والخلافة بيعة والأمر شورى والحقوق قضاء(٣)
والبر عندك ذمة وفريضة لا منة ممنونة وجباء

★★★

---

(١) المرجع السابق : ص ٦٠٤ .
(٢) ديوان عبد المطلب : ص ٢٧ .
(٣) ديوان شوقى : جـ ١ ، ص ٦٠٢ .

٢ ـ أن ألفاظ الشعر الاسلامى تتبع العاطفة وتتأثر بالموضوع الشعرى فبينما نراها ثائرة نابضة ، جزلة فخمة ، رصينة متينة ، قوية الايقاع ، واضحة النبرة اذا بنا نراها سهلة سلسة ، هادئة رقيقة . فمن اللون الأول قول « محرم » فى الحرب الطرابلسية : (١)

رويدا بنى روما فللحرب فتية	تهيج الظبا أطرابهم واللهاذم
أولئك أبطال الخلافة تحتمى	بأسيافها ان داهمتها العظائم
هم المانعوها أن يقسم فيئها	وأن تستبى بيضاتها والمحارم
أنذعن للباغى ونعطيه حكمه	وفى الترك مقدام وفى العرب حازم
هما أخوا العز الذى دون شأوه	تخر الصياصى خشعا والمخارم

★★★

فها هنا نرى ألفاظا جزلة رصينة تتميز بالاستطالة وتكثر فيها الحروف القوية التى تناسب المعانى العنيفة مثل : تهيج ـ الظبا ـ اللهاذم ـ أبطال ـ داهمتها ـ العظائم ـ المانعوها ـ بيضاتها ـ مقدام ـ الصياصى ـ المخارم .

فهذه ألفاظ فخمة لها من قوة الايقاع ، وعنف الدلالة ما يناسب موقف الحرب .

★★★

ولقد يكثر هذا اللون من الألفاظ القوية ، فى قصائد الحرب ومواقف الحماسة ، والحث على النضال ، واستثارة الهمم لمقاومة الاحتلال ، وتعبئة الشعور الاسلامى للدفاع عن الاسلام والمسلمين .

★★★

ومن اللون الثانى ، ذى الرقة والسلاسة قول « شوقى » فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم :

نظام الدين والدنيا أتيح له يتممه

---

(١) لأحمد محرم ثمانى قصائد فى مناسبات مختلفة من هذه الحرب . راجع :
أ ـ ديوان محرم جـ ٣ : ١٨ ـ ٣٩ .
ب ـ د. محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر جـ ١ ص ٣٦ .

تطلع في بنائهما على التوحيد يدعمه
يشرع هام فيه الناس هاشمه وأعجمه
كضوء الصبح بينه وكالبنيان محكمه
بيان جل موحيه وعلم عز ملهمه (١)

ومنه قول « حافظ ابراهيم » فى رثاء الامام « محمد عبده » :

سلام على الاسلام بعد محمد سلام على أيامه النضرات
على الدين والدنيا على العلم والحجا على البر والتقوى ، على الحسنات

ألفاظ سهلة ـ سلسة ، عذبة ، رقيقة ، لها من الدلالة ما يشيع جوا روحيا خاشعا يناسب جلال الموقف ومكانة الفقيد · مثل : سلام ـ الاسلام ـ الدين ـ العلم ـ البر ـ التقوى ـ الحسنات ···· الخ ·

وكثيرا ما نجد هذا اللون من الألفاظ الرقيقة والكلمات العذبة ذوات الايقاع الهادىء ، فى قصائد الرثاء لعظماء الاسلام وفى مواقف الضراعة والتوسل والشكوى وغيرها من موضوعات الشعر التى تنبع من ينبوع الأنين ·

★★★

٣ ـ أن بعض الألفاظ قد جاء غير دقيق فى موضعه ، ومن أمثلة ذلك :

كلمة (حابى) بمعنى : خص · فى قول شوقى :

يريد الخالق الرزق اشتراكا وان يك خص أقواما وحابى (٢)

فهى كلمة غير لائقة فضلا عن عدم الحاجة اليها لوجود كلمة « خص » قبلها ·

★★★

وكلمة (نابلة) بمعنى : سجية شريفة · فى قول « حافظ ابراهيم » فى « العمرية » :

---

(١) ديوان شوقى : جـ ١ ، ص ٦١١ ، توثيق د· الحوفى :
(٢) الشوقيات : جـ ٢ ، ص ٩٠ ·

فى كل واحـــدة منهن نابلة   من الطبائع تنذو نفس واعيها (١)

فهى لفظة غير شعرية فضلا عن أنها تحتمل معنى ضاربة النبل ، وهو معنى بعيد عن سياق البيت (٢) ٠

وكلمة (حائط) فى قول « المعرى » فى « البكرية » :

وما الحق الا حائط بين قـوة   وضعف وليس العدل الا تقاضيا

فهى كلمة غير دقيقة فى تصوير المعنى المقصود (٣) ٠

وكلمة (حظيرة) فى قول شوقى :

والعرش يزهو والحظيرة تزدهى   والمنتهى والسـدرة العصماء (٤)

لأن الحظيرة ٠ جرين التمر ، والمحيط بالشىء خشبا أو نصبا ٠ ومكان الغنم وان جاء فى معانيها المعجمية ٠ (حظيرة القدس٠هى الجنة) (٥) الا أن عـدم اضافتها فى البيت يسرع بالذهن الى قضـاها الشـائع بين النـاس (٦) ٠

وكلمة « الفقراء » فى قول شوقى :

فلو أن انســانا تخير ملـة   ما اختـار الا دينـك الفقراء (٧)

يريد أن يقول : ان الفقراء يجدون لأنفسهم فى عدم الاسلام ونظامه الشامل مكانا يحفظ لهم كرامتهم وحقوقهم جنبا الى جنب مع الأغنياء حيث يتساوى الكل فى حق الحياة ٠ وهذا العدل الاجتماعى من مزايا الاسلام ولا شك فى ذلك ٠

ولكن كلمة الفقراء هنا ، توحى الى الذهن بمعان غير محببة ، منها تحيز الاسلام للفقراء على حساب الأغنياء ، بما يعانيه ذلك من تشجيع على الفقر والبطالة ٠

---

(١) ديوان حافظ : ج ١ ، ص ٩٧ ٠

(٢) راجع : سعد الدين الجيزاوى واصداء الدين ، ص ٣٦٨ ٠

(٣) المرجع السابق : نفس الصفحة ٠

(٤) ديوان شوقى : ج ١ ، ص ٥٩٧ ٠

(٥) د٠ أحمد الحوفى : الأسلام فى شعر شوقى ، ص ٥٥٦ ٠

(٦) على النجدى ناصف : الدين والأخلاق فى شعر شوقى ، ص ١١٤ ٠

(٧) ديوان شوقى : ج ١ ، ص ٦٠٣ ٠

وكلمة (الكل) في قول شوقي :

أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى فالكل في حق الحياة سواء (١)

فهي من أشبه الكلمات بكلام العامة وأجدرها ألا تجاوز حدود ما يدور بينهم من أحاديث ومساجلات ، ومن اللغويين من ينكر اقترانها بالألف واللام لأنها لم تسمع مقرونة بهما فيما أثر عن العرب من نصوص (٢) .

★★★

بيد أن هذه المآخذ الفنية لا تشكل ظاهرة عامة ولكنها من الندرة بحيث لا تنال شيئا من بلاغة الجيل المحافظ وقدرته على اختيار اللفظ المعبر .

★★★

(ب) العبارات :

والحديث عن « العبارة » في العمل الأدبي يتصل بالحديث عن « اللفظ المعبر » فالعبارة مجموعة ألفاظ منسقة على نحو معين لأداء معنى ذهني أو شعوري ، والألفاظ لا تستطيع أن تعطي دلالتها كاملة الا في هذا النسق وتستمد العبارة دلالتها ـ في العمل الأدبي ـ من مفردات الدلالة اللغوية للألفاظ ومن الدلالة المعنوية الناشئة من اجتماع الألفاظ وترتيبها في نسق معين ثم من الايقاع الموسيقي الناشيء من مجموعة ايقاعات الألفاظ متناغما بعضها مع بعض ثم من الصور والظلال التي تشعها الألفاظ متناسقة في العبارة (٣) ومعنى ذلك أننا حين نقوم العبارة في الشعر الاسلامي المحافظ ينبغي أن نقومها بمعيارين :

أولهما : معيار الدلالة اللغوية للألفاظ . من حيث ما تدل عليه في القاموس .

ثانيهما : معيار النسق التعبيري للألفاظ . من حيث ما تدل عليه مجتمعة من معان ذهنية وشعورية .

---

(١) **ديوان شوقي :** جـ ١ ، ص ٦٠٣ .

(٢) علي النجدي ناصف : **المرجع السابق** ، ص ١٣٢ .

(٣) سيد قطب : **النقد الأدبي . اصوله ومناهجه** ، ص ٤١ .

فأما من حيث الدلالة اللغوية للألفاظ فان أقل ما يقال في جيل شارك في بعث الشعر العربي واحياء قيمه الفنية الأصيلة أنه استوعب مفردات اللغة بدلالتها القاموسية ، وايقاعها الموسيقى ، وظلها الذى تلقيه فى الخيال ·

واذ كان هذا الجيل يرى فى بعث التراث احياء لمجد الاسلام ، ودعما لفكرة الجامعة الاسلامية ، فقد أقبل على التراث اللغوى يستوعبه ويحيط بمفرداته ويتمرس بأساليبه · حتى تحقق له من القدرة البيانية ما لم يتحقق لغيره من الأجيال منذ العصر العباسى حتى الآن ·

★★★

واذا كان المحافظون قد تبعوا البارودى فى منهجه من حيث المحافظة على الاطار التقليدى للقصيدة العربية مشاركين بذلك فى حركة البعث الأدبى التى قادها البارودى فانهم قد زادوا عليه أو تميزوا عنه بتيسير ألفاظ اللغة والاقتراب بها من ذوق الجماهير التى تقرأ شعرهم وتتأثر به لأنه يحكى آمالهم وأمانيهم ويعالج قضاياهم ومشكلاتهم السياسية والاجتماعية والدينية ·

ومعنى ذلك أن المحافظين لم يقفوا عند حدود البعث والاحياء أو عند مرحلة البارودى كما ذهب الى ذلك الدكتور « أحمد هيكل » (١) بل تجاوزها ــ فيما يبدو لى ــ الى مرحلة الطلاقة البيانية التى تتميز بوضوح العبارة وصفائها ودقة الألفاظ وايحائها ، وقد جاء شعرهم محققا لكلتا المرحلتين : مرحلة الاحياء والبعث ومرحلة التيسير أو الطلاقة البيانية ·

وأما من حيث النسق التعبيرى الذى تنشأ عنه الصور والظلال والمعانى الذهنية والشعور فحسبنا أن نسوق مثلا يوضح الى أى مدى كانت حساسية المحافظين الأسلوبية · والى أى مدى كانت **قدرتهم التعبيرية عن تجاربهم الشعورية الاسلامية** ·

يقول شوقى فى قصيدته (نهج البردة) يستشفع بالنبى ــ صلى الله عليه وسلم :

ان جل ذنبى عن الغفران لى أمل ۝ فى الله يجعلنى فى خير معتصم

---

(١) د· أحمد هيكل : **تطور الأدب الحديث فى مصر** ، ص ١٤٢ ·

ألقى رجائى اذا عز المجير على ... مفـرج الكرب فى الدارين والغمم
اذا خفضت جناح الذل أسأله ... عز الشفاعة لم أسأل سوى أمم
وان تقدم ذو تقوى بصـالحة ... قدمت بين يديه عبرة النـدم
لزمت باب أمـير الأنبياء ومن ... يمسك بمفتاح باب الله يغتنم (١)

★★★

فالموقف الشعورى الذى تفجرت عنـه هـذه الأبيـات هو موقف الضراعة والانابة والأمـل فى مغفرة الله وشفاعة النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهذا الموقف الشعورى يناسبه اللفظ الخاشع ، والتعبير اللين الرقيق ، والجملة الخبرية التى توحى بالاستعطاف • وتشعر بالانكسار والخضوع وهو ما نلاحظه فى قول الشاعر : لى أمل فى الله ــ ألقى رجائى •• على مفرج الكرب ــ خفضت جناح الذل ــ أسأله عز الشفاعة ــ قدمت •• عبرة الندم ــ لزمت باب أمير الأنبياء ــ حيث جاءت العبارة رقيقة تنساب فى سـهولة ويسر من خـلال ألفـاظ عذبة رقيقة لا التواء فيهـا ولا غموض ولا غرابة ولا ابتذال ــ تتآلف فى تواد ويأخذ بعضها بحجز بعض فى اتساق محكم وتركيب متين •

★★★

وهاك لونا آخر من ألوان الشعر الاسلامى المحافظ قد اتسق فيه التعبير مع الشعور فجاء محققا للصـــدق الفنى الذى تميز به الشـعر الاســـلامى •

يقول « عبد المطلب » فى « الحرب بين الترك وايطاليا بطرابلس الغرب » (٢) :

بنى أمنا أين الخميس المدرب ... وأين الغوالى والحساب المذرب ؟
اذا اهتز فى نصر الحنيف تساقطت ... نفوس العدا من حده تتحلب
وأين قلوب يشهد الصقر أنها ... غداة الوغى منه أشد وأصلب
وأين الحلوم الراجحات اذا عـرا ... سنى الرشد من ليل الحوادث غيهب

(١) ديوان شوقى : جـ ١ ، ص ٦٢١ •
(٢) ديوان عبد المطلب : ص ٢٥ •

وأين الوجوه الصبح والدهر ساهم وبيض الظبا بالهام تلهو وتلعب

وأين العطاء الجم فى كل عسرة يمر بها عام من المحل أشهب

خليلي مالى ان تذكرت برقة بجنبى نيران الأسى تتلهب

نعم راعنى من نحو برقة صارخ يهيب بأنصار الهلال الا اركبوا

دعا صارخ الاسلام يا لبنى الهدى أغار العدا أين الحسام المشطب

★★★

والجو النفسى الذى أطلقته الأبيات هو التعاطف مع المجاهدين فى طرابلس ضد العدوان الايطالى ، واستثارة الهمم الاسلامية لمواجهة هذا العدوان .

وهذه التجربة الشعورية تقتضى نوعا من التعبير يتسم بقوة اللفظ، وجهارة الصوت وفخامة العبارة وجلجلة الايقاع ، وقد نجد الشاعر فى تخير ألفاظه ، وتنسيق عباراته بالقدر الذى يوائم عاطفته ، ويؤدى معانيه، نلحظ ذلك من خلال الاستفهام البلاغى المستنفر الهمم فى قوله : أين الخميس المدرب ـ أين العوالى والحسام المذرب ـ أين قلوب ـ أين الحلوم الراجحات ـ أين الوجوه الصبح ـ أين العطاء الجم ـ أين الحسام المشطب .

كما نلحظه فى هذا التعبير المثير للعاطفة الاسلامية فى قوله : بنى أمنا ـ أنصار الهلال ـ صارخ الاسلام ـ يا لبنى الهدى ـ أغار العدا ـ وربما كان لتنوع الأسلوب بين الخبر والانشاء فى هذه الأبيات دلالته فى الايحاء بعاطفة الشاعر الهائجة المستثارة بالعدوان الايطالى على طرابلس .

فاذا نحن أرهفنا أسماعنا الى الايقاع الصوتى للأبيات أدركنا مدى التوفيق الذى أصابه الشاعر فى الالتحام بتجربته والتعبير عنها لفظا ومعنى وايقاعا ، فالقصيدة من البحر الطويل الذى يناسب مواقف الحماسة ويوائم العاطفة الثائرة .

وبالجملة فالقصيدة فى نسقها التعبيرى نموذج لطريقة القدماء فى النظم من حيث متانة الأسر وقوة السبك ، وائتلاف أجزاء الكلام ، ومناسبة الألفاظ للمعانى وخلو العبارة مما يخل بجمالها على نحو ما بين علماء

البلاغة . وليس هـذا بغريب على « عبد المطلب » الذى كان ينسج على منوال القدماء ويستعير أساليبهم للتعبير عن مشاعره الذووية .

★★★

ومثل هذا الصدق الفنى فى نقل التجربة بعبارات معادلة لحرارة العاطفة وقوة الشعور تجـده فى قول « شوقى » فى « الحرب العثمانية اليونانية » : (١)

كأن الوغى نار ، كأن جنودنا مجوس اذا ما يمموا النار قربوا

كأن الوغى نار ، كأن الردى قرى كأن وراء النـــار حاتم بأدب

كأن الوغى نار ، كأن بنى الوغى فراش له فى ملمس النار مأرب

★★★

فها هنا نلحظ المواءمة بين الصياغة والعاطفة ـ حيث جاءت العبارة موحية بجو المعركة ملائمة لموضوع الحرب . كما يظهر ذلك فى تشبيه الوغى بالنار ، وفى تصوير المحاربين مقبلين على الحرب فى رضا وسرعة ، وتلبية لدافع العقيدة ورغبة فى المثوبة بالمجوس الذين يقبلون على نارهم المعبـودة ويقربون لها القرابين (٢) وفى هذا ايحـاء بشجاعة الجنود ، واخلاصهم للعقيدة .

وفى تسمية المقاتلين بـ « بنى الوغى » ما يدل على شجاعتهم ورباطهم الدائم فى سبيل الله .. وهـكذا تمضى العبـارة مواكبة للعاطفة ملائمة للموضوع محققة للصدق الفنى الذى يتطابق فيه الشعور مع التعبير .

وأساس البناء فى هذه العبارة هو اللفظة الجزلة المشحونة بقوة الايقاع المعبر عن العاطفة الصادقة .

ولا شك أن قدرة الشاعر على التقاط اللفظة المعبرة بدلالتها اللغوية وايقاعها الصوتى ووضعها فى جوها الملائم لطبيعتها هو من سمات التعبير الجيـــد .

---

(١) **ديوان شوقى** : جـ ١ ، ص ٢٧٥ .

(٢) د. أحمد الحوفى : **اضواء على الأدب الحديث** ، ص ١٨٦ .

ونستطيع فى ضوء ما تقدم من نماذج الصياغة الفنية للقصيدة الاسلامية أن نقول : ان العبارة فى الشعر الاسلامى المحافظ كانت الصوت الخارجى للشعور الداخلى بحيث كانت اذا قوى الشعور واشتدت العاطفة وكان الموضوع ذا صبغة حماسية كمواقف الجهاد والاشادة بالبطولة والأبطال . جاءت العبارة فخمة البناء متينة التركيب ، رصينة الألفاظ ، عالية النبرة .

فاذا رقت العاطفة وسما الشعور ، وتنبهت فى النفس أحاسيس الايمان ومعانى الخشوع والتقوى . رق الأسلوب ، ولان التعبير ، وسالت الألفاظ فى سهولة ويسر ، وعذوبة وسلاسة ، وأكثر ما يلقانا ذلك فى مواقف التوسل والضراعة أو مدائح النبى — صلى الله عليه وسلم — أو رثاء العظماء من رجال الاسلام أو تهانى الخلفاء ومدائحهم . واذ ذاك تنساب الألفاظ الى معانيها فى رفق ولين . وتنسال العبارات على اللسان انسيالا هادىء النبرات رقيق النغمات .

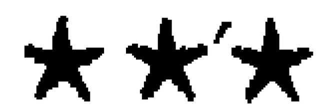
★★★

واذن .. فقد كان للشعراء المحافظين قدرة على تصريف القول على مقتضى المعانى الذهنية والشعورية التى أوحت بها التجربة الشعورية .

ولعل هذا ما أشار اليه البارودى فى تقريظه لديوان « حافظ ابراهيم » بقوله : (١)

لبق بتصريف الكلام يسوقه   ما شاء بين سهولة واعزاز

بيد أن قدرة المحافظين على تصريف الكلام بين السهولة والجزالة والرقة والمتانة لا تعنى أن شعرهم كله كان نسقا من الصياغة العالية والتعبير الجيد لم يترد فى مهاوى التعبير المباشر ولم يهبط الى درك المآخذ الفنية والأخطاء اللغوية . فالواقع أننا قد لاحظنا شيئا من ذلك ولكنها — مع ذلك — ملاحظات تبقى فى حجمها الطبعى لا تغير شيئا من الخصائص العامة للشعر المحافظ .



---

(١) ديوان البارودى : جـ ٢ ، ص ١٦١ .

ومن أمثلة التعبير المباشر الذى ـ لا شك ـ يفقد الشعر كثيرا من خصائصه الفنية قول « حافظ ابراهيم » من قصيدة له في ملجأ لرعاية الأطفال سنة ١٩١١ يصف أحد المنفقين في سبيل الخير وقد تعرض لمحنة ولكنه نجا بسبب المعروف وفضل الزكاة :

وهو من معشر أغاثوا ذوى البؤ   س وقاموا فى الله خير القيام
وأقاموا للبر دارا فكانت   خير ورد يؤمه كل ظامى
قد نجا المنعم الجواد من المو   ت بفضل الزكاة والانعام
ورأينا شخص المروءة والبـ   ـر تبدى في شخص ذاك الهمام
وعلمنا أن الزكاة سبيل الله قبل الصلاة قبل الصيام
خصها الله فى الكتاب بذكر   فهى ركن الأركان فى الاسلام
بدأت مبدأ اليقين وظلت   لحياة الشعوب خير قوام
لو وفى بالزكاة من جمع الدنيا وأهوى على اقتناء الحطام
ما شكا الجوع معدم أو تصدى   لركوب الشرور والآثام (١)

أو قوله : فى الحث على تعضيد مشروع الجامعة وبيان أثرها فى حياتنا : (٢)

هبوا الأجير أو الحراث قد بلغا   حد القراءة فى صحف وفى كتب
من المداوى اذا ما علة عرضت   من المدافع عن عرض وعن نشب
ومن يروض مياه النيل ان جمعت   وأنذرت مصر بالويلات والحرب
ومن يوكل بالقسطاس بينكم   حتى يرى الحق ذا حول وذا غلب
ومن يطل على الأفلاك يرصدها   بين المناطق عن بعد وعن كثب
يبيت ينبئنا عما تنم به   سرائر الغيب عن شفافة الحجب

فها هنا يتجه التعبير الى المباشر ويكاد يقترب من النثر فى تقرير الحقائق · بيد أننا لا نكاد نجد ذلك فى غير قصائد المناسبات والمواقف

(١) ديوان حافظ ابراهيم : جـ ١ ، ص ٢٤٦ ·
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦٥ ·

المحفلية التى جرت الشعراء الى عدة ظواهر : « من أهمها عدم تعبير الشعر فى كثير من الأحيان عن تجارب صادقة ، ومن أهمها أيضا تشكل أسلوب الشعر بما يلائم المحافل ومجامع الجماهير ومواقف خطابهم · ومن هنا كثر عند الشعراء المحافظين التعبير المباشر الذى يجعل الشعر أحيانا قريبا من النثر فيفسد عليه كثيرا من قيمه الفنية لأن ما أمكن أن يقال نثرا فمن الأفضل أن يقال شعرا » (١) ·

وقد تلقانا مثل هذه الظواهر الأسلوبية التى تسم التعبير بسمة المباشرة التقريرية فى موضوعات الشعر الاجتماعى الذى يهتم برصد الظواهر الاجتماعية ويعنى باصلاحها عن طريق النقد أو التوجيه واسداء النصيحة ·

كما قد يلقانا هذا اللون من التعبير المباشر فى بعض القصائد السياسية التى تخلو من حرارة العاطفة وتتجه نحو التقرير بعيدا عن الايحاء والتأثير ·

★★★

والى جانب هذه المآخذ الفنية · فهناك بعض أخطاء لغوية يمكن أن أشير الى بعض منها فيما يلى :

١ ــ حذف الفاء من جواب الشرط وهو جملة اسمية فى قول « شوقى » :

ان جل ذنبى عن الغفران لى أمل　　فى الله يجعلنى فى خير معتصم

٢ ــ زيادة هاء السكت بعد كلمة (ويلتا) فى حالة الوصل والمشهور أنها لا تزاد الا فى الوقف (٢) وفى قول شوقى : (٣)

يا ويلتاه لنفسى راعها ودهى　　مسودة الصحف فى مبيضة اللمم

٣ ــ استعمال كلمة (المضعوف) بمعنى الضعيف فى قول «حافظ» فى « العمرية » :

كف خفت مضعوفا دعاك به　　وكم أخفت قويا ينثنى تيهـا

---

(١) د· أحمد هيكل : **تطور الأدب الحديث فى مصر** ، ص ١٤٤ ·

(٢) راجع : أ ــ د· أحمد الحوفى : **الاسلام فى شعر شوقى** ، ص ٢٨٦ ·

ب ــ على النجدى ناصف : **الدين والأخلاق فى شعر شوقى** ، ص ١٦٠ ·

(٣) **الشوقيات** : جـ ١ ، ص ٢٤٣ ·

والقياس : (مضعف) كقولهم : أسعده الله فهو مسعود • والقياس (مسعد) بفتح العين (١) •

٤ ـ استعمال كلمة (مكإيد) مهموزة في قول الكاشف من قصيدة له يمدح بها السلطان عبد الحميد :

وأرضيتنا عن ذلك الدهر اننا غفرنا له الذنب الذى ليس يغفر

وأنسيتنا ذكرى مكائده التى تصرمن العيش الذى يتمسور

فقد همز عين الجمع هنا كما في صحائف ورسائل ، والصرفيون لا يجيزون ذلك لأن الياء في (مكايد) أصلية وفي صحائف ورسائل حرف زائد (٢) •

★★★

على أني أعود فأؤكد أن هذه الأخطاء اللغوية نادرة لا تمثل ظاهرة جديرة بالدراسة فضلا عن امكان توجيهها أو التماس المبررات الفنية لها •

★★★

ومهما يكن من أمر فثمة ملاحظات عامة ينبغي أن أشير اليها في اطار هذه الدراسة الأسلوبية للشعر الاسلامى المحافظ :

أولها : أن العبارة في الشعر الاسلامى المحافظ قد تأثرت بالثقافة الاسلامية وبخاصة القرآن الكريم باعتباره المصدر الأول للثقافة الاسلامية ، وللتشريع الاسلامى • وقد ظهر أثر ذلك في اقتباس الشعراء لألفاظ القرآن الكريم . ولا غرابة في ذلك لان الروح الدينى هو عماد الأفكار التى تضمنها هذا الشعر فلابد أن يعبر عنها بألفاظ من الدين نفسه ولابد أن يكون كتاب الله هو النبع الأول للشعراء يستمدون منه ألفاظه ويتأثرون بعباراته ويقتدون بأسوبه الرصين (٣) •

---

(١) **ديوان حافظ ابراهيم** : جـ ١ ، ص ٨٢ •

(٢) راجع : محمود غنيم : أحمد الكاشف (بحث • ضمن كتاب ـ **خمسة من شعراء الوطنية**) • ص ١٨١ •

(٣) سالم الحمدانى : **التيار الدينى في الشعر العراقى الحديث** ، ص ٤٩٩ • رسالة ـ غير منشورة ـ بكلية الآداب ـ جامعة عين شمس •

ومن ذلك قول « عبد المطلب » في « حرب طرابلس » :

فنحن المؤمنـــون وكان حقـــا على الرحمن نصـــر المؤمنينا (١)

أو قوله في « الحرب بين الترك وايطاليا » (٢) :

عموا اذ دعاهم واســتحبوا العمى على الهدى فترددوا في الضـــلال وكبكبوا ومنه قول «حافظ ابراهيم» في «تحية الأسطول العثماني» (٣) :

(قتـل الانســـان ما أكفره) طاول الخـالق في الكون وسامى

أو قوله في رثاء مصطفى كامل (٤) :

نعـم الجزاء ونعـم ما بلغتـه في منزليك ونعـم عقبى الدار

ومنه قول « الرافعي » من قصيدة له « في الشقاء » (٥) :

وكـــم زلزلت دورهـــم (فخـــر عليهـــم السقف)

ومنه قول « الكاشف » ينعى على أهل مراكش جهلهم وعدم صبرهم على السلطان عبد الحفيظ . :

أبعد مخلوعكم عبد العزيز نرى عبد الحفيظ على كرسيه قلقـــا

ان عبتموه فقد عبتم أخــــاه وان يسرق فان أخاه قبله سرقا(٦)

الى غير ذلك من مواضع الاقتباس التي ان دلت على شيء فانما تدل على سيطرة النزعة الدينية على شـــعراء هذا الجيل وعلى تأثرهم بالثقافة الاسلامية ، وارتباطهم بالعبارة القرآنية .

★★★

(١) ديوان عبد المطلب : ص ٢٩٢ .
(٢) المرجع السابق : ص ٢٦ .
(٣) ديوان حافظ ابراهيم : جـ ٢ ، ص ٦٣ .
(٤) المرجع السابق ، ص ١٥٦ .
(٥) ديوان الرافعي : جـ ١ ، ص ١٤٠ .
(٦) ديوان الكاشف : جـ ٣ ، ص ١٥٦ .

ثانيها : أن المحافظة على طريقة القدماء فى صياغة الشعر والارتباط بتقاليدهم الفنية ومادتهم الأدبية قد أدت ــ فى بعض الأحيان ــ الى تشابه الأساليب والعبارات بين الشعراء المحافظين بسبب الاسراف فى تقليد القدماء من ناحية ثم بسبب الأصول الفنية المشتركة بين هؤلاء القدماء من ناحية أخرى ٠

وقد لاحظ «طه حسين» هذا التشابه بين أسلوب الشعراء المحافظين فأنكر عليهم ذلك ونعى عليهم عدم التمايز بألفاظهم وأساليبهم وآرائهم وشخصياتهم وأنهم لم يستقلوا عن القدماء من فحول الشعراء (١) ٠

ثالثها : أن الشعراء المحافظين مع تمسكهم بمذهب القدماء فى صياغة الشعر قد سلكوا فى تقليدهم للقدماء مسالك شتى : فمنهم من امتد بصره الى شعراء البادية واصطنع أسلوبهم فى التعبير ، ومنهم من أغرم بشاعر أو أكثر من شعراء العصر العباسى ٠ فعبد المطلب مثلا كان يبغى القدوة بين الشعراء الجاهليين والمخضرمين ومن أخذ بأسلوبهم فى الجد والجزالة (٢) وكان متأثرا أشد التأثر بشعراء البادية وكان متميزا بين معاصريه بهذه الخاصية (٣) على حين كان حافظ وشوقى ينسجان على طريقة العباسيين وبتأثراتهم فى النظم والأسلوب ٠ فالتقليد للقدماء هو القاسم المشترك بين الشعراء المحافظين ولكنهم فى اطار هذا التقليد القديم تتعدد منازعهم فى كثير من الأحيان ٠

رابعها : أن الشعراء المحافظين قد يسروا أساليب اللغة واقتربوا بشعرهم من المستوى الثقافى العام لدى جماهير الشعب فى مصر لأنهم كانوا يخاطبون عواطف الشعب الوطنية والقومية والدينية ويعبرون عن آماله وأمانيه ومن ثم عبروا عنه باللغة التى لا تمتنع ولا تتأبى عليه وبالأسلوب الذى لا ينأى عن ادراكه ، ولا يبتعد عن ذوقه ٠ ولم يكن الشعراء على درجة واحدة فى الاقتراب بشعرهم من المستوى الثقافى للشعب فى لغته القريبة وأسلوبه السهل ، ومعانيه الواضحة ، فمنهم من اقترب بشعره من مستوى ثقافة الشعب اقترابا أدناه منه على نمو ما كان من « حافظ ابراهيم » الذى جاء شعره الى لغة الشعب أقرب ، ومن أجل ذلك قلت فيه البادرة من الخيال الخصيب ، وأجدب من المعانى البعيدة ،

---

(١) راجع : د٠ طه حسين ٠ حافظ أو شوقى ، ص ١٢١ ٠

(٢) راجع : عباس العقاد : **شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى** ، ص ٤٧ ٠

(٣) سعد الدين الجيزاوى : **اصداء الدين فى الشعر المصرى الحديث** ، ص ٣٧٠ ٠

والصور الغربية ، ومنهم من نأى بشعره في لغته وأسلوبه ومعانيه وصوره عن المستوى الثقافي للشعب على نحو ما كان من الشيخ « محمد عبد المطلب » الذى جاء شعره فى لغة بدوية جزلة اللفظ وأسلوب متين محكم البناء ، وفى معان أقرب الى الشعر القديم منه الى معانى الحياة التى يعيشها الناس • ومنهم من توسط فلم يقترب كل الاقتراب ولم يبتعد كل الابتعاد على نحو ما كان من « اسماعيل صبرى » و « أحمد شوقى » اللذين جاء شعرهما فى لغة وأسلوب يرتفع قليلا ولا يبتعد فى الارتفاع عن لغة الشعب وأسلوبه •

ولكنهم مع تفاوتهم فى الاقتراب بلغة الشعر وأسلوبه من المستوى الثقافى للشعب كانوا جميعا محافظين على الشكل التقليدى فى صياغة الشعر ، هذا الشكل التقليدى فى صياغة الشعر • هذا الشكل الذى أخذ يستهويهم منذ بدأ احياء التراث الأدبى للأمة العربية يقدم للشعراء أمثلة الشعر القديم ونماذجه فى هذه الصياغة التقليدية ، ومنذ بدأ البارودى يقوم بدوره العظيم فى بعث الشعر فى مصر على أساس من الصياغة التقليدية فى قصيدة الشعر القديم • فمضى هذا الجيل من الشعراء يتبع البارودى ويتأثر خطاه فى النهوض بالشعر فى شكله التقليدى من فصاحة اللفظ وسلامة العبارة واحكام الصياغة • ولكنهم يمتازون عن البارودى بالرقة المتناهية فى اللفظ والسهولة المفرطة فى الصياغة والقرابة الذاتية فى الصور والمعانى والكثرة الغالبة فى الأغراض التى تمس جوانب الحياة •

ومن هنا استقل جيل المحافظين بمنهج فى الشعر متميز عن منهج البارودى وان كان قد مضى يتبعه على التقليد ويتأثر خطاه » (١) •

(جـ) المحسنات البديعية :

عنى الشعراء المحافظون بتجويد أسلوبهم واتقان صياغتهم حتى جاء شعرهم مثلا لروعة البيان واشراق الديباجة ، ووضوح الفكرة ، ونصاعة الأسلوب وصفاء العبارة ، وكانت المحسنات البديعية من بين عناصر الجمال فى صياغتهم الفنية ، وخصائصهم الأسلوبية • ولكنها مع ذلك لم تكن هدفا مقصودا لهم بل كانت تجىء عفوية غير متكلفة ، طبيعية فى التعبير لم تفسدها الصنعة • ثم ان الشعراء لم يجدوا بأنفسهم حاجة الى هذه المحسنات البديعية والتلفيقات اللفظية بعد أن صحح البارودى مسار

---

(١) د• عبد اللطيف خليف : التيارات الجديدة فى الشعر العربى الحديث فى مصر ، ص ١٢٦ / ١٢٧ •

الشعر العربى وخلصه من قيود البديع والصنعة التى كبلته طوال العصر العثمانى ، وبعد أن أصلح الامام محمد عبده بمقالاته فى الوقائع المصرية وفى غيرها أسلوب الكتابة الأدبية وحرره من بقايا طريقة القاضى الفاضل ٠ ثم بعد أن زاد الاتصال بين الشرق والغرب وسرى تيار الثقافة الغربية بين أبناء هـذا الجيل فانعكس ذلك بدوره على أسـلوب الكتابة ولغـة الأدب والشعر ٠

وكذلك بعد أن نما الوعى الاسلامى وقوى تيار الحركة القومية فوجه أنظار الشعراء الى العناية باظهار مزايا الاسلام وبعث مجوده واحياء التراث العربى والاسلامى وبعد أن شغل الشعراء بتصوير أحداث الأمة الاسلامية ، ورسم أبعادها الوطنية والقومية والدينية ٠

بعد ذلك كله ٠٠ وبسبب ذلك كله سقطت المحسنات اللفظية من شعر المحافظين وسلم الشعر الاسلامى من قيودها ولم يجد الشعراء بأنفسهم حاجة اليها وفى نحو ذلك يقول العقاد : « سلم الشعر العربى فى مصر من سخافة التلفيقات اللفظية وركاكة الابتذال ثم اتجه الى الفحولة والجزالة منذ نيف وستين سـنة على مقربة من العصر الذى جاشـت فيه الحركة القومية ونشبت الثورة العرابية وبدأت فيه العقول والطبائع تعرف ظواهر الجمود والاسفاف وان لم تنته الى العرفان بحقائق النهضة وبواعث اليقظة الكاملة ٠

وكان فضل هذه السلامة يرجع الى أمرين : أحدهما أدبى قريب من الشعر والشعراء وهو سريان الشعر القـديم ـ شعر الفحول المطبـوعين المشهود لهم بالسبق والأستاذية ـ بين أيدى المتأدبين والقراء على اثر ظهور الطباعة وانتشار آثارها فى البلاد الشرقية ٠

ويتصل بهذه اليقظة الأدبية من بعض أطرافها يقظة القراء المطلعين على الكتب الأدبية والأنماط الحديثة فى شعر اللغات الحية التى كانت معروفة يومئذ بين خاصة المصريين ٠

أما الأمر الآخر الذى أعان على تجـديد الفحولة فى الشعر العربى بمصر فهو دينى يتصل بالأدب والشعر من طريق دائر ولكنه ظاهر ٠٠ وتفصيل ذلك : أنه لما شاعت النهضة فى الشرق كله شاع معها الأسف بين المسلمين على ما أصابهم من الضعف والهزيمة بعد القوة والسيادة ٠ ثم شاع بينهم اليقين بأن لا مؤئل لهم ولا أمل فى تجديد سلطانهم ومنعتهم الا بالرجوع الى الاسلام فى أيامه الأولى أيام النجد والغلبة والفطرة السليمة من البدع والمحدثات وعوارض العصور الأخيرة وفضول الأعاجم والمقتدين

بهم · فأصبح كل حديث متخلف عنوانا للترف والعقيدة المدخولة والعربية المشوبة وأصبح كل قديم قريب من الاسلام فى صدره الأول عنوانا للصحة والمتانة وعصمة من الضعف والركاكة ، وعاد طلاب المعارف الدينية الى ما كان عليه خلفاء الدولة الأموية والعباسيين حيث كانوا يطلبون لأبنائهم الفصاحة فى البادية ويقرنون بين سلامة لغة القرآن وسلامة العربية على حال البداوة··ومن هذه الوجهة سقطت المحسنات اللفظية والبدع المتأخرة عند أناس لم يسقطوها من وجهة الذوق الأدبى والملكة الفنية · ولا كان ميسرا لهم أن يسقطوها من وجهة الذوق والفن لو اعتمدوا عليها دون الاعتماد على الغيرة الدينية والنعرة البدوية » (١) ·

فان وجد شيء من المحسنات البديعية فى شعر المحافظين فهو ــ على قلته ــ أصيل فى التعبير لا تكلف فيه ولا اقتسار ، « ولا يذهب بهدف الشاعر بل يخدم هذا الهدف ويزيد جمال المعنى » (٢) ·

وذلك كالجناس فى قول « شوقى » فى الهمزية النبوية : (٣)

واذا بنيت فخير زوج عشرة   واذا ابتنيت فدونك الآباء

وفى قول « عبد المطلب » فى ظل البردة : (٤)

أغرى بك الشوق بعد الشيب والهرم   سار طوى البيد من نجد الى الهرم

وكالطباق فى قول « حافظ » من قصيدة له فى تحية الهجرة : (٥)

بيسراه برهان من الله ساطع   هدى وبيمناه الكتاب المطهر

وفى قول « عبد المطلب » فى العلوية : (٦)

وصلناكم بها وقطعتموها   فكان الحزم أن تردوا الحماما

---

(١) عباس العقاد : شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ، ص ٤٣/٤٤ ·
(٢) راجع : د· أحمد بدوى : أسس النقد الأدبى عند العرب ، ص ٤٧٦ ·
(٣) ديوان شوقى ، جـ ١ ، ص ٥٩٧ ·
(٤) ديوان عبد المطلب : ص ٢١٨ ·
(٥) ديوان حافظ ابراهيم ، جـ ٢ ، ص ٣٨ ·
(٦) ديوان عبد المطلب : ص ٢٢٠ ·

وفي قول « شوقي » في قصيدته السابقة :

وإذا أخذت العهد أو أعطيته ... فجميع عهدك ذمة ووفاء

وكالترصيع (وهو السجع في البيت الواحد) في قول عبد المطلب، في قصيدته السابقة :

المجد محتده واليمن مولده ... والحمد مورده ، معنى اسمه العلم

وفي قول « شوقي » يصف الامام علي ـ كرم الله وجهه ـ الشوقيات: جـ ١ ص ٢٠٦ :

الزاخر العذب في علم وفي أدب ... والناصر الندب في حرب وفي سلم

وفي قول « حافظ » يصف نفسية عمر ـ رضي الله عنه : (١)

لا الكبر يسكنها ، لا الظلم يصحبها ... لا الحقد يعرفها ، لا الحرص يغويها

وكحسن النسق (وهو المهارة في استعمال الفاء في عطف كلمات كثيرة يرتب بعضها على بعض) في قول شوقي في قصيدته (نبي البر والتقوى) : (٢)

فلما جاء سدرته ... وكان القرب أعظمه
دنا فرأى فخر فكا ... ن من قوسين مجثمه

وكالتضمين في قول شوقي :

يصعد مثل (النجم) فيها موفيا ... وينزل (الكهف) بها مستخفيا
عالج في (المعارج) (الاسراء) ... وبدل (الطور) ارتقى حراء
باب على (الاخلاص) والايمان ... وطالت (السجدة) (للرحمن)
و (الكافرون) في (قريش) و (البلد) ... (لم يكن) الأمر لهم على خلد

---

(١) ديوان حافظ ابراهيم : ص ٨٧ .
(٢) ديوان شوقي : جـ ١ ، ص ٦١٦ .

حتى أتى (الفتح) وجـــاء النصر   واستقبل (النبأ) العظيم (العصر)
وهبط (النـــور) وحيـــا   ونزل (الفرقان) فيه محيـا (١)

وهكذا ...

وكالاقتباس من القرآن الكريم ، وقد مرت أمثلة له عند الحديث عن تأثر أسلوب الشعر الاسلامى بألفاظ القرآن الكريم .

وكحسن التعليل فى قول « الكاشف » (٢) : من قصيدة له بعنوان : (زلزال فى دار الخلافة) :

قالوا لى الأرض فى دار الخلافة قد   أصابها يوم عيد النصر زلزال
فقلت مبتسما لا تهرعوا فزعـا   فعندى السر ان صح الذى قالوا
ملك احاطت بسامى عرشه فتن   كم هددته بما يخشى وأهوال
وكاد يسقط من خوف فأدركه   خليفـة عادل للخـير فعـــال
حتى استقرت رواسى العرش واتحدت   للملك عثمان أعصـاب وأوصال
فكيف فى العيد لا يهتز من طرب   ولا يتيـه عـلى الدنيـا ويختـــال
مال الرعايا لدى استقباله فرحـــا   به فمـال سرورا مثلما مالوا

★★★

وهكذا نرى أن وجود المحسنات البديعية لم يفسد شيئا من جمـال الشعر ، بل زاده جمالا بما أضفاه على اللفظ من تنغيم وموسيقى ، وعلى المعنى من ايضـاح للفكرة وتضخيم للشعور . وذلك لأنه جاء طبعيا غير متكلف .

(د) الموسـيقى الشـــعرية :

موسيقى الشعر عنصر هام من عناصر الصياغة له تأثيره فى النفس لأنه يساعد على أن تصل اليها الأفكار والمشاعر فى صورة صوتية تأنس

---

(١) دول العرب وعظماء الاسلام ، ص ١٦ .
(٢) محمود غنيم : خمسة من شعراء الوطنية ، ص ٢٠٧ .

بها وتتفتح لها ، وتجد فيها من المتعة ما لا تجده في الكلام العادى المجرد من هذه الموسيقى · ومنذ أن كان الشعر كانت الموسيقى عنصرا جوهريا فيه حتى لقد قيل : « ان الشعر موسيقى ذات أفكار » (١) ·

وهذا اللون من الموسيقى يعتمد على ظواهر واضحة في الصياغة من حركة الوزن وايقاع القافية ويمكن للأذن أن تدركه وتتابع حركاته وسكناته ويسمى ذلك بـ « الموسيقى الظاهرة » · كما يعتمد على لون آخر من الايقاع الخفى الذى يأتى من مجموعة الدلالات والايحاءات الفكرية والشعورية التى تتعاون عليها الألفاظ ونسق التعبير والخواطر والصور ، ويسمى ذلك بالموسيقى الداخلية (٢) ·

فماذا كان موقف شعرائنا المحافظين من موسيقى الشعر بنوعيها الخارجى والداخلى ؟

أما من ناحية الموسيقى الخارجية ــ الوزن والقافية ــ فان شعراءنا المحافظين لم يخرجوا في أوزانهم عن دائرة الأوزان العربية المألوفة · بل توقفوا عند البحور التقليدية للقصيدة العربية (٣) ·

وقد أحصى الدكتور « ابراهيم أنيس » في كتابه « موسيقى الشعر » البحور التى استخدمها زعماء الاتجاه المحافظ فذكر أن ديوان البارودى قد اشتمل على ما يقرب من ٣٠٠٠ من الأبيات موزعة حسب النسب الآتية :

طويل ٣٩٪ كامل ٢٠٪ بسيط ١٥٪ خفيف ٦٪ سريع ٥٪ وافر ٤٪ منسرح ٢٪ ، وكل من المتقارب والمخلع ١٪ ولم يرد في الديوان من الرجز والرمل الا أبيات قليلة جدا · أما باقى الديوان فهو على قلته قد جاء من المجزوءات وأشباهها كمجزوء الكامل ، ومجزوء الخفيف ، ومجزوء المتقارب ومن الهزج والمجتث ·· ثم يعلق على ذلك بقوله :

وهكذا نرى أن البارودى كان يتتبع فحول الشعراء من الأقدمين ، وينسج على منوال قصائدهم ، ولهذا أشبهت نسب الأوزان في شعره ما كان عليه في عصور الجاهليين وصدر الاسلام (٤) ·

---

(١) د· عز الدين اسماعيل ، **البلاغة** ، ص ٤٧ ·
(٢) **المرجع السابق** : ص ٤٩ ·
(٣) راجع : د· طه وادى : « **شعر ناجى · الموقف والاداة** » ، ص ٢٧ ·
(٤) د· ابراهيم أنيس : **موسيقى الشعر** ، ص ١٩٩ ·

ثم انتقل بعد ذلك الى شاعر النيل « حافظ ابراهيم » فذكر أن فى ديوانه ما يقرب من ٥٦٠٠ بيت موزعة حسب النسب الآتية :

الكامل ١٨٪ كل من الطويل والخفيف ١٥٪ البسيط ١٤٪ مجزوء الكامل ١٠٪ الرمل ٧٪ الوافر ٦٪ المتقارب ٥٪ السريع ٤٪ المجتث ٣٪ . وقد جاء بالديوان عدة أبيات من المديد ومخلع البسيط ونحو ذلك من البحور النادرة (١) .

ثم نظر فى شعر شوقى فرأى أن الشوقيات بأجزائها الأربعة قد اجتمع فيها ما يقرب من ١٢٠٠٠ بيت وزعت حسب النسب الآتية :

الكامل ٥٧٪ الخفيف ١١٪ كل من الوافر والبسيط ٩٪ الرمل ٨٪ الطويل ٧٪ مجزوء الكامل ٦٪ المتقارب ٥٪ الرجز ٤٪ كل من السريع ومجزوء الرجز ٢٪ وكل من الهزج والمقتضب ومجزوء الرمل ١٪ .

وقد جاءت بالشوقيات قطعة واحدة من وزن مخترع هو نفس الوزن الذى اخترعه البارودى وعدتها سبعون بيتا (٢) .

★★★

ومن هذه النسب المئوية لاستخدام المحافظين للبحور التقليدية وبخاصة البحور الطويلة يتضح أنهم قد آثروا النهج القديم فى أوزانهم وعزفوا على الأوتار نفسها التى عزف عليها الشعراء قبلهم . فلم يخرجوا عن دائرة البحور التى حددها الخليل واستقاها من أشعار العرب ولم يصنعوا ما سبقهم اليه أصحاب الموشحات الذين خرجوا على أوزان الشعر فى كثير من الأحيان خروجا جعل من الصعب على العلماء وضع ضوابط لأوزانهم (٣) .

فاذا انتقلنا الى القافية رأينا شعراءنا المحافظين يلتزمون فى أغلب شعرهم قافية واحدة وان كانوا فى بعض الأحيان قد أحدثوا تنوعا فى قوافيهم فنظموا على نمط الموشحات والمزدوج والمربع وغيرها من الأشكال التى تحافظ على الوزن وتسمح بتنوع القافية .

---

(٢) المرجع السابق : ص ٢٠٠ .

(٣) المرجع السابق : ص ٢٠١ .

(٣) محمد عبد المحسن طه بدر : « التطور والتجديد فى الشعر المصرى الحديث » ص ٢٤٥ . رسالة ماجستير — غير منشورة — بكلية الآداب جامعة القاهرة سنة ١٩٥٧ .

فمن « الموشحات » موشح « صقر قريش » لشوقى ومطلعه : (١)

من لنضــو يتنزى ألمــا بــرح الشوق به فى الغلس
حن للبــان وناجى العــلما أين شرق الأرض من أندلس

★★★

بلبـل علمـه البين البيــان باب فى حبل الشجون ارتبكا
فى سماء الليل مخلوع العنان ضــاقت الأرض عليه شـبكا
كلمـا استوحش فى ظل الجنان جن فاستضحك من حيث بكى

★★★

ارتـدى برنســه والتثمــا وخطــا خطوة شــيخ مرعس
ويــرى ذا حــدب ان جثمـا فان ارتــد بــدا ذا قعس

★★★

ومن « المزدوج » وهو ما تتغير فيه القافية مع كل بيت ويكون للشطر الأول ما للشطر الثانى من قافية (٢) كما فى ديوان « دول العرب وعظماء الاسلام » لـ « شوقى » ، وقد مرت أمثلة كثيرة منه ٠

ومن « المربع » وهو ما تجيء فيه ثلاثة أشطر على قافية والشطر الرابع على قافية غير أن الشطر الرابع تلتزم قافيته بعد كل رابع ثلاثة (٣) ومنه قول شوقى فى « تحية الترك » (٤) ومطلعها :

بحمــد الله رب العــالمينا وحمـدك يا أمــير المؤمنينــا
لقينـا فى عــدوك ما لقينـا لقينــا الفتـح والنصر المبينـا

---

(١) الشوقيات : جـ ٢ ، ص ١٢١ ٠
(٢) كامل السيد شاهين : اللباب فى العروض والقافية ، ص ١٤٨ ٠
(٣) المرجع السابق : ص ١٥٠ ٠
(٤) الشوقيات ، جـ ١ ، ص ٣٥٢ ٠

هم شهروا أذى وشهرت حربا فكنت أجـل اقداما وضـربا
اخـذت حدودهم شرقا وغـربا وطهـرت المواقـع والحصـونا

★★★

ومنه قول « حافظ ابراهيم » (نشيد الشباب المسلمين) : (١)

اعيـدوا مجـدنا دنيـا ودينـا وذودوا عن تـراث المسلمينـا
فمن يعنـو لغـير الله فينـا ونحن بنـو الغزاة الفاتحينـا

★★★

ملكنـا الأمر فوق الأرض دهـرا وخلدنا على الأيـام ذكـرى
أتى « عمر » فانسى عدل « كسرى » كذلك كان عهـد الراشـدينا

ومن قول « المصرى » فى الحرب الطرابلسية : (٢)

ومهـلا أمـة الطليـان مهـلا أزاد بنيك حلم الترك جهـلا
ستمسح أرضـكم جبلا سـهلا ويخفـق سعيـكم بين الأنـام

★★★

اذا لـم تقصـروا فالمسلمونا عـلى اخـوانهم متساقطونا
وانـا لا محـالة ظافـرونا عليـكم بالـكلام وبالحسـام

★★★

بيد ان هذا التنويع فى القافية ــ فضلا عن قلته ــ لا يعنى أن الشعراء المحافظين قد جددوا فى قوافيهم فمما لا شـك فيه أن شعرنا العربى قد عرف ألوانا من التنويع فى القوافى . ولكن الجديد هنا هو رد هذه الألوان

---

(١) ديوان حافظ ابراهيم : جـ ١ ، ص ٣١٥ .
(٢) ديوان المصرى : جـ ٢ ، ص ٨٦ .

الى الحياة من جديد واستخدامها فى موضوعات اسلامية · وبذلك يمكن القول بأن الشعراء المحافظين لم يتجاوزوا أفق التقليد للقدماء فى قوافيهم كما أنهم لم يتجاوزوه فى أوزانهم ·

★★★

هذا من حيث الموسيقى الظاهرة ، وأما من حيث الموسيقى الخفية فان الشعراء المحافظين قد نجحوا الى حد بعيد فى التعبير عن عواطفهم الاسلامية بأشكالها السياسية والاجتماعية والحضارية تعبيرا صادقا أدى فيه اللفظ ــ بمدلوله اللغوى وحسه الموسيقى ، وطاقته الشعورية ــ دوره فى نقل احساس الشاعر وفكره الى الملتقى « حتى لتحس وأنت تستمع الى القصيدة أو تقرؤها أنك أمام بناء فنى متكامل قد وضح فيه كل شىء فى موضعه فى دقة واحكام على يد فنان ماهر يدرك أسرار الجمال ويعرف مواطنه فتشعر كأنك أمام لحن موسيقى متناسق النغم ينساب الى النفس فيأخذ بمجامعها · وهذا التناسق الفنى متنوع بحسب المعنى الذى يريده الشاعر أن يعبر عنه » (١) ·

وهذا التناسق الفنى فى شعر المحافظين قد جعل الكثير منه صالحا للغناء ولعل أصدق مثل لهذه الظاهرة الفنية هو قصائد « شوقى » فى مدح النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ من مثل « نهج البردة » ــ الهمزية النبوية ــ ذكرى المولد ــ فقد تغنى بها المغنون بعد تلحينها وكان لذلك أثره فى اذاعتها وانتشارها بين أقطار العالم العربى والاسلامى ·

واذا كانت هذه القصائد مجلى لحقائق الاسلام وعظمة مبادئه من خلال شخصية الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ بما عرف من أخلاقه وشمائله · فان اذاعة هذه القصائد يعد لونا من ألوان الدعوة الى الاسلام بأسلوب فنى محبب · وهذا ما ينبغى أن يتجه اليه الفن الاسلامى فى كل صوره وأشكاله استعلاء برسالة الفن فى ترقية الذوق وتربية الاحساس والضمير ·

(هـ) الصـــور الخيـــالية :

الفن فى مفهومه العام ــ قديما كان أو حديثا ــ هو تصوير الحياة المادية والشعورية فالرسام يصور بالألوان ، والمثال بالحجر ، والشاعر

---

(١) محمد ابراهيم الجيوشى : شاعر العربية والاسلام احمد محرم ، ص ٢٥٩ ·

بالكلمات ، والشعر في أحد تعاريفه المعاصرة هو التفكير بالصورة ، والصور الشعرية هي جوهر التعبير الفني في القصيدة العربية (١) أو هي التعبير الذي ينقل شعور الشاعر أو أفكاره معتمدا على التجسيد لا على التصريح ولا على التجريد . ذلك أن الصورة الشعرية تنقل الى القارىء عاطفة الشاعر وتجربته وتنقل كذلك فكرته التي انفعل بها وهي لهذا وسيلة من وسائله في استعمال اللغة على الوجه الذي يكفل نقل مشاعره وأفكاره فيؤثر في نفوس قرائه (٢) .

وهذه الصور الشعرية وليدة الخيال الذي يستمد صوره من المعلومات وأنواع التجارب وانعكاسات الحياة في النفس (٣) .

فاذا نحن بحثنا عن الصور الشعرية التي نتجها الخيال المحافظ فيما سقناه من شعر اسلامي . **وجدنا أثر العاطفة الدينية في توجيه الخيال** نحو القيم والمعاني الاسلامية ورأينا الخيال يحلق في أجواء هذه المعاني الاسلامية ويسترفد مضامينها ، ويجسد حقيقتها ، ويستلهم روحها .

وبذلك كان الخيال عنصرا هاما من عناصر التعبير عن العاطفة الاسلامية وعن الأفكار والخواطر الدينية في أشكالها السياسية والاجتماعية والحضارية .

★★★

وبعرضنا لنماذج الشعر الاسلامي المحافظ رأينا نوعين من الصور الخيالية : أحدهما : صور كاملة مؤلفة من صور جزئية مترابطة ترسم مشهدا عاما . كقول « شوقي » في وصف الفتح الاسلامي لمصر .

ما كانت الفسطاط الا حائطا ... يأوي الضعيف لركنه والمرهق
وبه تلوذ الطير في طلب الكرى ... ويبيت قيصر وهو منه مؤرق
عمرو على شطب الحصير معصب ... بقلادة الله العلي مطوق
يدعو له الحاخام في صلواته ... موسى ويسأل فيه عيسى البطرق(٤)

---

(١) راجع : عبد العزيز القالح (شوقي وحافظ واوليات التجديد في القصيدة العربية) مقال بمجلة الفصول المجلد الثالث ، العدد الثاني ، ص ٢١٠ ، سنة ١٩٨٣) .
(٢) د. احمد الحوفي : الاسلام في شعر شوقي ، ص ٢٧٣ .
(٣) د. سعد الدين الجيزاوي : العامل الديني في الشعر المصري الحديث ، ص ٥٤٤ -
(٤) ديوان شوقي ، جـ ١ ، ص ٢٤٣ .

وهذه الأبيات تصور الحكم الاسلامى العادل المصلح ممثلا فى فاتح مصر ، وحاكمها الأول عمرو بن العاص لكن شوقى لم يسلك الى الفكرة تعبيرا مباشرا ، وانما سلك اليها التصوير فجعل الفسطاط **حصنا يلجأ اليه الضعفاء والمستعبدون فيجدون** فيه أمنهم الذى فقدوه ، وحريتهم التى حرموا منها ، والحكم العادل الذى كانوا يفتقدونه على أنه الصورة فتخيل الطيــور تلوذ بالفسطاط تطلب الاطمئنان لتنــام لأن عسف الروم كان يفزعها ويطاردها كما يفزع القبط ويطاردهم فلا تستطيع الاستقرار فى مكان • ثم صــور عمرا جليلا مهيبا فى مظهره المتقشف فهو يجلس على حصير ولا يلبس تاجا ، ولكن الاسلام يكسبه جلالا أعظم من جلال التاج ويحليه بقلادة أفخم من قلائد الملوك • وفى البيت الأخير تكملة للتصوير ، اذ جعل اليهودَ والنصارى راضين عن حكمه فرحين بعدله وتسامحه ، يدعون له فى صلواتهم ويشهدون موسى وعيسى على ما ينعمون به من عدل وحرية واطمئنان (١) •

ومن الصور الكلية التى ترسم مشهدا عاما قول « عبد المطلب » وقد نفذ بخياله الى الماضى فاستحضر صورة « على بن أبى طالب » فى غزوة أحد وقد غشيته الحيرة وأصابته اللهفة على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين أشاع المشركون فى المسلمين أن « محمدا » قد قتل وينطلق على فى لهفة المستغرب يبحث عن رسول الله هنا وهناك • فلما لم يجده اندفع نحو الأعداء فى عزم طارت له حلومهم ، وخارت به قواهم ، وطاحوا فى مصارعهم حطاما • يقول عبد المطلب يصف هذا المشهد : (٢)

أتى الشــهداء مفتقــدا أخــاه ... لعــل الموت عاجله اختــراما

أخى ! بأبى ! يخيم ؟ يفر ؟ حاشا ... أخى فى الخطب جبنـا او خيــاما

أم اجترأت عليه يد العوادى ... فنالته اجتــراء واجتــراما

فبئس العيش بعدك يا ابن أمى ... سئمت العيش والدنيـا سآما

وحطـم غمـده وهــوى اليهـم ... هوى البـاز يعتبط الحمــاما

فطــاروا عن مواقفهم شــعاعا ... وطاحوا فى مصــارعهم حطاما

وألفى ثم أحمــد فى رحــاها ... بجنــد الكفر يصطدم اصطداما

★★★

(١) د• أحمد الحوفى : الاسلام فى شعر شوقى ، ص ٢٧٧ •
(٢) ديوان عبد المطلب ، ص ٢٣٠ •

فهنا يرسم الشاعر بالكلمات صورة نفسية للامام على ــ كرم الله وجهه ــ يجسد فيها مشاعره حين افتقد « محمدا » ــ صلى الله عليه وسلم ٠

★★★

ومن الصور الكلية فى شعر المحافظين تلك الصورة التى رسمها « محرم » لشخصية الجريح فى قصيدة « فى الحرب الطرابلسية الايطالية » اذ يقول :

فزع الدجى لأنينه المتردد — وبدا الصباح له بوجه اربد

ملقى على عارى الصعيد ملحب — فى الحرب يلتحف النجيع ويرتدى

عكفت عليه الطير تحسب انما — طاحت به أيدى الردى وكأن قد

باتت مناسرها تمزق لحمه — حيا وبات يقول هل من منجد ؟ (١)

فهذه الكلية تتألف من صور جزئية عديدة تجمع بين المرئى المسموع الساكن والمتحرك ، وفيها يرسم الشاعر صورة مأساوية تنتزع الاشفاق من قلوب المسلمين لجريح مزق أنينه سكون الليل ، وقد ألقى بالعراء مضرجا بالدماء بعد أن نفذت اليه قذيفة ٠ مالت بمنكبه ، وطارت بيده فبدا فى أعين الطير جسدا ميتا يستقبل مناسرها تمزق لحمه حيا وهو يستغيث ولا مغيث !!

وهى صورة منتزعة من ميدان الحرب الطرابلسية تعبر عن شخصية الجريح تعبيرا مثيرا لهمم المسلمين ، ومحركا لسكونهم ، وهذا ما قصد اليه الشاعر حين استعان بالصورة فى توصيل عاطفته الى جماهير المسلمين ٠

وهذا هو النوع الأول من الصور الخيالية فى الشعر الاسلامى المحافظ ٠

ثانيهما : هو الصور الجزئية التى تتمثل فى التشبيه والاستعارة والكناية ٠

فمن التشبيه قول شوقى فى وصف الحديث النبوى :

أما حديثك فى القلوب فمشرع — والعلم والحكم الغوالى الماء

---

(١) ديوان محرم : جـ ٢ ، ص ٢٠ ٠

فكما أن الظمآن يستطيب مشروع الماء ، بل يجد فيه حياته نجد المسلمين يستطيبون الحديث النبوى ويجدون فيه رشادهم ، وانقاذهم من الضلال ، وكما أن المشرع يقدم لوارديه ماء يحيى · نرى الحديث النبوى يكفل لوارديه حياة العقل والوجدان (١) ·

ومنه قول « محرم » :

هل الدين الا معقل نحتمي به اذا دلف العادى الينا فأسرعا ؟ (٢)

ومن الاستعارة : قول حافظ ابراهيم فى اسلام عمر بن الخطاب : (٣)

ويوم اسلمت عز الحق وارتفعت عن كاهل الدين أثقال يعانيها

أو قوله فى « العمرية » أيضا :

فاعجب لقوة نفس ليس يصرفها طعم المنية مرا عن مراميها

ومنها قول « شوقى » يصف الشريعة الاسلامية :

مشت الحضارة فى سناها واهتدى فى الدين والدنيا بها السعداء

ومن الكناية قول « محرم » يستنفر أمة الاسلام : (٤)

يا أمة خاطر الكرى أجفانها هبى فقد أودت بك الأحلام

ومنها قول « شوقى » يمدح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الشوقيات جـ ١ ص ٣٦ :

واذا خطبت فللمنابر هزة تعرو الندى وللقلوب بكاء

(١) راجع : د· أحمد الحوفى : **الاسلام فى شعر شوقى** ، ص ٢٧٨ ·

(٢) **ديوان محرم** : جـ ١ ، ص ١١١ ·

(٣) **ديوان حافظ ابراهيم** : جـ ١ ، ص ٨٠ ·

(٤) **ديوان محرم** : جـ ١ ، ص ٨٥ ·

وقول « حافظ » فى « العمرية » :

فقال مهبط وحى الله مبتسما   وفى ابتسامته معنى يواسيها
قد فسر شيطانها ، لما رأى عمرا   ان الشياطين تخشى بأس مخزيها

وهذا النوع من الصور الجزئية شائع فى شعر المحافظين نكتفى فى الاشارة اليه بما تقدم لنذكر بعد ذلك أهم ما نلاحظه على الصورة الشعرية عند المحافظين :

أولا : أن الصورة فى الشعر المحافظ وسيلة من وسائل التعبير عن الفكر والشعور وأنها تعتمد بوجه عام على الخيال التفسيرى الذى يدرك القيمة أو المغزى الروحى ويفسر المناظر بعرض الأجزاء أو الصفات التى تتركز فيها هذه القيمة الروحية ، وهذا النوع من الخيال هو الغالب فى أدبنا العربى (١) ٠

ثانيا : أن التراث العربى القديم كان مصدرا مهما من مصادر الصورة فى الشعر الاسلامى المحافظ ٠ ويبدو ذلك فى تأثر المحافظين بصور القدماء كالتشبيه بالأسد شجاعة ، وبالبدر ضياء فى قول شوقى يمدح النبى ـ صلى الله عليه وسلم ٠

والليث دونك بأسا عند وثبته   اذا مشيت الى شاكى السلاح كمى

وقوله :

كأن وجهك تحت النقع بدر دجى   يضىء ملتثما أو غير ملتثم

أو فى قول « الكاشف » يمدح السلطان عبد الحميد فيصفه بالغيث كرما ، وبالليث شجاعة فيقول :

يا أيها الغيث الهطول المطر الخيرات والمغنى عن الأمطار
يا أيها الليث الذى بزئيره   ذابت جوانح كل ليث ضار (١)

---

(١) راجع : عمر دقاق : الاتجاه القومى فى الشعر المعاصر ، ص ٥٣٩ ٠

أو في قول « حافظ ابراهيم » يدعو على « مولى المغيرة بن شعبة ـ قاتل عمر بن الخطاب » بانقطاع الخير والرحمة فيصطنع أسلوب القدماء ويستعير صورهم في الدعاء فيقول :

مولى المغـيرة ، لا جادتك غـــادية　　　من رحمــة الله جادت غواديها

★★★

ثالثا : تميزت الصــورة في الشعر المحافظ بغلبة الجانب الفكرى ووضوح النزعة العقلية والاعتماد على الأطراف الواضحة والحدود الظاهرة ٠

وهذه الظاهرة ناجمة عن حرص الشاعر المحافظ في هذه المرحلة من حياة قومه على الوعى الكامل ٠ ومن ثم فهو غالبا ما يجنح لتركيز صورته وتسليط أنوار ذهنه الباهر عليها ليجعلها جلية مستقيمة محدودة فى اطار التطابق المنطقى ٠ ومن هنا كان عنصر الاثارة في صور المحافظين محدودا في أغلب الأحيان (١) ٠

ثانيــا ــ بنـــاء القصــيدة :

سلك الشعراء المحافظون في بنــاء القصيدة الاسلامية ــ غالبا ــ **مسلك القدماء** في بناء قصائدهم على أساس من وحدة الوزن ووحدة القافية مع تعدد الأغراض وتنوع الموضوعات في القصيدة ، وهذا المسلك القديم في بناء القصيدة يرجع الى أن القصيدة العربية القديمة كانت تدور عند نشأتها حول ما يشغل الرجل البدوى وينبع من حياته مثل وصف الأطلال والناقة والرحلة ومنازل الأحبة وحيوان الصحراء ونباته ٠ حتى اذا ظهر المدح والتكسب بالشعر لم يشأ الشاعر العربى المفطور الذى كان يقول الشعر أصـــلا للعبارة عما في نفســه أن يتخلى عن هذا الغرض الشعرى الأصيل لكى يقرض قصيدته كلها في المدح ولذلك أخذ يجمع في قصائده بين الغرض الشعرى القديم والغرض النفعى الطارىء ، أى يجمع بين حديثه عن الأطلال والناقة والصحراء والحبيبة ومدح من يريد أن يستدر عطاءه ، وهكذا تكونت القصيدة العربية ذات الأغراض المتباينة المتتابعة ، وأصبحت هذه الظاهرة تقليدا شعريا ثابتا عند العرب » (٣) ٠

---

(١) **ديوان الكاشف** : جـ ١ ٠

(٢) راجع : عمر دقاق : **الاتجاه القومى فى الشعر المعاصر** ص ٥٣٩ ٠

(٣) د٠ محمد مندور : **الشعر المصرى بعد شوقى** ، الحلقة الاولى ، ص ١٩ ٠

- ثم مضى الزمن والنمط الموروث للقصيدة العربية فى بنائها الفنى نموذج يحتكم اليه الشعراء : حتى اذا كان العصر الحديث ، وكان البعث الأدبى الذى اقترن بالبعث الاسلامى وبالحركة الوطنية ، وظهر البارودى رائدا للشعر الحديث ، باعثا لنهضته مجددا لشبابه كاشفا عن عناصره الأصيلة ، وصورته الموروثة ، وتبعه فى ذلك جيل من الشعراء ارتضـوا نهجه ، وحافظوا على طريقته : طريقة القدماء فى صياغة الشعر — أقول حتى اذا كان ذلك كذلك : **عادت الى القصيدة العربية فى العصر الحديث خصائصها الفنية الموروثة من حيث الصياغة والبناء التقليدى الذى يقوم على تعدد الموضوعات فى القصيدة الواحدة ، وهذا ما نسناه فى القصيدة الاسلامية فى الشعر المحافظ .**

فالقصيدة الاسلامية غالبا ما ينقصها التنامى العضوى الذى يتجه بالتجربة نحو النضج النفسى والذهنى كلما أوغلنا فى قراءة القصيدة . ولعل أكبر دليل على ذلك أننا فى أثناء الدراسة الموضوعية كنا نقتطع من القصيدة بعض أبياتها التى تناسب موضوعنا ونترك البعض الآخر دون أن تضطرب القصيدة أو تفقد شيئا من قيمتها الأصلية .

وربما كان أجدى للتدليل على هذه الظاهرة الفنية فى بناء القصيدة الاسلامية أن تسوق نموذجا من هذه القصائد التى نهجت النهج التقليدى فى بنائها الفنى ، فهذه مثلا قصيدة « نهج البردة » « لشوقى » ، وهى قصيدة من تسعين ومائة بيت قالها شوقى سنة ١٩١٠ تذكارا لحج الخديو عباس . وجعل موضوعها الأساسى مدح النبى — صلى الله عليه وسلم — فكيف سار شوقى فى بناء قصيدته وكيف اتخذ طريقه الى موضوعى الأساسى الذى دارت حوله القصيدة ؟

لقد بدأ « شوقى » قصيدته بالغزل على طريقة القدماء ثم انتقل الى الحديث عن النفس وخصائصها وعن الزهد وأثر الأخلاق الفاضلة ثم أخذ فى مدح النبى — صلى الله عليه وسلم — فألم بطرف من معالم حياته وبعض صفاته ومعجزاته ، ثم عاد الى التاريخ فتحدث عن نزول الوحى وتحدث عن القرآن والحديث ثم عاد الى مولده وما صاحبه من خوارق . ثم انتقل الى الحديث عن فساد المجتمع قبل البعثة ، وعن الوثنية وعن جور الحكام من فرس وروم وعن ظلم الأقوياء للضعفاء ثم تناول الاسراء والمعراج وتكلم عن الهجرة ومسيرتها ، ثم رجع الى الحديث عن أخلاق الرسول — صلى الله عليه وسلم — ثم تحدث عن أثر دعوته ورد على دعوى انتشار الاسـلام بالسيف ثم عاد الى الاشادة بشجاعة الرسول وجهاده وجهاد أصحابه ، وأشاد بالشريعة الاسلامية وآثارها ، ونوه بمجد المسلمين لما عملوا بها .

وألم ببعض عظماء المسلمين من خلفاء وملوك ، وعلماء ، ثم ختم بالشفاعة والتوسل (١)، وبذلك فقدت القصيدة تماسكها الفكرى ، ووحدتها الموضوعية ، وبدت أفكارا مستقلة لا ارتباط بينها ، **كنهج القصيدة العربية القديمة التى اضطلع المحافظون وبعث تقاليدها الفنية** •

بيد أن المحافظين الى جانب ما اضطلعوا به من بعث القيم الفنية فى الشعر العربى ، بما فى ذلك بناء القصيدة على النسق الموروث قد حققوا نوعا من التجديد فى بناء القصيدة الاسلامية ، ويتمثل **ذلك فى وحدة الموضوع** كما يتمثل فى التخلص **من المقدمات الغزلية التى كان الشعراء يبدأون بها قصائدهم** ، فبعد أن كانت القصيدة تشتمل على عدة موضوعات يستقل بعضها عن بعض أصبحت تشتمل على موضوع واحد يعالجه الشاعر على قدر ثقافته والمامه بموضوعه • وادراكه لجوانبه المختلفة ، **وبعد أن كان الشاعر يبدأ قصيدته** ــ على عادة القدماء بمقدمة غزلية أخذ يدخل الى قصيدته دخولا مباشرا • ويظهر ذلك فى قصائد الشعر السياسى والاجتماعى التى كانت صدى لعامل الدين وللعاطفة الاسلامية كتلك التى أنشئت بهدف الرد على المتهجمين على الاسلام أو المعتدين على الوطن أو التى أنشئت بهدف الدعوة الى البر والاحسان ورعاية الأطفال والمشردين وملاجىء الأيتام • أو الدعوة الى الحجاب والتصوف أو غير ذلك من ألوان الشعر السياسى والاجتماعى ، الذى تقدمت به القصيدة المحافظة خطوة فى طريق الوحدة البنائية •

ونستطيع أن نضرب مثلا على ذلك قصيدة « شوقى » فى حادثة دنشواى (٢) فقد تحدث فيها شوقى عن كل ما يتصل بهذه المأساة ، تحدث عن الشهداء وعن أبناء دنشواى وما لاقوه من ظلم وتنكيل • فقال :

يا دنشواى على رباك سلام ... ذهبت بأنس ربوعك الأيام

شهداء حكمك فى البلاد تفرقوا ... هيهات للشمل الشتيت نظام

مرت عليهم فى اللحود أهلة ... ومضى عليهم فى القيود العام

كيف الأرامل فيك بعد رجالها ... وبأى حال أصبح الأيتام

عشرون بيتا أقفرت وانتابها ... بعد البشاشة وحشة وظلام

يا ليت شعرى فى البروج حمائم ... أم فى البروج منية وحمام

---

(١) راجع : أحمد الحوفى : **الاسلام فى شعر شوقى** ، ص ٨٣/٨٤ •

(٢) ديوان شوقى : جـ ٢ ، ص ٥٤٥ •

نيرون لو أدركت عهد كرومر　　لعرفت كيف تنفيذ الأحكام

نوحى حمائم دنشواى وروعى　　شعبا بوادى النيل ليس ينام

ان نامت الأحياء حالت بينه　　سحر وبين فراشه الأحلام

متوجع يتمثل اليوم الذى　　ضجت لشدة هوله الأقوام

السوط يعمل والمشانق أربع　　متوحدات والجنود قيام

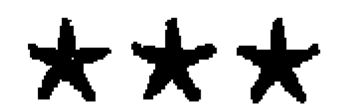
والمستشار الى الفظائع ناظر　　تدمى جلود حوله وعظام

فى كل ناحية وكل محلة　　جزعا من الملأ الأسيف زحام

وعلى وجوه الثاكلين كآبة　　وعلى وجوه الثاكلات رغام

★★★

فها هنا نرى وصلا بين الأبيات فى موضوع واحد هو دنشواى ومعنى ذلك : أن التجديد قد مس ـ الى حد ما ـ بنية القصيدة الاسلامية فلم تعد مفككة الأوصال بل أصبح يشدها خيط شعورى ينسج أبياتها حول موضوع واحد ٠



الفصل الثانى

المضمون الاسلامى فى الشعر المحافظ فى مصر

يتناول هذا الفصل المضمون الاسلامي فى الشعر المحافظ في مصر من حيث :

أولا : الأفكار والمعانى ٠

ثانيا : العـــاطفة ٠

ثالثا : الموضـــوعات ٠

أولا ــ الأفكار والمعـــانى :

تمهيــــــد :

اذا استعرضنا نماذج الشعر الاسلامى المحافظ فسوف نجد أن أهم القضايا الاسلامية التى شغلت أذهان الشعراء المحافظين فى هذه الفترة هى:

١ ــ الدعوة الى القوة ٠

٢ ــ الدعوة الى الوحدة ٠

٣ ــ ابراز مزايا الاسلام والاشادة بحضارته ومجوده ٠

٤ ــ الدعوة الى مكارم الأخلاق ومحاربة الفساد والانحلال ٠

وسوف نحـاول فيما يلى أن نلم بأهم الأفكار والمعاني التى تناولها الشعراء فى اطار هذه القضايا الاسلامية الكبرى ٠

★★★

١ ـ الدعوة الى القوة :

لا شك أن الدعـوة الى القوة واعـداد العـدة للدفاع عن الحق ورد العدوان وحماية الحرمات هى دعوة دينية أساسها : هو قول الله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيـل ترهبون به عدو الله وعدوكم » (١) وقول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف » .

ومن منطلق هذه الدعوة الاسلامية تناول الشعراء المحافظون كثيرا من المعانى التى تدور فى اطار الدعوة الى القوة ، ومن هذه المعانى :

(أ) الاشـادة بالقوة وبيـان أثرها فى حمـاية الحق وحفظ الملك وارهاب العدو ومن ذلك قول شوقى من قصيدة له في (الأسطول العثمانى) يخاطب أمير المؤمنين السلطان « محمد رشاد » سنة ١٩١٠ :

ولقد يداس الذئب فى فلواته ... ويهاب بين قيـوده الضرغـام

زدهـم أمير المؤمنين من القوى ... ان القوى عـز لهم وقـوام

الملك والدولات ما يبنى القنا ... والعلم لا ما ترفـع الأحـلام

والحق ليس وان عـلا بمؤيد ... حتى يحـوط جانبيه حسـام

خط النبى براحيته خنـدقا ... ومشى يحيط به قنا وسهام (٢)

★★★

(ب) ومنها الحث على طلب القوة وابتغاء السيادة والمجد . ومن ذلك قول « حافظ ابراهيم » من قصيدة له فى استقبال الطيار العثمانى فتحى بك سنة ١٩١٤ :

فى العـالم العـلوى والسـفلى أحـكام تـدار

خـلق الضعيف لخـدمة الـ ـقـوى وليس لـه خيـار

فتقـو يرهبـك القـو ى وهـن يلازمـك الصغار

فى الأرض ما تبغـون مـن عـز وآمـال كبـار

(١) الأنفـال : ٦٠ .

(٢) ديوان شوقى : جـ ١ ، ص ٥٣٣ .

(٣) ديوان حافظ ابراهيم : جـ ٢ ، ص ٧٦ .

فيهـا الحـديد وفيـه بأ س يوم يمتهن الدمـار
فيهـا الكنـوز الحـافلا ت لـن تبصـر واستتار
منهـا استمد قـواه من قهـر الممـالك واستعار
وبما احتـوت رد الحصيـ ف الرأى غـارة مـن أغـار

وكقول شوقى :

حب السيادة من شمائل دينكم والجـد روح منـه والاقدام (١)

★★★

(ج) ومنها التحريض على الجهاد واستنهاض الهمم لحماية المحارم ومن ذلك قول « أحمد محرم » :

يا لقومى ، جاهدوا ، لا تهنـوا وسيأتى الله بالنصـر المبين
انجـدوا مصر اذا ما فـزعت وأهابت بالكمـاة البـاسلين
احفظوها ان مصرا ان تضـع ضاع فى الدنيا تراث المسلمين (٢)

★★★

ولقد تتضح معانى القوة فى هـذه الأبيات من خلال الألفاظ التى تشيع فيها روح القوة وتتواثب حولها خواطر الشجاعة والبأس من مثل :

جاهدوا ـ لا تهنوا ـ انجدوا ـ الكماة الباسلين .

★★★

(د) ومنها الاشادة بمجود السابقين ولوم العصريين على تقصيرهم واثارة حميتهم للسير فى طريق المجد الذى بناه الأولون ، ومن ذلك قول شوقى يخاطب المسلمين :

---

(١) ديوان شوقى : ج ١ ، ص ٥٣٥ .
(٢) ديوان محرم : ج ٢ ، ص ١٨٠ .

هــذا هلالكم تكفل بالهــدى   هــل تعلمون مع الهلال ضلالا
سرت الحضارة حقبة فى ضوئه   ومشى الزمان بنـوره مختـــالا
وبنى له العرب الأجاود دولة   كالشمس عرشا والنجوم رجالا
رفعوا له فوق السماك دعائما   من علمهم ومن البيـان طوالا

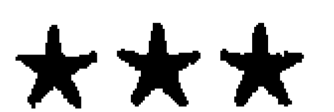
وقول نسيم :

وحسبك أن الشرق فى كل أمة   مآثره مشـهورة ومنـــاقبه
تخرج منه الفاتحون لأرضـــه   فماجت به بطحاؤه وسباسبه
وكان قديما مهبط المجد والعلى   ومصعد غطريف ترجى مواهبه
وكان طليقا أزهر اللون وجهه   وللغرب وجه أصفر اللون شاحبه
له النصر والتأييد فى كل غـــارة   اذا زحفت يـوم الصــدام كتــائبه
وكم بات مختــالا بكل مملك   تسير على هام العبـاد مواكبه
وكم كان للشمس المضيئة مطلعــا   وأفق معــال لا تغيب كواكبه
وكم صــال والهيجاء قان نجيعهــا   بكل صقيل لا تفل مضاربه(١)

★★★

وقول « الرافعى » يلوم بنى الشرق على تقصيرهم وضياع مجدهم :

بنى الشرق أين الذى بيننا   وبين رجــال العــلا من نسب
لقد غابت الشمس عن أرضكم   الى حيث لو شئتم لم تغب
ألا رحـــم الله دهــرا مضى   وما كاد يبســـم حتى انتحب
وحيـــا ليـــالى كتـــابها   رعاة على من نأى واقتــرب
فملكا ثقيـل اذا ما كبـنـــا   وعرشا ثقيم اذا ما انقلب (٢)



(١) ديوان نسيم : جـ ١ ، ص ١٣ .
(٢) ديوان الرافعى : جـ ١ ، ص ٢٦ .

فهذا التمجيد للماضي والتقريع للحاضر من شأنه أن يقهر الهزيمة في النفوس وأن يطلق الطاقات الكامنة في أعماق الأمة لتمضي في طريق السيادة والغلب .

★★★

(هـ) ومن معاني القوة في الشعر الاسلامي المحافظ . الدعوة الى دعم الخلافة العثمانية ومؤازرتها ضد أعدائها ، وتعبئة الشعور الاسلامي لمساندتها باعتبارها حامية الاسلام . ومن ذلك ما يقوله « عبد المطلب » في الحرب بين تركيا وايطاليا في طرابلس الغرب : (١)

بني أمنا أين الخميس المدرب ... وأين العوالي والحساب المذرب

اذا اهتز في نصر الخفيف تساقطت ... نفوس العدا من حده تتحلب

بني مصر هذا الدين يدعو فأقبلوا ... على الله في تأييده وتقربوا

بني مصر قد رام الخلافة معشر ... تنادوا على غدر بها وتألبوا

بني مصر هذا موقف العزم فانهضوا ... سراعا الى احرازه وتألبوا

اذا ما تنادى المسلمون فانما ... لنجدتنا كل الممالك ترقب

وكم في سبيل الله من أريحية ... لمصر بها رب الخلافة يشعب (٢)

ويقول شوقي يخاطب الشعوب الاسلامية التي تجمعها الرابطة العثمانية :

يا قوم عثمان والدنيا مداولة ... تعاونوا بينكم يا قوم عثمانا

كونوا الجدار الذي يقوى الجدار به ... فالله قد جعل الاسلام بنيانا (٣)

★★★

فهذه التعبئة العامة للمسلمين ودعوتهم الى التعاون فيما بينهم لمؤازرة

---

(١) ديوان عبدالمطلب : ص ٢٥ .

(٢) ديوان عبدالمطلب : ص ٣١ .

(٣) الشوقيات : جـ١ ، ص ٢٤٥ .

الخلافة العثمانية في حروبها الاسلامية هي دعوة الى القوة في مواجهة العداء للاسلام ، والتصدى للعدوان على شعوبه الآمنة في طرابلس وغيرها :

★★★

(و) ومن معاني القوة تصوير شجاعة المقاتلين وبسالتهم فى ميادين القتال ووصف عدتهم وأسلحتهم .

استمع الى « عبد المطلب » يصف جنود الاسلام الذين دكوا حصون الضلال وأذلوا جنود الشرك فى ساحة الموت فيقول :

وسل صهوات الخيل كم وطئوا بها	نواصي حصن للضلال وخربوا
وسل عنهم بدرا ، وسل أحدا وسل	بهم عصب الأحزاب يوم تحزبوا
ويوم حنين اذ تركن هوازنا	لأشلائها الطير الحواجل تنهب
بكل كمي يشتهي الموت فى الوغى	يلذ لعينيه الحمام ويعذب
كأن له عند المنية حاجة	يطاردها مستبسلا وهي تهرب
أولئك حزب الله أسداء دينه	بهم عصب الطاغوت تشقى وتعطب (١)

ويقول من قصيدة أخرى :

ومعشر أسلموا لله أنفسهم	تبينوا الربح فى بيع وفى سلم
لله ما أرخصوا من أنفس ذهبت	فى الله غالية الأقدار والقيم
ألقوا على الدهر من آياتهم عبرا	وساوروا الموت فاستخذى لبأسهم
سل نسج داود اذ هم يخطرون به	فى كل مصطرخ عال ومصطدم
وسل شبا البيض كم شبوا لها لهبا	على الطواغيت فى أيامها الدهم
والخيل تعلم كم دكت سنابكها	مما بنى الكفر من دار ومن أجم
فى كل يوم « كبدر » جرأ يومه	على العدا كل ماض بالردى خذم

---

(١) ديوان عبدالمطلب : ص ٢٧ .

ويقول « نسيم » يصف شجاعة المقاتلين من جند الاسلام :

يمشون للحرب والهيجاء مسعرة — كأنهم من حنايا البيض فى ظلل
بيض مواض على الأعداء مرهفة — كالبرق فى ومض والرعد فى زجل
وأدرع مثل ظهر الصل لاوية — أيدى الفوارس بالخطبة الذبل(١)

★★★

بمثل هذه الأفكار صب الشعراء معانى القوة فى أوعية من الألفاظ المناسبة والكلمات الموحية ٠

٢ ـ الدعوة الى الوحدة :

وقد نبعت هذه الدعوة من ينبوع الاسلام الذى دعا المسلمين الى الوحدة وحذرهم من الفرقة ونهاهم عن التنازع ٠

ثم قويت هذه الدعوة بفعل ما مر بالأمة من أحداث وما أحاط بها من خطر كان التجمع لمواجهته ضرورة يفرضها الخوف على الاسلام والمسلمين ٠

ومن هنا نشأت فكرة الجامعة الاسلامية أو الوحدة الاسلامية فى مواجهة التحزب المسيحى ضد الاسلام والمسلمين ٠

وكان ايمان الشعراء المحافظين بالجامعة الاسلامية ، وبالخلافة العثمانية رمزا لهذه الرابطة الدينية من أهم مظاهر الوحدة الاسلامية فى هذا العصر ٠

وقد ظهر أثر هذه الوحدة بين الشعوب الاسلامية فى كثير من المواقف منها :

١ ـ الحروب العثمانية فى اليونان وطرابلس والبلقان ٠ فقد أظهرت هذه الحروب عطف المسلمين ومؤازرتهم لاخوانهم المجاهدين فى ميادين القتال (٢) ٠

---

(١) **ديوان نسيم** : جـ١ ، ص ١٣٩ ٠
(٢) راجع فى هذا البحث : الفصل الأول من الباب الأول ، ص ٣٣ وما بعدها ٠

٢ ـ مشروع سكة حديد الحجاز الذى تحمس له المسلمون وتعاونوا على اتمامه وشاركوا فيه بأموالهم ، وكان هذا المشروع عونا على التقريب بين المسلمين وتشجيعا لهم على أداء فريضة الحج حيث يلتقى المسلمون من كل جنس ولون فى مؤتمر إسلامى عام تتجدد به أواصر المودة وتقوى عوامل الوحدة بينهم (١) ٠

٣ ـ صدور الدستور العثمانى ٠ الذى أثلج صدور المسلمين فأعلنوا فرحتهم به وشاركوا العثمانيين فرحتهم وزاد تقديرهم للسلطان عبد الحميد الذى أصدر هذا الدستور ٠

وفى ذلك يقول شوقى :

بشرى البرية قاصيها ودانيها ... حاط الخلافة بالدستور حاميها

لما رآها بلا ركن تداركها ... بعد الخليفة بالشورى ، وناديها

الى أن يقول :

يا شعب عثمان من ترك ومن عرب ... حياك من يبعث الموتى ويحييها

نلت الذى لم ينله بالقنا أحد ... فاهتف (لأنورها) واحمد نيازها

ما بين آمالك اللاتى ظفرت بها ... وبين (مصر) معان أنت تدريها (٢)

★★★

وكان لمناسبة صدور الدستور العثمانى أثر عميق فى شعور المصريين الذين تجاوبت آمالهم مع شعب عثمان فانطلقوا يهتفون بهذا الدستور الذى أعاد الأمن والسلام الى ربوع البلاد وكان الاجماع على الفرحة به لدى المسلمين فى مصر ومشاركتهم العثمانيين فى حثهم بهذه المناسبة دليلا على وحدة المشاعر والآمال بين المسلمين ٠

ومن الشعراء الذين شاركوا فى الفرحة الاسلامية بهذه المناسبة شوقى (٣) وحافظ ابراهيم (٤) وأحمد محرم (٥) والكاشف (٦)

---

(١) راجع فى هذا البحث : الفصل الأول من الباب الأول ، ص ٢١ ٠

(٢) الشوقيات : جـ١ ، ص ٢٨٦ ٠

(٣) الشوقيات : جـ١ ، ص ٢٨٦ ٠

(٤) ديوان حافظ ابراهيم : جـ٢ ، ص ٤٨ ٠

(٥) ديوان محرم : جـ٢ ، ص ٤ ٠

(٦) ديوان الكاشف : جـ٢ ، ص ٢٧ ٠

وعبد المطلب (١) وعلى القاياتى (٢) وعبد الحليم المصرى (٣) ٠

واذن ٠٠ فقد كانت هذه المناسبات مظهرا لوحدة الشعور الاسلامى بين المسلمين ٠

★★★

وكان التحذير من خطر الانقسام والفرقة لونا من ألوان الدعوة الى الوحدة أكد عليه الشعراء في ثنايا قصائدهم ٠

ومن ذلك ما يقوله شوقى يخاطب الخارجين على الصف الاسلامى : (٤)

أيها النافرون عودوا الينا ولجوا الباب انه الاسلام

غرض أنتم وفي الدهور سهم يوم لا تدفع السهام السهام

أو ما يقوله مبينا أثر الانقسام فى تقويض ملك المسلمين وضياع هيبتهم : (٥)

حتى اذا انقسموا تقوض ملكهم والملك ان بطل التعاون زالا

لو أن أبطال الحروب تفرقوا غلب الجبان على القنا الأبطالا

ويقول « نسيم » ينعى على المسلمين تفرقهم وتقطع أرحامهم : (٦)

لله ما للمسلمين تشعبوا في ملكهم وتقسموا أقساما

قطعوا الأواصر واستحلوا قطعها أبد الأبيد وشققوا الأرحاما

وتفرقوا فرقا وكانوا قبلها أقوى العناصر ألفة ووئاما

---

(١) ديوان عبد المطلب : ص ٩٣ ٠
(٢) وطنيتى : للغاياتى : ص ٥٥ ٠
(٣) ديوان المصرى : جـ١ ، ص ٤٣ ٠
(٤) الشوقيات : جـ١ ، ص ٢٤٢ ٠
(٥) السابق ، ص ١٨٧ ٠
(٦) ديوان نسيم : جـ٢ ، ص ٥٧ ٠

ويقول حافظ ابراهيم محذرا من عاقبة الانقسام :

هلاك الفرد منشؤه توان ... وموت الشعب منشؤه انقسام
وانا قد ونينا وانقسمنا ... فلا سعى هناك ولا وئام
فساء مقامنا في أرض (مصر) ... وطاب لغيرنا فيها المقام

★★★

وبمثل هذه المعانى عالج الشعراء فكرة الوحدة الاسلامية مستهدفين جمع الشمل الاسلامى فى مواجهة الخطر الصليبى على بلاد الاسلام ٠

★★★

٣ ـ ابراز مزايا الاسلام والاشادة بحضارته ومجوده :

وكان ابراز مزايا الاسلام وتمجيد حضارته ، وتعظيم عظمائه من بين القضايا التى شغلت أذهان الشعراء المحافظين فى مواجهة العصر وتحدياته فاتجهوا الى تجلية حقائق الاسلام والكشف عن محاسنه ليواجهوا بهذه المجود الأصيلة حضارة الغرب الوافدة ، وليردوا الى المسلمين ثقتهم بأنفسهم وقدرتهم على النهوض بأعباء الحضارة من خلال تراثهم العظيم ٠

ثم ليردوا الى القيم الاسلامية جلالها بعد أن كادت تهتز فى نفوس المسلمين المعاصرين ولا سيما الشباب منهم ، وبخاصة أولئك الذين تربوا على أساليب الحضارة الأوربية فتمردوا على القيم الدينية والتقاليد الاجتماعية وارتفعت أصواتهم بالدعوة الى الاصلاح والنهضة على أساس الحضارة الغربية ٠ ولم يتورعوا عن اظهار استخفافهم بالدين وآدابه ذلك كله الى جانب التهجم على الاسلام من بعض كتاب الغرب ممن يضمرون الحقد ويبيتون النية للنيل من قداسته ٠

من هنا برزت الحاجة الى اظهار شخصية الاسلام ، والكشف عن مزاياه وبيان خصائصه من خلال ما اشتمل عليه من مبادىء تتصل بحياة الناس فى معاشهم ومعادهم وفى سائر شئونهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية ، وقد جال الشعراء فى هذا الميدان ولمسوا كثيرا من معانى العظمة فى الشريعة الاسلامية (١) وانتصروا للاسلام ودافعوا

---

(١) راجع فى هذا البحث الفصل الثانى من الباب الثالث ٠ ص ٢١٤ وما بعدها ٠

عنه ضد مطاعن الخصوم كانتشار الاسلام بالسيف ، والتعصب والجمود وتبعية المرأة للرجل ، وعدم صلاحية الاسلام ـ جملة ـ للحياة العصرية الجـديدة .

وكان لتجلية الحق فى هذه القضايا المهمة أثره فى تقوية التيـار الدينى وتغذية الفكر الاسلامى بالمفاهيم الصحيحة ، واقتلاع ما رسخ فى العقول من أوهام وأباطيل .

وبذلك عادت الثقة فى الدين الى النفوس التى بهرتها أضواء الحضارة الوافدة حتى خيل اليها ـ جهلا ـ أن الدين لن يقوى على مواجهة الحضارة الحـــديثة .

★★★

٤ ـ الدعوة الى مكارم الأخلاق ومحاربة الفساد والانحلال :

وقد ظهرت هذه الفكرة العامة متأثرة بعاملين :

أولهما : دينى يتمثل فى دعوة الاسلام الى حسن الخلق .

ثانيهما : اجتماعى يتمثل فى تلك الهزة الخلقية التى أحدثتها المواجهة بين الحضارة الأوروبية الطارئة والحضارة الاسلامية الموروثة .

وبتأثير هذين العاملين اتجه الشعراء الى الدعوة الى مكارم الأخلاق ، والتحذير من عاقبة الفساد والانحراف .

وفى الدعوة الى مكارم الأخلاق أكد الشعراء على أهمية الأخلاق فى حياة الأمم والشعوب وأنه لا صلاح لأمر من الأمور بغير أساس متين من الأخلاق والفضائل .

وحول هذا المعنى يقول شوقى : (١)

كذا الناس بالأخلاق يبقى صلاحهم ويذهب عنهم أمرهم حين تذهب

ويقول : (٢)

وانما الأمم الأخـلاق ما بقيت فان تولت مضوا فى اثرها قدما

---

(١) الشوقيات : جـ١ ، ص ٤٤ .
(٢) السابق : ص ٢٢٧ .

ويقول : (١)

وليس بعـــامر بنيـــان قـــوم اذا أخـــلاقهم كانت خـــرابا

ويقول من قصيدة له فى « ذكر المولد » (٢) يمدح النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ويعدد منجزات دعوته :

بنيت لهم من الأخـــلاق ركنا فخـانوا الركن فانهدم اضطرابا

ويقول فى موشحه « صقر قريش » : (٣)

واذا الأخـــلاق كانت سـلما نالت النجـم يـــد الملتمس
فارق فيهـا ترق أسباب السما وعـلى ناصـية الشمس اجلس

★★★

وفى اطار الدعوة الى مكارم الأخلاق ردد الشعراء كثيرا من المعانى الدينية كالصدق والأمانة والعفة والقناعة ، والحلم والوقار ، والتسامح والاخاء والاحسان الى الفقراء ، والرحمة بالضعفاء ، وكفالة الأيتام وصلة الأرحام والبر بالوالدين (٤) وغير ذلك من معانى الفضيلة وحسن الخلق .

وفى هذا المجال كانت أخلاق النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ وشمائله مثلا حاضرا ، ونموذجا عمليا ركز عليه الشعراء فى مدائحهم النبوية .

★★★

وكانت محاربة الفساد والتصدى لألوان الانحراف بالنقد والتحليل تارة وباللوم والتقريع تارة أخرى ، أسلوبا من أساليب التوجيه نحو مكارم الأخلاق . وفى هذا الصدد أخذ الشعراء يذمون الخمر والميسر . وينتقصون الخـلاعة والمجون ، ويعيبون السـفور والاختـلاط ، وينكرون التخنث والتبرج (٥) . ويواجهون تيار الحضارة المادية الدافقة بألوان المفاسد ، يبتغون حماية الشباب من آفات المدنية وآثامها .

---

(١) السابق : ص ٦٤ .
(٢) الشوقيات : جـ١ ، ص ٧٢ .
(٣) الشوقيات : جـ٢ ، ص ١٧٦ .
(٤) راجع فى هذا البحث : الفصل الثانى من الباب الثانى ، ص ١٦٧ .
(٥) راجع فى هذا البحث : الفصل الأول من الباب الثانى ، ص ١٠٠ وما بعدها .

وبعـــــد :

فتلك اشـارة عامة الى أهم الأفكار والمعـانى التى تناولها الشعراء المحافظون فى قصائدهم الدينية نتبين من خلالها :

أهم الخصائص الفكرية للشعر الاسلامى المحافظ فى مصر :

١ ـ التأثر بالثقافة الاســلامية والعربية : ويظهـر ذلك فيما اقتبسه الشعراء من معانى القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والسـيرة النبوية . والتاريخ الاسلامى وقد تجلى أثر هذه الثقافة الاسلامية فى معالجتهم للقضايا السياسية والاجتمـاعية والثقـافية ذوات الصلة بالدين والتى سبق الحديث عنها ٠

٢ ـ التأثر بثقافة العصر وما يجرى فيه من أفكار وما يدور فيه من قضايا كالحديث عن العدل الاجتماعى ، وحقوق العمال والطبقات الفقيرة ، وظهور فكرة الاشـتراكية ، وكالثـورة على الظلم والاسـتبداد ، والتعصب والمطالبة بالتحرر من نير الاستعمار والتخلف الاجتماعى ٠

٣ ـ كثرة المعانى ووفرتها ويرجع ذلك ـ فى رأيى ـ الى ما تهيأ لهـذا الجيـل من الشعراء من فـرص الاطلاع على روائع التراث العـربى والاسلامى ومن كثرة التجارب والاحتكاك بمشكلات العصر ، ومن معاصرة الزعماء من أمثال : محمد عبده ، ومصطفى كامل ، وسعد زغلول ، وقاسم أمين ، وغيرهم من رواد النهضة الحديثة فى مجالاتها المختلفة ٠ فهذه العوامل ولا شك ـ من شأنها أن توسع النظرة الى الحياة ، وأن يثرى الفكر بتأثيرها ٠

٤ ـ من هذه الأفكار ما هو عميق ليظهر فيه أثر الثقافة وعمق الاطلاع كالأفكار التى تدور حول الدفاع عن الاسلام وابراز مزاياه ٠

ومنها ما هو قريب لا عمق فيه بل هو أقرب الى العام المألوف كبعض أفكار المدائح النبوية وبخاصة ما يتصل منها بأحوال العرب قبل البعثة أو ما يتصل بأوصاف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخلاقه وشمائله ٠ مما ورد ذكره فى كتب السيرة وترددت نظائره فى شعر المدائح النبوية عبر العصور ٠

٥ ـ تأتى الحكمة فى ثنايا الشعر المحافظ خلاصة لتجارب الشعراء فى الحياة وتركيزا لأفكارهم وقراءاتهم فى التراث العربى والاسلامى ، وتتميز بالعمق والشمول وقوة المضمون ٠

٦ ـ الأفكار الاسلامية في شعر المحافظين صحيحة من وجهة نظر الدين وهي تدل في جملتها على ثقافتهم الاسلامية ٠

ثانيا ـ العـــاطفة :

تعـد العاطفة في الشعر عنصره الأول الذى يبث في الأفكار روعة وحياة قوية تسهل فهمها وتدفعها في النفوس (١) ٠

وبقدر ما يتهيأ لهذه العاطفة من قوة الباعث تكون قوتها ٠ ويكون أثرها في التعبير ٠

والعاطفة الدينية من أقوى العواطف وأنبلها ولا سيما اذا انبعثت عن سبب قوى يستثير أعماقها ٠ ويهيج سكونها ٠

وقد ألمحت خلال ما مر من فصول الدراسة الى الظروف القاسية التى مرت بها الأمة الاسلامية فاعتصرت كيانها ، وكادت تعصف بوجودها وتدمر حضارتها ٠ فلقد كانت المعركة بين الاسلام وخصومه ـ في هذه الفترة ـ قوية وشرسة وشاملة ٠

ظهرت آثارها في السياسة عنـــدما قاوم الاستعمار فكرة الجـامعة الإسلامية وعمل على تمزيق وحدة المسلمين ، وتحرش بالخلافة الاسلامية ، وانتقص أطرافهـا ، واعتـدى على شـعوبها في مصر وطرابلس وفلسطين وغيرها من أملاك الدولة العثمانية ٠

وظهـرت آثارها في المجتمع من خـلال الدعوة الى السفور وتحرير المرأة ، وتقليد الأجانب في معيشتهم ، وأسلوب حيـــاتهم ما يحمد منها وما لا يحمد ٠

وظهرت آثارها في الثقافة بالدعوة الى العامية ، ونبذ الفصحى لغة القرآن الكريم ٠

ثم كان التهجم على الاســلام والطعن في مبادئه هو قمـة التحدى للاسلام ولحضارته وللمسلمين وتراثهم ٠

وقد هزت هذه الأحداث عواطف المسلمين عامة والشعراء المحافظين في مصر خاصة فجادت قرائحهم بأقوى الشعر وأصدقه ٠ عبر فيه الشعراء عن عاطفة قوية وصادقة قد اهتاجتها أحداث سياسية واجتماعية وثقافية ذوات مساس بالدين ٠

---

(١) راجع أحمد الشايب : اصول النقد الأدبى ص ٣٠٤ ٠

استمع الى « عبد المطلب » يذود عن الخلافة الاسلامية ويدعو المسلمين الى تأييدها ، وقد تألب عليها الاستعمار ، واعتدى عليها الطليان فى طرابلس الغرب فيقول :

بنى مصر هذا الدين يدعو فاقبلوا   على الله فى تأييده وتقربوا
بنى مصر قد رام الخلافة معشر   تنادوا على غدر بها وتالبوا
بنى مصر هذا موقف العزم فانهضوا   سراعا الى احرازه وتألبوا
وكم فى سبيل الله من أريحية   لمصر بها رأب الخلافة يشعب
تفيض على الاسلام بالجود أنعما   غزارا اذا ما أخلف الدهر صيب(١)

★★★

فنحن اذ نستمع الى هذه الأبيات نحس انعطافا نحو هذا الدين الذى يتهدده الاستعمار ، ونحو الخلافة التى تتعرض للعدوان والغدر ، وهذا الاحساس يدعونا الى أن نستجيب لدعوة الشاعر بالبذل والعطاء فى سبيل الله ، رأبا لصدع الخلافة ومؤازرة لجهودها فى قتال الباغين الذين تنادوا على الغدر بها .

ومعنى ذلك أن الشاعر قد نجح فى اثارة عواطفنا ، وفى اشراكنا معه فى تجربته النفسية التى ألمت به وهو ينظم قصيدته ، وتلك آية الصدق فى التعبير عن العاطفة . فاذا أضفنا الى ذلك مهارة الشاعر فى استخدام المؤثرات النفسية التى تلهب العاطفة الدينية ، وتقوى نشاطها مثل : الدين ــ الله ــ الخلافة ــ سبيل الله ــ الاسلام .. الى آخره .. كان ذلك دليلا على حضور الشاعر وقوة عاطفته .

ولعلنا فى غير حاجة الى التأكيد على أن مثل هذا الشعر الذى يتصل بأحداث العالم الاسلامى ، أو بالخلافة والخليفة . كان صدى لعاطفة دينية صادقة ذلك لأن الشعراء المحافظين كانوا يرون فى مؤازرة المسلمين فى أى مكان مؤازرة للاسلام ونصرا لدين الله ، كما كانوا يرون فى الدفاع عن الخلافة وتأييد الخليفة تقربا الى الله وزلفى .

---

(١) ديوان عبد المطلب : ص ٣١ .

فهذا « عبد المطلب » يرى فى عدوان ايطاليا على طرابلس عدوانا على الاسلام يستوجب نفرة المسلمين فى كل بقعة وكل أمة لنجدة الاسلام ومؤازرة المجاهدين فى سبيله فيقول : (١)

دعا صارخ الاسلام يا لبنى الهدى — أغار العدا أين الحسام المشطب
أرادت حمى الاسلام روما فاقبلت — زعانفها فى بغيها تتثعلب
حذار فللاسلام فى كل بلدة — دهاة اذا ما أظلم الرأى أثقبوا
اذا ما تنادى المسلمون فانما — لنجدتنا كل الممالك ترقب

وهذا « شوقى » يرى فى الدفاع عن الخلافة حبا لذات الله ، ونصرا لدينه فيقول : (٢)

عهد الخلافة فى أول ذائد — عن حوضها ببراعة نضاح
حب لذات الله كان ولم يزل — وهوى لذات الحق والاصلاح

ويقول مخاطبا السلطان عبد الحميد : (٣)

زهدت الذى فى راحتيك وشاقنى — جوائز عند الله مبتغيات

ويقول مخاطبا السلطان عبد الحميد : (٤)

فلازلت كهف الدين ، والهادى الذى — الى الله بالزلفى له نتقرب

واذن ‥ فلم يكن شعر المحافظين فى تأييد الخلافة ومدح الخليفة ومؤازرة المجاهدين من المسلمين تسلية ولا تزجية فراغ وانما كان تعبيرا عن عاطفة دينية صادقة وكذلك كان شعرهم فى الدفاع عن الاسلام ضد خصومه ، وفى التحريض على الجهاد ضد الاحتلال ، وفى الدعوة الى البر والاحسان ومكارم الأخلاق وفى الاشادة بحضارة المسلمين والتغنى

---

(١) **ديوان عبد المطلب** : ص ٢٩ ــ ٣٠ .
(٢) **الشوقيات** : جـ ١ ص ١٠٨ .
(٣) **السابق** : ص ٩٧ .
(٤) **السابق** : ص ٥٨ .

بأمجادهم ، والاعجاب بمزايا الاسلام وفضائله ، وحب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ، والتوسل به الى الله تعالى ، والأسف على ما ضاع من مجد المسلمين ، واستنهاضهم لاسترجاع ما كان لهم من ماض مجيد · كان شعر المحافظين فى كل هذه الموضوعات تعبيرا عن عاطفة صادقة مفعمة بالحب لله ولرسوله وللمسلمين ·

وهذا الحب للمسلمين هو الذى جعل شاعرا « كشوقى » يأسى على تخلف المسلمين واستكانتهم فى قصيدته التى قالها بمناسبة حج الخديوى عباس وزيارته قبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفيها يقول مخاطبا الخديوى عباسا :

اذا زرت يا مولاى قبر محمد	**وقبلت مثوى الأعظم العطرات**
وفاضت من الدمع العيون مهابة	**لأحمد بين الستر والحجرات**
وأشرق نور تحت كل ثنية	**وضاع أريج تحت كل حصاة**
لمظهر دين الله فوق تنوفة	**وبانى صروح المجد فوق فلاة**
فقل لرسول الله يا خير مرسل	**أبثك ما تدرى من الحسرات**
شعوبك فى شرق البلاد وغربها	**كأصحاب كهف فى عميق سبات**
بأيمانهم نوران : ذكر وسنة	**فما بالهم فى حالك الظلمات**
وهذا زمان أرضه وسماؤه	**مجال لمقدام كبير حياة**
مشى فيه قوم فى السماء وأنشأوا	**بوارج فى الأبراج ممتنعات**
فقل رب وفق للعظائم أمتى	**وزين لها الأفعال والعزمات**

★★★

فها هنا نحس عاطفة صادقة مفعمة بالأسى لما أصاب المسلمين من ضعف وهوان ، شديدة الشوق الى ذلك المجد الفائت ، والحضارة الغاربة عميقة الحب للأمة الاسلامية ، كبيرة الرجاء فى توفيق الله للمسلمين ، ثم ان هذه العاطفة قد انعكست على الصورة التعبيرية فجاءت الألفاظ رقيقة صافية سهلة سلسة مؤثرة بدلالتها اللغوية ، موحية بايقاعها الموسيقى ، وبظلها الذى تلقيه فى الخيال ·

وأيا ما كان موضوع الشعر الاسلامي المحافظ فان للعاطفة فيه وجودا ظاهرا وأثرا باديا يدركه الاحساس ويستشعره القارىء من خلال الروح السارية فى الألفاظ والعبارات والخيال والموسيقى ٠٠ غاية الأمر أن دفء هذه العاطفة قد يخفف فى موضوع دون آخر ولكنه ـ أبدا ـ لا يختفى ٠ والعاطفة الدينية بعامة ٠ ومن خلال موضوعات الشعر الدينى التى ألمحنا اليها فى دراستنا لاتجاهات الشعر الاسلامي المحافظ عاطفة صادقة لأنها قامت على سبب صحيح وهو الدين دفاعا عنه ، أو دعوة اليه أو اعجابا بمبادئه ، أو اشادة بحضارته ، أو تمجيدا لعظمائه ٠

وهى عاطفة قوية لأنها أثرت فى عواطفنا وهزت مشاعرنا ووجهتنا وجهة الدين وحببت الينا الايمان وزينته فى قلوبنا وكرهت الينا الكفر والفسوق والعصيان ٠

ثم هى عاطفة سامية لانها تنبع من الدين وتتصل بقيمه ومبادئه ، وتستهدف الخير والرشاد لعامة المسلمين ٠

ومن الطبعى أن تتفاوت العواطف الدينية من شاعر ومن موضوع لآخر بل تتفاوت عاطفة الشاعر الواحد من موقف لموقف بقدر قربه أو بعده عن وهج العقيدة ومصدر التأثير فى العاطفة الدينية ٠

ولذلك رأينا ألوانا من العاطفة الدينية تتفاوت حرارتها ، وتتعدد مظاهرها ولكنها موجودة فى كل حين ٠

ثالثا ـ الموضوعات :

اذا تأملنا موضوعات الشعر الاسلامي فى هذه الفترة فسوف نجد أن بعض هذه الموضوعات كان استمرارا لموضوعات الشعر الدينى فى العصور السابقة ولكن طرأ عليها شىء من التجديد والتطور فى هذه الفترة ٠

وبعضها كان مستحدثا جاء من وحى الظروف والأحداث التى ألمت بالأمة الاسلامية فى هذا العصر ٠

فمن الموضوعات الدينية التى سبق اليها الشعراء قبل هذه الفترة :

١ ـ **المدائح النبوية** : وهى من أقدم أغراض الشعر الدينى التى ظهرت مع الاسلام ثم استمرت عبر العصور الاسلامية الى عصرنا الحديث ، وكان لكل عصر من العصور طابعه الفني الذى ينعكس بدوره على

شعر المدائح النبوية كما ينعكس على سائر الشعر ولم تكن المدائح النبوية فيما قبل هـذه الفترة سوى سرد قصصى لحياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما سجلتها كتب السيرة (١) أما فى فترتنا هذه فقد عنى الشعراء فى مدائحهم بالدفاع عن الاسلام وبيان مزايا الشريعة ، وتصوير كفاح النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتركيز على جهاده وغزواته ، واستنهاض همم المسلمين المعاصرين من خلال أحـداث السيرة النبـوية ، وبذل النصـيحة لهم والتحسر على ما أصابهم (٢) ٠

وبذلك اتسع موضوع المدائح النبوية فلم يعد قاصرا على سيرة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل شمل الى جانب ذلك كثيرا من قضايا الاسلام والمسلمين فى هذا العصر ٠

٣ ـ **الخلافة العثمانية** : ظلت مصر تدين بالولاء للخلافة العثمانية فى تركيا منذ تغلب عليها السلطان « سليم الأول » سنة ١٥١٧ الى أن زالت عنها السيادة العثمانية سنة ١٩١٤ وكان هذا الولاء للخلافة العثمانية ولاء دينيا أساسه نصرة الاسلام وحماية المسلمين ، وعلى هـذا الأساس كان تعلق المسلمين بالخلفاء ودعمهم لمركز الخـلافة ومناصرتها فى الدفاع عن الاسلام ٠

وقد عبر الشعراء فيما قبل هذه الفترة عن شعور المسلمين بالخلافة وامتـدحوا الخلفـاء من حيث ما يمثلونه من رمز للرابطة الاسلامية ٠

بيد أن هذه المدائح كانت مجرد اشارات لهذه الرابطة الدينية (٣) أما فى فترتنا هذه فقد قوى مركز الخلافة الاسلامية واشتد تعلق المسلمين بالخليفة العثمانى الذى أصبح أمل المسلمين فى الدفاع عن دينهم ٠ ورد

---

(١) راجع : سعد الدين الجيزاوى ٠ **أصداء الدين فى الشعر المصرى الحديث** ص ٨٩ ، ٣٦٠ ٠

(٢) راجع : **قصائد شوقى فى مدائحه النبوية وهى بالترتيب** ١ ـ نهج البردة سنة ١٩١٠ جـ ١ ص ١٩٠ ٢ ـ ذكرى المولد سنة ١٩١١ (نشرت بالجريدة فى ٧ مارس سنة ١٩١١ ـ وهى ليست بالديوان) ٣ ـ سلوا قلبى سنة ١٩١٤ جـ ١ ص ٦٨ ٠

(٣) **الهمزية النبوية سنة ١٩١٧** جـ ١ ص ٣٤ ٠

(٤) **راجع : سعد الدين الجيزاوى** ص ١٢٢ / ١٢٣ ٠

العدوان عن ديارهم بعد أن تزايد الخطر المسيحى على الاسلام ، وتآمرت الدول الأوروبية على أملاك الدولة العثمانية (١) ٠

ومن هنا كثرت مدائح الخلفاء واتسعت موضوعاتها ، وأصبحت ميدانا يتبارى فيه الشعراء ويكثرون من الانشاء لأن الخلافة هنا أصبحت فى حاجة الى المساندة والتأييد ورد هجمات خصومها ثم توجيه الخلفاء الى أمثل السبل (٢) ٠

وليس بين شعرائنا المعاصرين لهذه الفترة من يخلو ديوانه من شعر فى مدح الخليفة التركى ، والاشادة بفضله على المسلمين ، وحرصه على اعلاء كلمة الدين وليس فيهم من تخلف عن المشاركة بشعره فى حروب تركيا وأحداثها الجسام مثل حرب اليونان وحرب طرابلس وحرب البلقان والدستور العثمانى (٣) ٠ وبذلك صار موضوع الخلافة سجلا حافلا بأحداث العصر ، ولم يعد قاصرا على تلك الاشارات العابرة الى تلك العلاقة الدينية بين المسلمين وخليفتهم العثمانى ٠

٣ ــ **المناسبات الدينية** : ومن الموضوعات الدينية القديمة التى كان الشعراء يتسابقون الى النظم فيها قبل هذه الفترة ٠ المناسبات الدينية كالمولد النبوى ، والهجرة ، والعيدين ، وغيرها ٠ من المواسم الدينية التى احتفل بها الفاطميون ثم ظل الاحتفال بها موضع عناية الخلفاء والحكام الى عصرنا الحديث ٠

وكان الشعراء يتخذون من هذه المناسبات فرصة للزلفى والتقرب الى الخلفاء والحكام دون أن يتعمقوا المناسبة أو يستخرجوا العبرة من أحداث التاريخ الاسلامى ٠ فلما كانت هذه الفترة (١٨٨٢ ــ ١٩١٩) ونما الوعى الاسلامى على يد الأفغانى ، ومحمد عبده ، وتزايدت أحداث الأمة الاسلامية ٠٠ اتجه الشعراء بهذه المناسبات الدينية وجهة جديدة تتمثل فى استنهاض همم المسلمين ، وشحذ عزائم الشباب ، والتعبير عن واقع الأمة الاسلامية ، وتجسيد آمالها فى الحرية والاستقلال ، والدفاع عن الاسلام وبيان مزاياه (٤) ٠

---

(١) راجع فى هذا البحث : الفصل الأول من الباب الأول ٠

(٢) سعد الدين الجيزاوى : **المرجع السابق** ص ٣٦٠ ٠

(٣) د٠ محمد محمد حسين : **الاتجاهات والوطنية فى الأدب المعاصر** جـ ١ ص ١١ ٠

(٤) راجع فى ذلك دواوين : ١ ــ **شوقى** جـ ١ ص ٤٩٣ ، ص ٦٠٦ ، ص ٦١١ ، توثيق د٠ الحوفى ٠

وبذلك تطورت المناسبات الدينية واتسعت للتعبير عن المشاعر الدينية والوطنية في هذه الفترة ٠

تلك كانت أهم الموضوعات الدينية القديمة التي تطورت في فترتنا هذه بحكم الظروف والملابسات ٠

أما الموضوعات التي استحدثت في هذه الفترة ولم يكن لها نظير قبل ذلك فمنها ما كان استجابة لأحداث معينة كأحداث الفتنة الطائفية ومحاولة التفريق بين عنصري الأمة ، تلك التي تصدى لها الشعراء وأنشأوا حولها قصائد عديدة تستهدف التأليف بين المسلمين والمسيحيين ٠

وقد كانت هذه القصائد في مجموعها موضوعا جديدا ارتبط مولده بظروف معينة جرت على الساحة الوطنية المصرية في هذه الفترة (١) ٠

ومنها ما كان صدى لأحداث العالم الاسلامي كالحرب الطرابلسية ، والحرب البلقانية ٠ فقد هزت هذه الحروب وجدان المسلمين عامة والشعراء خاصة فأخذوا ينددون بالعدوان والمعتدين ويدعون لمؤازرة المجاهدين في ميادين القتال ٠ ودعمهم بالمال والعتاد (٢) ٠

وكانت القصائد التي أنشئت بمناسبة هذه الحروب موضوعا جديدا ارتبط ظهوره بأحداث هذه الحقبة ٠

ومنها ما كان صدى للتطور الاجتماعي كالقصائد التي أنشئت في الرد على دعاة السفور وتحرير المرأة (٣) وكالقصائد التي صورت الآفات الاجتماعية ومخازة المدنية الحديثة كالخمر والميسر وتخنث الشباب وغيرها من آثار الاختلاط بالأجانب (٤) ٠

ومنها ماكان صدى لانتشار الوعي الاسلامي الذي أيقظه « جمال الدين الأفغاني » و « محمد عبده » ٠ وقد ظهر أثر هذا الوعي الاسلامي فيما أنشيء من قصائد تدعو الى اصلاح العقائد ومحاربة البدع والخرافات ، والاعتقادات الخاطئة (٥) ٠

---

٢ ـ ديوان حافظ ابراهيم : جـ ٢ ص ٤٢ ، ص ٦٠ ٠

٣ ـ ديوان عبد الحليم المصري جـ ص ٤٩ ٠

٤ ـ ديوان أحمد محرم جـ ٢ ص ١٩٥ ٠

٥ ـ ديوان نسيم جـ ٢ ص ٣ ٠

(١) راجع هذا البحث الفصل الثاني من الباب الأول ص ٨٥ ٠

(٢) راجع في هذا البحث : الفصل الأول من الباب الأول ص ٣٦ ٠

(٣) راجع في هذا البحث : الفصل الثاني من الباب الثاني ص ١٣٠ ٠

(٤) راجع في هذا البحث : الفصل الأول من الباب الثاني ٠ ص ١٠١ وما بعدها ٠

(٥) راجع في هذا البحث : الفصل الأول من الباب الثالث ٠ ص ١١٢ وما بعدها ٠

ومنها ما كان صدى للبعث الحضـــارى ، وللصحوة الاســلامية فى مواجهة الغرب وتحدياته كالقصائد التى أنشئت فى الاشادة بالحضـــارة الاســلامية وتمجيد عظماء الاســلام (١) · والتعريف بالاســلام والرد على مطاعن الخصوم ، فهذه كلها موضوعات جديدة فى الشعر الاسلامى خلقتها ظروف معينة لم تكن موجودة قبل هذه الحقبة ·



---

(١) راجع فى هذا البحث الفصل الثانى من الباب الثالث · ص ١٧٢ ·

أهم نتائج البحث

وبعـــد ..

فها أنذا أضع بين يدى القارىء الكريم أهم النتائج التى انتهيت اليها فى هذا البحث .

ومع أنها لن تكون آخر النتائج ، ستكون ــ باذن الله ــ خطوة على طريق الأدب الاسلامى . الذى ينبغى أن تحتشد له الطاقات الخلاقة وأن توجه اليه البحوث والدراسات الأدبية فى ظل هـذه الصحوة الاسلامية الكبرى ، وتحت قبة الأزهر الشريف الذى كان ولا يزال حصن الدين وموئل التراث العربى والاسلامى ، وعلى هدى من توجيهات أساتذة الأدب والبلاغة والنقد فى جامعاتنا المصرية بعامة ، وفى جامعة الأزهر بخاصة .

وها هى ذى النتائج :

أولا : أن الاتجاه الاسلامى فى شعر مدرسة الشعراء المحافظين فى مصر كان استجابة صادقة لمؤثرات سياسية واجتماعية وثقافية وحضارية ذات صبغة دينية .

ثانيا : أن الاسلام كان ــ ولا يزال ــ أوثق الوشـائج بين شعوب العالم الاسلامى وأنه كان سلاحا فعالا فى كل معارك النضال التى خاضتها الأمة الاسلامية . فمن خلاله عبأ الزعماء شعور الأمة للجهاد ، وحرضوها على القتال ، وحببوا اليها البذل والعطاء واستثاروا حميتها لمؤازرة المجاهدين فى ميادين القتال .

وبذلك كان الاســلام هو الحبــل المتين الذى شد المسلمين بعضهم كالبنيان المرصوص فى مواجهة الخطر الزاحف ، وكان هو الحصن المنيع الذى قاوم المسـلمون من داخـل أســواره طـلائع الصليبية فى العصر الحـــديث .

ثالثا : أن تمجيد الشعراء للحضارة الاسلامية ، واشادتهم بعطائها وتعظيمهم للاسلام الذى صنعها وللأمة التى حملتها الى الناس كان استدعاء لمعانى العظمة فى تاريخ المسلمين يشد عزائم المعاصرين الى المجد ، ويدفع عنهم ظلمة اليـــأس ، ويرد اليهم ثقتهم بأنفسهم ويحفزهم الى النضـــال والمقـــاومة ٠

رابعا : أن التحدى الحضارى بين الشرق الاسلامى والغرب الصليبى قد دفع المفكرين من زعماء الاصلاح الاسلامى ومعهم الشعراء المحافظين الى ابراز قسمات الحضارة الاسلامية من خلال المفاهيم والمبادىء التى جـاء بها الاسلام تأكيدا لصلاحيته لأن تقوم على أساسه حضارة متينة ٠

خامسا : ان التحدى الحضارى لا يزال قائما ومن هنا كانت الحاجة الى عرض الاســلام والتعريف بخصــائصه ومزاياه بصورة تليق بمكانته وتحبب الى الناس منهجه أشد من أى وقت مضى ، وهذا واجب اســلامى عام ينبغى أن ينشط له المسلمون كافة ودعاة الاسلام من علمائه ومفكريه خاصــــة ٠

سادسا : أن الشعر المحافظ فى مصر قد أدى رسالته فى هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ أمتــه ، فصــاغ الشعور الاســلامى ، وعبر عن الآمال الوطنية وشارك فى شرف الاصلاح الاجتماعى ٠ وكان للأداء الفنى الذى تميز به أثره فى نفوس الجماهير التى استمعت اليه وانفعلت به ورددته فى مناسباتها الدينية والوطنية لأنها رأت فيه آمالها وأمانيها ٠

سابعا : أن الشعراء المحافظين لم يهيموا فى أودية الخيال وشعوبهم تتلوى جوعا وتئن تحت وطأة المشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية وانما نسوا ــ الى حد ما ــ ذواتهم وانغمسوا فى تيار الحياة الاجتماعية موقنين بأن من انسانية الشاعر أن يكون فى قومه نغم شــادى تستريح اليه نفوسهم ، وتستجيب له عواطفهم ، وتتلاقى عنده آلامهم وآمالهم ، وأن من أمانة الكلمة أن تكون لوجه الحق ولخير المجتمع ٠

ثامنا : ان ما أشرت اليه خلال البحث من أفكار الشعراء المحافظين حول قضايا المرأة والمال والتعليم والشباب انما يختص بما يقع منها فى فترة البحث فحسب ، وان ما طرحه الشــعراء فى هــذه الفترة من أفكار اســلامية لم يكن غاية جهادهم الاسلامى فى ميدان الحياة الاجتماعية بل

كانت لهم آراء وأفكار اسلامية أخرى نبعت من وحى الظروف والمتغيرات الاجتماعية الجديدة ٠

بمعنى أننـا لو مددنا هذه الدراسـة الى فترة تالية لوجدنا أفكارا ومضامين جديدة ، وهذا يدل على أن الشعر المحافظ لم يجمد فى مواجهة الأحداث والظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المتجددة ٠

ولعلى بهـذه الاشارة الى محدودية الأفكار فى فترة البحث أنفى عن شعرائنا المحافظين ما قد يتهمون به من سطحية الأفكار ، وضآلة الثقافة مؤكدا أن بواكير القضايا ــ كثيرا ما ــ يغلب عليها طابع العموم والسطحية ٠

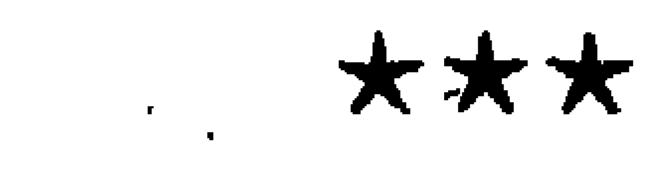
تاسعا : ان الشعراء المحافظين لم يكن خط اسلامى متميز يصدرون عنه دائما فى تناولهم للقضايا الوطنية وغير الوطنية وانما كانت لهم أفكار تنبع حينا من العاطفة الاسلامية وتنبع حينا آخر من غير العاطفة الاسلامية ٠

★★★

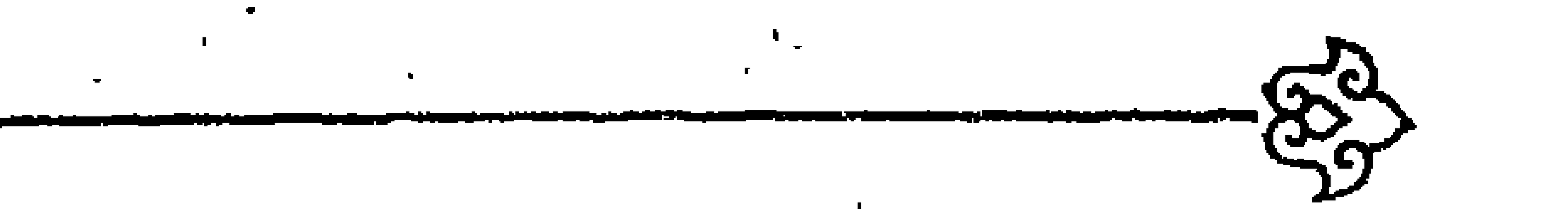
عاشرا : أن الشعراء المحافظين قد تميزوا بمنهج فنى يقوم على التقليد فى الشكل والتجديد فى المضمون ٠ وبهذا المنهج الفنى استطاع هذا الجيل من الشعراء أن يجمع بين المحافظة على المـادة الأدبية القديمة فى صياغة الشعر وبين التعبير عن آمال الأمة وأمانيها الوطنية والاسلامية ٠

وهذا دليل على طواعية اللغة العربية وقدرتها على التعبير عن قضايا العصر ومشكلاته ، والتعامل مع الحضارة ومستحدثاتها ، ولعل فى ذلك ما ينفى عن لغتنا العربية تهمة القصور عن مواكبة التطور الحضارى للأمة الاسلامية والعربية ٠

هــذا ٠٠ وبالله التوفيــق ٠



أهم مراجع البحث



أولا ــ الكتب :

١ ــ ابراهيم أنيس (الدكتور) : **موسيقى الشعر** . ط ٣ ، سنة ١٩٦٥ .

٢ ــ أبو الحسن الندوى : **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين** . القاهرة ، ط ١٠ ، سنة ١٩٧٧ .

٣ ــ أحمد أمين : **زعماء الاصلاح فى العصر الحديث** . ط سنة ١٩٤٨ .

٤ ــ أحمد أمين : **فيض الخاطر** . جـ ٣ .

٥ ــ أحمد بدوى (الدكتور) : **أسس النقد الأدبى عند العرب** ، دار نهضة مصر للطبع والنشر .

٦ ــ أحمد الحوفى (الدكتور) : **أضواء على الأدب الحديث** . دار المعارف ط ١ ، سنة ١٩٨١ .

٧ ــ أحمد الحوفى (الدكتور) : **الاسلام فى شعر شوقى** ، طبع المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .

٨ ــ أحمد الحوفى (الدكتور) : **القومية العربية فى الشعر الحديث** . دار نهضة مصر .

٩ ــ أحمد الحوفى (الدكتور) : **وطنية شوقى** . ط ٣ . دار نهضة مصر .

١٠ ــ أحمد الحوفى (الدكتور) : **ديوان شوقى** . جزءان ، توثيق وتبويب وشرح وتعقيب دار نهضة مصر .

١١ ـ أحمد الزين : **قلائد الحكمة** • نظم أحمد الزين • طبع بمطبعة الحياة ، سنة ١٩١٨ •

١٢ ـ أحمد السايح : **مستقبل الحضارة الاسلامية** • القاهرة ، سنة ١٤٠٥ هـ •

١٣ ـ أحمد الشايب : **أصول النقد الأدبى** • ط (٨) ، سنة ١٩٧٣ • النهضة المصرية •

١٤ ـ أحمد شوقى (الشاعر) : **الشوقيات** • أربعة أجزاء ، ط المكتبة التجارية بالقاهرة ، سنة ١٩٨٢ •

١٥ ـ أحمد شوقى (الشاعر) : **ديوان دول العرب وعظماء الاسلام** • سنة ١٩٣٣ ، القاهرة •

١٦ ـ أحمد الكاشف : **ديوان الكاشف** • جـ ١ ، ط ، سنة ١٩٠٣ ، مطبعة جريدة الراوى •

ديوان الكاشف ، جـ ٢ ، ط ، سنة ١٩١٣ ، مطبعة الجريدة •

١٧ ـ أحمد محرم : **ديوان أحمد محرم** • جـ ١ ط ، سنة ١٩٠٨ ، مطبعة الجريدة بمصر •

ديوان أحمد محرم ، جـ ٢ ، ط ، سنة ١٩٢٠ ، مطبعة الفتوح بدمنهور •

١٨ ـ أحمد نسيم : **ديوان أحمد نسيم** • جـ ١ ، طبع سنة ١٩٠٨ ، مطبعة الاصلاح •

ديوان أحمد نسيم • جـ ٢ ، طبع سنة ١٩١٠ ، مطبعة الهـــلال •

١٩ ـ أحمد هيكل (الدكتـور) : **تطور الأدب الحـديث فى مصر** • دار المعارف ، ط ، ٣ •

٢٠ ـ اسماعيل صبرى : **ديوان اسماعيل صبرى** • مطبـعة لجنـــة التأليف ، سنة ١٩٣٨ •

٢١ ـ أنور الجندى : **الاسلام فى غزوة جديدة للفكر الانسانى** • طبع المجلس الأعلى للشئون الاسلامية •

٢٢ ـ أنور الجندى : **العالم الاسلامى والاستعمار السياسى والاجتماعى والثقافى** • طبع ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت •

٢٣ ـ أنور الجندى : **الاسلام فى معركة التغريب** • طبع المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، سنة ١٩٦٤ •

٢٤ ـ أنور الجندى : **الصحافة السياسية فى مصر منذ نشأتها الى الحرب العالمية الثانية** • مطبعة الرسالة ، سنة ١٩٦٢ •

٢٥ ـ بدوى طبانة (الدكتور) : **قضايا النقد الأدبى** • الأنجلو المصرية •

٢٦ ـ حافظ ابراهيـم : **ديوان حافظ ابراهيم** • جزءان ، طبعة بيروت ، سنة ١٩٦٩ •

٢٧ ـ حافظ ابراهيـم : **ليالى سطيح** • مطبعة الوحدة ، سنة ١٩٥٩ •

٢٨ ـ حسن الفقى (الدكتور) : **التـاريخ الثقافى للتعليم فى مصر** • دار المعارف ، سنة ١٩٧١ ، ط ٢ •

٢٩ ـ حسن القاياتى : **ديوان القاياتى** • سنة ١٩١٠ •

٣٠ ـ حلمى مرزوق (الدكتور) : **تطورات النقد والتفكير الأدبى الحديث فى مصر** • دار المعارف ، سنة ١٩٦٦ • الطبعة الأولى •

٣١ ـ زينب رضوان (الدكتور) : **النظرية الاجتماعية فى الفكر الاسلامى أصولها وبناؤها** • دار المعارف ، سنة ١٩٨٢ •

٣٢ ـ سـالم قنيبر : **الاتجـاهات السياسية والفكرية والاجتمـاعية فى الأدب المعاصر** • بيروت ، سنة ١٩٦٨ •

٣٣ ـ سالم أحمد الحمدانى : **التيار الدينى فى الشعر العراقى الحديث** • رسالة دكتوراه بآداب عين شمس •

٣٤ ـ سعد الدين الجيزاوى (الدكتور) : **أصـداء الدين فى الشعر المصرى الحديث** • مكتبة نهضة مصر ، الطبعة الأولى •

٣٥ ـ سعد الدين الجيزاوى (الدكتور) : **العـامل الدينى فى الشعر المصرى الحديث** • طبع المجلس الأعلى لرعاية الفنـون والآداب ، سنة ١٩٦٤ •

٣٦ ـ سـيد قطب : **النقد الأدبى أصوله ومناهجه** • ط (٤) ، دار الشروق ، سنة ١٩٨٠ •

٣٧ ــ سيد قطب : **معالم فى الطريق** . دار الشروق ، د . ت .

٣٨ ــ سيد قطب : **العدالة الاجتماعية فى الاسلام** . ط (٧) دار الشروق ، سنة ١٩٨٠ .

٣٩ ــ شكيب أرسلان : **لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم** . المركز السلفى ، سنة ١٩٨١ .

٤٠ ــ شكيب أرسلان : **شوقى أو صداقة اربعين عاما** . مطبعة الحلبى . سنة ١٩٣٦ .

٤١ ــ شوقى ضيف (الدكتور) : **فى النقد الأدبى** . دار المعارف ، ط (١) .

٤٢ ــ طه حسين (الدكتور) : **حافظ وشوقى** . ط سنة ١٩٧٤ ، ط وزارة التربية والتعليم .

٤٣ ــ طه حسين (الدكتور) : **مستقبل الثقافة فى مصر** . دار المعارف ، سنة ١٩٣٨ .

٤٤ ــ طه وادى (الدكتور) **شعر ناجى الموقف والأداة** . دار المعارف ، ط (٢) ، سنة ١٩٨١ .

٤٥ ــ عباس محمود العقاد : **حقائق الاسلام وأباطيل خصومه** . ط (١) ، سنة ١٩٥٧ ، مطبعة مصر .

٤٦ ــ عباس محمود العقاد : **شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى** . دار نهضة مصر .

٤٧ ــ عباس محمود العقاد : **ما يقال عن الاسلام** . سنة ١٩٦٦ ، ط الهلال .

٤٨ ــ عباس محمود العقاد : **عبقرية محمد** . صلى الله عليه وسلم .

٤٩ ــ عباس محمود العقاد : **خلاصة اليومية والشذور** . مطبعة الهلال ، سنة ١٩١٢ .

٥٠ ــ عبد الحليم المصرى : **ديوان عبد الحليم المصرى** . الجزء الأول سنة ١٩١٠ ، والجزء الثانى ، سنة ١٩١١ ، الجزء الثالث ، سنة ١٩١٨ .

٥١ ــ عبد الحى دياب : **العقاد ناقدا** . دار الشعب .

٥٢ ـ عبد الرحمن الرافعي : **مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال** . سنة ١٩٤٢ . ط (الأولى) .

٥٣ ـ عبد الرحمن الرافعي : **محمد فريد رمز الإخلاص والوطنية** . ط (٣) ، سنة ١٩٦١ .

٥٤ ـ عبد الرحمن الرافعي : **شعراء الوطنية** . ط (١) ، سنة ١٩٥٤ . مكتبة النهضة المصرية .

٥٥ ـ عبد الكريم الخطيب : **التعريف بالاسلام في مواجهة العصر الحديث وتحدياته** . ط (١) ، سنة ١٩٦٥ ، دار الكتاب العربي .

٥٦ ـ عبد اللطيف خليف (الدكتور) : **التيارات الجديدة في الشعر العربي الحديث في مصر** . سنة ١٩٧٧ .

٥٧ ـ عبد الهادي النجار (الدكتور) : **الاسلام والاقتصاد** . عالم المعرفة، سنة ١٩٨٣ .

٥٨ ـ علي حسني الخربوطلي (الدكتور) : **غروب الخلافة الاسلامية** . مؤسسة المطبوعات الحديثة . د . ت .

٥٩ ـ علي الغاياتي : **وطنيتي** . ديوان الغاياتي ، القاهرة ، سنة ١٩٣٨ .

٦٠ ـ علي النجدي ناصف : **الدين والأخلاق في شعر شوقي** . ط (٢) ، سنة ١٩٦٤ . مكتبة نهضة مصر .

٦١ ـ عمر أبو النصر : **محمد بن عبد الله وآراء مشاهير الغرب في رسالته ونبوته والإسلام** . سنة ١٩٣٥ . مطبعة الوفاء ، بيروت .

٦٢ ـ عمر الدسوقي : **في الأدب الحديث** . جـ ٢ ، ط ٤ ، سنة ١٩٦١ .

٦٣ ـ عمر دقاق : **الاتجاه القومي في الشعر المعاصر** . القاهرة ، سنة ١٩٦١ .

٦٤ ـ غوستاف لوبون : **حضارة العرب** . ترجمة عادل زعيتر . مطبعة الحلبي ، د . ت . ط (٤) .

٦٥ ـ قاسم أمين : **تحرير المرأة** . مكتبة الترقي ، سنة ١٨٩٩ .

٦٦ ـ لوثروب ستودارد : **حاضر العالم الاسلامي** • نقله الى العربية عجاج فويهض ، المطبعة السلفية ، سنة ١٩٢٥ •

٦٧ ـ ماهر حسن فهمي (الدكتور) : **حركة البعث في الشعر العربي الحديث** • مكتبة الهلال ، د • ت •

٦٨ ـ ماهر حسن فهمي (الدكتور) : **قاسم أمين** • مطبعة مصر ، سنة ١٩٦٣ •

٦٩ ـ محمد ابراهيم الجيوشي : **شاعر العروبة والاسلام احمد محرم** • دار العروبة ، سنة ١٩٦١ •

٧٠ ـ محمد حمدي النشار : **ثمرات الأفكار** • مطبعة الاسكندرية ، سنة ١٩٢١ •

٧١ ـ محمد رشيد رضا : **تاريخ الامام محمد عبده** • ج ١ ، طبع سنة ١٣٢٤ هـ ، ط (١) ، ج ٢ ، طبع سنة ١٣٤٤ ، ط (٢) بمطبعة المنار بمصر •

٧٢ ـ محمد سيد كيلاني : **ترام القاهرة** • سنة ١٩٦٨ •

٧٣ ـ محمد سيد كيلاني : **السلطان حسين كامل فترة مظلمة من تاريخ مصر** • القاهرة •

٧٤ ـ محمد صبري (الدكتور) : **الشوقيات المجهولة** • مطبعة دار الكتب، سنة ١٩٦١ •

٧٥ ـ محمد طلعت حرب : **تربية المرأة والحجاب** • مطبعة الترقي ، سنة ١٨٩٩ •

٧٦ ـ محمد عبد المحسن بدر (الدكتور) : **التطور والتجديد في الشعر المصري الحديث** • رسالة ماجستير بكلية الآداب جامعة القاهرة ، سنة ١٩٥٧ •

٧٧ ـ محمد عبد المطلب : **ديوان عبد المطلب** • مطبعة الاعتماد بمصر •

٧٨ ـ محمد العزب (الدكتور) : **ظواهر التمرد الفني في الشعر المعاصر** • القاهرة ، سنة ١٩٧٨ •

٧٩ ـ محمد عمارة (دكتور) : **تيارات اليقظة الاسلامية الحديثة** • القاهرة ، سنة ١٩٨٢ •

٨٠ ـ محمد عمارة (دكتور) **الأعمال الكاملة للامام محمد عبده** . المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ط (٢) ، سنة ١٩٨٠ .

٨١ ـ محمد عمر : **حاضر المصريين أو سر تأخرهم ١٩٠٢** . مطبعة المقتطف .

٨٢ ـ محمد الغزالى : **التعصب والتسامح بين المسيحية والاسلام** .

٨٣ ـ محمد الغزالى : **الاسلام والاستبداد السياسى** .

٨٤ ـ محمدكرد على : **القديم والحديث** . مطبعة الرحمانية ، القاهرة ، سنة ١٩٢٥ .

٨٥ ـ محمد كرد على : **الاسلام والحضارة العربية** . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٤ ـ ١٩٣٦ .

٨٦ ـ محمد محمد حسين (الدكتور) : **الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر** . ط (٣) ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، سنة ١٩٨٠ .

٨٧ ـ محمد مندور (الدكتور) : **الشعر المصرى بعد شوقى** . مكتبة نهضة مصر ، سنة ١٩٥٥ .

٨٨ ـ محمود سامى البارودى : **ديوان البارودى** . دار المعارف ، القاهرة ، سنة ١٩٧١ .

٨٩ ـ مصطفى صادق الرافعى : **ديوان الرافعى** . جـ ١ ، سنة ١٣٢١ هـ المطبعة العمومية بمصر ، جـ ٢ طبع بمطبعة الجامعة بالاسكندرية ، سنة ١٣٢٢ هـ ، جـ ٣ طبع بمطبعة الأخبار ، سنة ١٣٢٣ هـ .

٩٠ ـ مصطفى كامل : **المسألة الشرقية** . ط أولى ، سنة ١٨٩٨ .

٩١ ـ مكرم عبد الفتاح عبد الخالق : **العلاقات المصرية العثمانية** . رسالة دكتوراه بكلية الآداب ، جامعة عين شمس ، سنة ١٨٨٢ .

٩٢ ـ نصر الدين عبد الحميد نصر : **مصر وحركة الجامعة الاسلامية** . الهيئة العامة للكتاب ، سنة ١٩٨٤ .

٩٣ ـ نفوسة زكريا : **تاريخ الدعوة الى العامية وأثرها فى مصر** . نشر دار الثقافة بالاسكندرية ، سنة ١٩٦٤ .

ثانيـا ـ الدوريات :

١ ـ العـروة الوثقى	: ١٨٨٤
٢ ـ الأسـتاذ	: ١٨٩٣
٣ ـ المـؤيد	: ١٨٩٩/١٩٠٨/١٨٩٧
٤ ـ المنـار	: ١٨٩٩
٥ ـ اللـواء	: ١٩٠١/١٩٠٠/١٩٠٨
٦ ـ وادى النيل	: ١٩١٥
٧ ـ الأهـالى	: ١٩١٥
٨ ـ الأهـرام	: ١٩٨٥/٣/٢٩
٩ ـ مجلة الفصول	: المجلد الثالث ١٩٨٣/١٩٨٢

★★★

فهرس الاتجاه الاسلامى
فى الشعر المحافظ

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢١٥٥/١٩٩٠

ISBN – ٩٧٧ – ٠١ – ٢٣٦٤ – ١

هذا الكتاب دراسة فى الشعر المصرى الحديث من منظور إسلامى يتمثل فى ابراز المفاهيم الإسلامية التى أثارها شعراء الاتجاه المحافظ فى مختلف القضايا السياسية والاجتماعية والثقافية والحضارية فى الفترة ما بين الاحتلال البريطانى فى ١٨٨٢ والثورة المصرية ١٩١٩ .

وقد أكدت هذه الدراسة من خلال النصوص الشعرية أن الإسلام كان – ولا يزال – أوثق الوشائج بين شعوب العالم الإسلامى ، وأنه كان سلاحا فعالا فى كل معارك النضال التى خاضتها الأمة الإسلامية ضد الاستعمار بكل أشكاله وصوره .

كذلك أكدت الدراسة أن الشعر المصرى المحافظ قد أدى رسالته فى هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ امته فصاغ الشعور الإسلامى وعبر عن الآمال الوطنية وشارك فى شرف الإصلاح الاجتماعى،وأن الشعراء المحافظين لم يهيموا فى أودية الخيال وشعوبهم تتلوى جوعا ؛ وتئن تحت وطأة المشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية بل انغمسوا فى تيار أمتهم موقنين بأن من إنسانية الشاعر أن يكون فى قومه نغما شاديا تستريح إليه نفوسهم وتستجيب له عواطفهم وتتلاقى عنده آلامهم وأمالهم ، وأن من أمانة الكلمة أن تكون لوجه الحق ولخير الناس .



مة للكتاب

٤٥٠ قرشا